
رواية يابانية
التاريخ السرّي لأمير موساشي
جونتشيرو تانيزاكي
ترجمة : كامل يوسف حسين
دار الآداب



التاريخ السري لأمير موساشي


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

جونيتشيرو تانيزاكي

التاريخ السري لأمير موساشي

رواية

ترجمة : كامل يوسف حسين

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى

١٩٨٩

مقدمة المترجم

من المحقق أن القارىء العربي ، الـذي تابـع بحب وتعاطف ، تجليات مشروعنا للتعريف بالرواية والمسرح اليابانيين ، قد لاحظ أن غالبية الكتّاب الذين تصدينا للتعـريف بهم أو لترجمـة أعمالهم هم كتّاب لا تعرفهم المكتبة العربية ، رغم شهرتهم العـالمية ، أو على الأقل لم تعرف من قبل الأعمال التي نقلناها إلى العربية عنهم .

غيـر أننا لا نستـطيع هنـا الزعم بـأن هذه القـاعدة تنـطبق على تـانيزاكي ، فـالتعـريف بهـذا الكـاتب العمـلاق تمّ على يـد كتّـاب ومترجمين عرب أفاضل منذ ما يزيد على ربع القرن من الزمان ، وقد أتيح للقارىء العربي الإطلال على جانب من إبداعه .

من هنا ، على وجه الدقّة ، بدا غريباً لنا حقاً أننا حاولنا العثـور على أي من أعمال تانيزاكي البارزة في طبعة عربية ، دون أن يكلل مسعانا بالتوفيق . حقاً إننا وجدنا ترجمات عربية طيبة لبعض قصصه القصيرة متناثرة هنا وهناك . ولكننا لم نعثر على أثر قط لأيّ عمل بارز له .

ربمـا لهذا نعتقـد أننا بتقـديمنا هـذا المجلد المـاثـل بين يـدي القارىء نسد فـراغاً في المكتبـة العربيـة ، ونستدرك بعضـاً من كثير فاتنا .

مـع ذلـك ، فـإن هـذا كله لا يعفينـا من واجب نـرى أن من

الضروري الاضطلاع به ، وهو جلاء بعض النقاط ، التي تبدو غامضة في حياة وأدب تانيزاكي ، ومن ثم الإطلال على عالمه الروائي ، مع إشارة خاصة إلى العملين اللذين يضمهما هذا الكتاب ، وهما « التاريخ السري لأمير موساشي » و « المرنطه » * .

الحقيقة التي تلفت نظرنا ، بادىء ذي بدء ، هي أنه ربما لم يقدر لكاتب أن يوصف بقدر هائل من الأوصاف وأن يحسب على تيارات عديدة ومتناقضة وأن تقسم مراحل إبداعه إلى تصنيفات شديدة الغرابة على نحو ما حدث لتانيزاكي .

فدائرة المعارف البريطانية لا تتردد سواء في القسم المختصر منها تحت اسم الكاتب نفسه ص ٨٠٧ أو في القسم الموسع منها تحت عنوان « أدب شرق آسيا » ـ ج ١٠ ص ١٠٧٢ في القول بأنه كاتب تتسم كتاباته بالنزعة الشهوانية والتقليدية ، ويسارع الباحث الأميركي البارز في الدراسات اليابانية الأدبية إلى وصفه في كتابه «مناظر ولوحات » بأنه رائد من رواد المدرسة الرومانسية الجديدة . أما مجلة « ماغازين ليترير » الفرنسية فهي تقفز عبر المجهول في ملف لها أفردته للأدب الياباني المعاصر إلى القول بأن أبرز المحاور التي ينبغي التصدي لها لدى معالجة عالم تانيزاكي الروائي هي : « الشذوذ ـ الكلاسيكية ـ الشكلانية » . ويحرص العلامة مارتن سيمور سميث على أن يؤكد لنا أن أسلوب تانيزاكي في نضجه لم يكن « انطباعياً على وجه الحصر » .

ترى أين جونيتشيرو تانيزاكي من هذا كله ؟

(*) المرنطة : نبات له جذور يستخرج منها نشاء مغذ ، لاحظ ولع تانيزاكي بالحديث عن النباتات والربط بينها وبين البشر ، كما في العمل الذي يحمل هذا الاسم ، وفي روايته « البعض يفضلون القُرّاص » . (هـ . م .) .

ولد تانيزاكي في ٢٤ يوليو ١٨٨٦ في مدينة طوكيو ، ورحل عن عالمنا في ٣٠ يوليو ١٩٦٥ في يوجاوارا. وبين التاريخين والمكانين امتدت رحلة هائلة ، قد لا نبالغ إذا وصفناها بأنها رحلة دائرية من النقيض إلى النقيض .

وبعض الكتّاب يميل إلى تقسيم آلي محض لهذه الرحلة ، مركزاً على أن نقطة الانكسار كانت في الزلزال الهائل الذي وقع في عام ١٩٢٣ ، فدمّر يوكوها التي كان الكاتب يقيم فيها بكاملها وقضى على شطر من مدينة طوكيو ، ويشير إلى أنه قبل انتقال تانيزاكي للإقامة في منطقة كيوتو معقل التقاليد اليابانية العريقة كان يميل في اتجاه الدفع نحو المزيد من انطلاق اليابان باتجاه أساليب الحياة والإنتاج الغربية،وأنه في المرحلة الثانية عاد ليتحفظ على كثير من آرائه في المرحلة الأولى .

ومن المؤكد أن هذا التفسير ، ربما لسهولته البالغة ولخلوه من التعقيدات ، يغري بتبنّيه على الفور كتفسير وحيد لمسار تانيزاكي . ولكن عيبه شديد الوضوح هو أنه لا علاقة له بالواقع .

فلنبدأ ، إذن ، من البداية كما يقولون .

الحقيقة الأولى هنا هي أن تانيزاكي ولد لعائلة تنتمي إلى طبقة التجار اليابانية القديمة التي تنامت في مرحلة نمو مدينة إيدو ، أي طوكيو القديمة وتوسعها ، وهي طبقة تركت بصمتها القوية على تاريخ اليابان الحديث ، وهناك من الباحثين من يذهبون إلى أنه رغم كل محاولات ضربها،فقد كانت هي الطبقة الأكثر حيوية ونشاطاً وقدرة على مواصلة البقاء ربما حتى اليوم .

إذا أضفنا هذا إلى دراسة تانيزاكي للأدب الياباني التقليدي في

جامعة طوكيو الأمبراطورية وفي الوقت نفسه انطلاقـه يغترف بنهم لا يشبع من ثمار حركة الترجمة اليابانية النشطة في هذه الفترة واطلاعه عند بداية ممارسته للكتابة على أعمال أوسكار وايلد وإدجار ألان بو وبودلير وابسن وزولا وستراندبرج وغيرهم،لأدركنـا لماذا استقـر في أعماق تانيزاكي الشاب ضرورة الأخذ بالمناهج الغربية لا في التنمية والتحديث فحسب وإنما في الحياة والسلوك أيضاً .

من هنا لا يبدو لنا غريباً أنه في وقت واحد شعر بالقلق على أهله في طوكيو وقت وقوع زلزال ١٩٢٣ ، وبالفرح لأن طـوكيو بعـد إعادة إعمارها ستنقلب إلى مدينة غربية .

لماذا ؟

إن دونالد كين ينقل عن تانيزاكي رداً فورياً : « هذا هو منعطف العصـر المحتوم.وسـواء أحبّه المـرء أم لم يحبّه ، فـإن هذا هـو مـا سيقع » .

غير أن عالم تانيزاكي الروائي يصور لنا ، ببطء شديـد ، إدراك الكاتب أن هذا التغريب إذا انطلق مطلق السراح في اليابان من شأنه أن يتحول إلى تخريب ما لم يعادله بعث مقابل لأرقى ما في التقاليد الحضارية اليابانية .

ويمكن ، بأوسع المعاني،تصوّر ثـلاث مراحـل ، اجتازهـا هذا العالم الروائي الذي شاد تانيزاكي صرحه في غمـار رحلته الـدائريـة تلك :

فقد بدأ الكاتب الياباني الكبير مسار إبداعه متأثراً بكتّاب الغرب الـذين قرأ لهم وبصفـة خاصـة وايلد ، وبـو ، وبـودليـر ؛ وفي هذه المـرحلة شغله ذلـك الارتبـاط الغـائم والغـريب بين نـزعـة التحلل

والانحدار وبين الجنس ، وتجسد هذه البداية قصة قصيرة محددة هي الضحية ـ التي ترجمت إلى العربية مراراً وتكراراً تحت عنوان « الوشم » ، ونشرها عام ١٩٠٩ . وفي كتابه الذي يركز فيه على تزاوج الشهوة والقتل بعنوان « قضية الربيع » ١٩١٤ يستمر هذا الاتجاه ، جنباً إلى جنب مع الاهتمام بالموضوعات التاريخية .

لكن التحول التدريجي من المناداة بالتغريب على إطلاقه إلى ضرورة التحديث وبعث الروح اليابانية العريقة يشرع وئيداً في ترك بصمته في المرحلة الثانية لتطور عالم تانيزاكي الروائي ، ويبدو هذا في رواية « عشق الأبله » ـ التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية تحت اسم البطلة « ناوومي » ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ ، وتلك رواية يبدو فيها واضحاً تبنّي أسلوب الكاتب الإنجليزي سومرست موم في روايته الضافية « عبودية إنسانية » وإعادة صياغتها في إطار ياباني . ورغم أنها لا ترضينا كعمل فنيّ ، إلا أنها تكشف تقلقل إيمان تانيزاكي بالتغريب المطلق ، بل لعلها تحذير من خطورة هذا المنهاج لمن يتبنّونه على إطلاقه .

وشأن كل كتاب اليابان جميعاً فإن عنصر السيرة الذاتية يترك بصمته على عمل تانيزاكي رغم أنه هو نفسه يصارحنا ، كما سنرى بعد قليل ، بأنه لا يطيق عملاً روائياً يشتمّ منه أن الكاتب يتحدث عن نفسه . فنحن في رواية « البعض يفضلون القُرّاص » ١٩٢٨ نجد أنفسنا بإزاء عمل يوشك أن يكون صريحاً في تحديده لمعالم الحياة الخاصة لكاتبه ، فهنا قصة دمار الحياة الزوجية للكاتب مسطرة بصراحة جارحة ، ونلاحظ بصفة خاصة أن البطل يضيق ذرعاً بزوجته « العصرية » ، ويُجتذب بالمقابل إلى خليلة أبيه ، وهي حسناء يابانية تتمسك بالطرق التقليدية في الحياة والحب .

ابتداءً من الثلاثينيات والأربعينيات يلج تانيزاكي مرحلته الثالثة والأخيرة باعتباره كاتباً من أبرز كتاب اليابان ، وإلى هذه المرحلة ينتمي العملان اللذان يضمهما هذا المجلد ، لكننا قبل أن نلقي إطلالة عجلى عليهما نود أن نشير إلى إنجازين حلقا بتانيزاكي إلى سماء الإبداع الياباني .

أما العمل الأول فهو قيامه ـ ثلاث مرات ـ بنقل رائعة موراساكي شيكيبو الفاتنة المنتمية إلى القرن الحادي عشر الميلادي والموسومة « حكاية جينجي » من اليابانية القديمة إلى اليابانية العصرية المتداولة بين القراء العاديين.

أما العمل الثاني فهو رائعته الفريدة « الأخوات ماكيوكا » ١٩٤٣ ـ ١٩٤٨ . ويلفت النظر هنا أن السلطات اليابانية أوقفت نشر هذا العمل خلال الحرب بحجة أنه يتعارض والمجهود الحربي . والحق أن الرواية تمثل انطلاقاً فريداً حتى في إطار عالم تانيزاكي الروائي المدهش نفسه ، فهي تحكي بنعومة وبتفاصيل سحرية قصة أخوات أربع في اليابان ١٩٣٩ ـ ١٩٤٩ ، ومناطها هو البحث عن زوج للأخت الصغرى . ولكنها ، في حقيقة أمرها ، رحلة هائلة ، يحاول تانيزاكي من خلالها وضع يده على جوهر العبقرية الحضارية لليابان .

وفيما يتعلق بـ «التاريخ السري لأمير موساشي » و «المرنطة» اللذين نقدمهما للقارىء العربي هنا ، سنرى حالاً كيف أنهما كانا من الأعمال الأثيرة لدى تانيزاكي والمحببة إلى نفسه .

لكن ما أتمنى على القارىء أن يتأمل فيه كثيراً هو هيكل هذين العملين ، كعالمين قائمين بذاتهما ، كبنيتين تتقدمان لنا بأسرارهما ، وبمغاليقهما ، وأيضاً بعلاماتهما الخاصة فيما تتحدّياننا أن نرتحل معهما .

سنلاحظ على الفور أن العمل الأول كتب بالإحالة إلى الأسلوب التوثيقي ، إذ يتناهى لنا عبر مخطوطات قديمة تفضّ أسرارها ، وهو أسلوب يبدو أثيراً اليوم لدى بعض الكتاب العرب ، وقد يهمهم أن يروا عملاً مكتوباً بهذا الأسلوب ولكن مع فارق بسيط هو نصف قرن من الزمان فحسب .

أما العمل الثاني فقد يخاطب من يتحمسون لأسلوب القصة ـ المقال ، ومن تداعب خيالهم منجزات الواقعية السحرية ، وقد يهمهم أن يروا عملاً وصل إلى هذا الحد من الإبداع ، قبل أن يجد هذا الاصطلاح من يتصدى لصياغته .

وربما كانت أبرز جوانب عبقرية تانيزاكي قدرته على استقطابنا نحو اقتحام المجهول . هنا جانب من تجليات هذه العبقرية .

فهل نبدأ رحلتنا معه ؟

المترجم

مقدمة

في عام ١٩٤٨ ، وبعد أن أتم تانيزاكي رائعته الموسومة « الأخوات ماكيوكا » كتب يقول إن أقرب أعماله إلى قلبه هي « البعض يفضلون القُرّاص » (١٩٢٨ ـ ١٩٢٩) و « المَرْنَطة » (١٩٣٠) . وكانت رواية « التاريخ السري لأمير موساشي » ، التي كتبت في الفترة من ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ ، من الأعمال الأخرى الأثيرة لديه . وغالباً ما كان يتحدث عن كتابة تكملة لها ، عُثر على مخططها العام ، بعد وفاته .

وتنتمي « المرنطة » و « التاريخ السري لأمير موساشي » إلى السنوات الوسيطة من حياة تانيزاكي الإبداعية الفذة . وفي الوقت الذي كتب فيه « المرنطة » ، كانت الروايات والقصص القصيرة والمسرحيات والمقالات المنتمية إلى العقدين الأول والثاني من إبداعه قد تم جمعها وإصدارها باعتبارها « أعماله الكاملة » . ولكنه قدر له أن يواصل إثارة الشعور بالصدمة والافتتان لدى قرائه بأعماله الجديدة ، وإضافة المزيد إلى أعماله المتميّزة ، على امتداد خمس وثلاثين سنة أخرى . وفي عام ١٩٦٤ انتخب لنيل العضوية الشرفية في الأكاديمية الأميركية ومعهد الفنون والآداب ، ليكون أول ياباني يحظى بهذا التكريم .

وبوضح العملان اللذان يضمهما هذا المجلد الحدود القصوى

لبراعة تانيزاكي ، وتعدد جوانب إبداعه ، غير أنهما يشتركان مع أعماله الروائية كافة في الخصائص الرئيسية ، التي تميز فنه الروائي « السعي وراء المرأة المثالية » وإدراك أنه كما عبر ووردزورث : « الطفل هو أبو الرجل » ، وأسلوب بليغ متميز بالثراء ، وفي المقام الأول الاستمتاع على الطراز القديم بالقصة الجيدة ، التي تروى على نحو رائع .

خلال الفترة من ١٩١٠ ، إلى ١٩٣٠ فضل تانيزاكي أسلوباً روائياً « تقليدياً» يمضي به قدماً وصف موضوعي على نحو صارم وحوار » ، مثلما هو الحال في رواية « البعض يفضلون القُرّاص » . ولكنه في الفترة الممتدة من عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٣٥ راح يجرب أعمالاً تجمع بين الشكل الروائي وطابع المقال ، تتسم بقدر أكبر من الدقة والذاتية ، الهدف منها هو « العثور على الشكل الذي ينقل أعظم شعور بالواقع » . وفي الوقت نفسه ، يتجلى اهتمام متجدد بالتاريخ الياباني وبالقيم الجمالية اليابانية في كتاباته ، في الفترة من عام ١٩٢٦ فصاعداً . وفي رواية « المرنطة » جمع بين اهتماماته الجديدة وتجريبه والتقاليد ، وذلك للمرة الأولى . وبعد أن توصل إلى هذا التركيب الموفق استغله في سلسلة من روائعه ، بما في ذلك « حكاية ضرير » (١٩٣١) و « صورة لشونكين » (١٩٣٣) و « أم القبطان شيجيموتو » (١٩٤٩) .

ويبدو أسلوب السرد في كل من « المرنطة » و « التاريخ السري لأمير موساشي » مستلهماً من « راهبة كاسترو » لستندال ، وهو العمل الذي ترجمه تانيزاكي إلى اللغة اليابانية في عام ١٩٢٨ . والراوية في قصة ستندال ، شأن راوية « المرنطة » ، يرتحل إلى بقعة نائية في إيطاليا لتبين حقيقة قصة يكتمها مؤرخون متحيّزون ، ومثل راوية

« التاريخ السري » فإنه يبني قصته على أساس مخطوطين عتيقين . غير أن هناك فارقاً ، فقد استخدم ستندال مخطوطات إيطالية حقيقية ، كأساس للحكايات الواردة في مؤلف « قصص إيطالية » ، الذي يضم بين دفتيه قصة « راهبة كاسترو » ، بينما اصطنع تانيزاكي المخطوطات التي يذهب إلى أن « التاريخ السري » يقوم على أساسها ، وجميع الشخصيات والأحداث (باستثناء عدد من القادة الذين ورد ذكرهم في التصدير والكتاب الأول) هي من نسج الخيال الروائي . ومن ناحية أخرى فإن المصادر المذكورة في « المرنطة » هي مصادر أصلية كلها .

وبالمناسبة ، فإنه لا يتعين على القارىء أن يفترض أن راوية « المرنطة » هو تانيزاكي نفسه ، فقد كتب المؤلف يقول ، في عام ١٩٦٤ : « إن الأم المذكورة في هذا العمل هي أم صديق لسومورا ، وليست أمي ، ذلك أن أمي قد ولدت في فوكاجاوا بمدينة إيدو في ١٨٦٤ ، وتوفيت في كاكيجارا ـ تشو بمنطقة نيهومباشي في مدينة طوكيو في ١٩١٧ . وباعتبارها من بنات طوكيو الخُلّص ، فإن قدمها لم تطأ غرب اليابان قط » .

ومن المحقق أن إبداع تانيزاكي الروائي أقل اتساماً بطابع السيرة الذاتية من أعمال معظم الروائيين اليابانيين ، إذ كان يفضل استخدام خياله ، وفي عام ١٩٢٦ كتب يقول :

« لقد اكتسبت مؤخراً عادة سيئة ، إذ ليس بمقدوري أن أحمل نفسي على قراءة أو كتابة أي شيء يتخذ من حقائق الواقع مادة له ، أو يتسم بالواقعية ، وذلك من أسباب عدم قيامي بمحاولة قراءة أعمال المؤلفين المعاصرين ، التي تنشر في المجلات شهرياً ، حيث أمرّ سريعاً بالسطور الخمسة أو الستة الأولى فأقول لنفسي : « آه ، إنه

يكتب عن نفسه » ، وأفقد كل رغبة في مواصلة القراءة . وبصفة عامة ، فإنني أقرأ أشياء لا تربطها بالحاضر صلة ، وعندما أطالع الروايات التاريخية ، أو الحكايات المغرقة في الخيال ، بل والروايات الواقعية التي تعود إلى خمسين عاماً مضت ، أو الروايات الغربية المعاصرة ، البعيدة تماماً عن المجتمع الياباني ، فإن بمقدوري الاستمتاع بها بحسبانها عوالم تنتمي إلى الخيال » .

من هنا ، وكما يمكن للمرء أن يتوقع ، فإن الهالة السحرية التي تحيط بأساطير « يوشينو » هي التي اجتذبت تانيزاكي إلى هناك وألهمته كتابة « المرنطة » . وهو في عام ١٩٦٤ يعيد إلى الأذهان أن : « مشاهدة ازدهار الكرز في طوكيو لا تعدو أن تكون مسألة متعلقة بالجلوس في غرفة لشرب الشاي ، وراء ستائر الخيزران ، مع تناول قطع الزلابية والقلقاس المشوي والبيض المسلوق وشرب زجاجات « الماسامونى » . وفي ظلال هذه الزهور ، لا وجود لوشيتسوني ، أو واكابا ـ نو ـ نايشي ، أو شيزوكا أو تادانوبو أو جينكورو ، الثعلب ، أو طبل هاتسوني ، أو درع هايو دوشي . ولا تبدو مشاهدة الازدهار ، دون هذه الأمور المرتبطة بها ، بمثابة مشاهدة حقيقية لازدهار الكرز على الإطلاق . . . فليس هناك خيال محلق يحيط بأزاهير طوكيو . ولكني حينما ذهبت لمشاهدة المجالي الشهيرة لرؤية الازدهار في غربي اليابان ، أحسست كما لو كنت سألتقي في مكان ما بشبح واكابا ـ نو ـ نايشي ، أو بالسيدة شيزوكا ، بل إني شعرت مرات كما لو كنت قد تحولت إلى ثعلب ، أو إلى « جونتا » ، ورحت أضرب في الآفاق ، وقد اجتذبني قرع طبل أو صفير » .

وشأن راوية « المرنطة » ، ربما كان تانيزاكي قد اعتزم أصلاً أن

يكتب ، على نحو ما أشار في عام ١٩٣٣ ، رواية تاريخية مطولة ، على غرار « كوفاديس » ، تجري أحداثها في يابان العصور الوسطى ، وتحفل برجالات البلاط وبشوجون وكهنة وحسناوات ضالعات في علاقات عميقة ومعقدة ، ويتعرض لتغيرات بعيدة المدى . وتعد رواية « التاريخ السري لأمير موساشي » جزءاً من ثمرة هذا الطموح . وكان تانيزاكي يجد الأعمال التاريخية اليابانية التقليدية التي تأثرت بشدة بالنزعة التقليدية الكونفوشية أعمالاً كئيبة ومغرقة في الطابع التعليمي ، وقد استهجن التأثير الكونفوشي على الأعمال الأدبية اليابانية ، فكتب يقول :

« لن يقدر لنا أن نعرف قط كم عدد العبقريات ، التي فقدها ما يسمى بالأدب الخفيف ، بسبب المفهوم الذي كان رائجاً في العصر الإقطاعي ،والقائل بأن الروايات والأعمال المسرحية إنما هي للترفيه عن النساء والأطفال ، ولا تليق بالساموراي . وكان حرياً بأديب مثل راي سانيو (١٧٨٠ ـ ١٨٣٢) على سبيل المثال ، أن يكتب روايات سياسية أو تاريخية ، تحظى ببعض الدفء الإنساني ، بدلاً من مؤلفه الجاف ذاك الموسوم : التاريخ غير الرسمي لليابان » .

وأحزن تانيزاكي كذلك أن يجد الموقف الكونفوشي والبوذي التقليدي من النساء ـ والقائل بأنهن مخلوقات من طينة أدنى ، غير جديرات بالاكتراث ـ منعكساً في السجلات التاريخية ، فكتب في عام ١٩٣١ يقول :

« غالباً ما أحدّث نفسي بأنني أود كتابة رواية تاريخية ، تقوم على أساس إحدى شخصيات الماضي ، لكني أصاب بالإحباط على الدوام من جراء صعوبة تشكيل صورة واضحة لامرأة أحاطت بهذه الشخصية . . فمنذ عهود غابرة ، قدمت أشجار أنساب

العائلات اليابانية ، من العائلة الأمبراطورية فما دونها ، صوراً مفصلة نسبياً لأنشطة الرجال ، ولكن حينما تظهر امرأة يشار إليها ببساطة على أنها « امرأة » أو « أنثى » ، وعادة ما يكون ذلك دونما إشارة إلى عام ميلادها ، أو وفاتها ، أو حتى اسمها . وبتعبير آخر فإن هناك أفراداً من الرجال في تاريخنا ، ولكن ليس هناك أفراد من النساء » .

وفي العام التالي كتب :

« كنت أرغب في إعادة خلق سيكولوجية النساء اليابانيات المنتميات إلى العصر الإقطاعي ، تماماً على نحو ما كانت ، دونما فرض تفسيرات حديثة ، وفي تصويرها على نحو يخاطب عواطف وفهم القراء المحدثين . . حتى المرأة التي تبدو عفيفة ونقية تستشعر ، دونما شك ، الهوى المجافي للأخلاق ، الذي لا يخطر على بال الآخرين ، والغيرة ، والمقت ، والقسوة ، ولا بد أن عواطف أخرى وضيعة قد مرت لماماً بفؤادها . ولكن من الصعب ، إلى حد بعيد ، أن نصور على نحو مقنع ، امرأة لا تفصح عن أدنى مؤشر على هذه المشاعر ، عاشت حياتها بكاملها منكفئة على ذاتها » .

وقد كتب تانيزاكي هذا النص مباشرة قبل « التاريخ السري لأمير موساشي » وإبداع شخصية الأميرة كيكو الغارقة في العاطفة والعذاب .

وفيما تمثل رواية « التاريخ السري » ملحقاً للأعمال التاريخية الكونفوشية ، فإنها تسخر منها ، على نحو كاريكاتوري كذلك ؛ فجوانب الحياة ذاتها التي حذفتها الأعمال التاريخية الكونفوشية ، في ورع وتقى ، يقدمها تانيزاكي بمبالغة صارخة . والراوية لا يضع موضع التساؤل قط مصداقية الأحداث المنافية للعقل والطبيعة ، التي

يكشف النقاب عنها ، وذلك على الرغم من أنه يتساءل عن دوافع كاتب سيرة حياة أمير موساشي ، ويدلي بتكهنات على نحو حذر ، فيما يتعلق بسيكولوجية الأمير ، وهو في الوقت نفسه يبدو محاكياً ، على نحو ساخر ، لكتاباته السادية ـ المازوكية ، على نحو ما يصنع في رواية « مذكرات عجوز مجنون » . وقدرة تانيزاكي هذه على أن يسخر من نفسه على رؤوس الأشهاد هي أشد خصائصه جاذبية .

أنطوني م . تشيمبرز

التاريخ السري لأمير موساشي



تصدير

يقال إن النبيل المحارب يوسوجي كينشين كان يهوى وُصفاءه الشبان . ويقال كذلك إن فوكوشيما ماسانوري قد حذا حذو « آي » ، أمبراطور السهان ، الذي آثر تمزيق ردن ثوبه على إيقاظ الفتى الغافي إلى جواره ؛ وقد ازدادت نزعات ماسانوري وضوحاً مع كر الأعوام ، وأفضت إلى سقوطه ، في نهاية المطاف . وليس كينشين وماسانوري بالمثالين المعزولين ؛ إذ يمكن أن تروى حكايات غريبة عديدة حول الحياة الجنسية لرجال عرفهم التاريخ باعتبارهم من الأبطال الكماة . وقد نشأت عاداتهم ، ومن بينها اللواط والسادية ، من طريقة حياة المحارب ، وليس من شأننا أن نمعن في استهجانها بمزيد من الضراوة .

ويحكي هذا المجلد قصة أمير موساشي ، الذي ولد في عهد الحروب الأهلية ، في القرن السادس عشر الميلادي ، وطار صيته لسعة وشدة بأسه ؛ فقد كان أكثر قادة عصره جرأة وأشدّهم قسوة . ولكن المقربين منه قالوا إنه كانت تساوره رغبات جنسية مازوكية . ترى هل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً ؟ لم أدر ما إذا كان يتعين تصديق هذه الشائعات الغريبة ، لكنها إن صحت لكان الرجل جديراً بالإشفاق عليه . ولا تأتي كتب التاريخ الرسمية على ذكر ميوله الجنسية ، كما أن معظم الناس لا يدري عنها شيئاً ، لكني فحصت مؤخراً بعض الوثائق التاريخية ، التي تقتنيها عائلة « كيريو » ، فعرفت

أي رجل كان حقاً ، وأحسست بأعظم قدر من التعاطف معه ، حينما ألفيت أنه كان يكن حباً ملك عليه نفسه لامرأة حسناء جليلة القدر . وكما قال وانج وانج ـ مينج فإنه من الأيسر إخضاع قاطع طريق في الجبال على قمع الشر في فؤادك . غير أن أمير موساشي كان يحظى بشجاعة نمر كاسر ، وقلائل على امتداد التاريخ حظوا بقدرته على أن يجلب السلام للبلاد . وإذ تأثرت بقصته على نحو عميق ، عقدت العزم على سرد تفاصيل حياته الجنسية ، في صورة رواية تاريخية . وقد أطلقت عليها « التاريخ السري لأمير موساشي » . وإني لأناشدكم ألا تنحّوها جانباً ، متعجلين باعتبارها محض اختلاق .

أوائل خريف ١٩٣٥ — المؤلف

الكتاب الأول



عن « حلم ليلة» للراهبة
مايوكاكو ومذكرات حواسي

ليس هناك سبيل لمعرفة هـوية الـراهبة مـايوكـاكو ، على وجـه الـدقة ، أو الـوقت الذي كتبت فيـه مؤلفهـا « حلم ليلة » ولكنـه من الجلي ، من خلال النص ، أنها كانت تعمل في خدمة أمير موساشي في وقت من الأوقات . وبعد سقوط عشيرة الأمير ، حلقت شعرها من جذوره ، وتقاعدت عن العمل ، معتكفة «في كوخ مسقوف بالقش ، في أغوار الجبال ، حيث لا شيء أمامها إلا التعبد آناء الليل وأطراف النهار » . هكذا يبدو أنها قد سجلت ذكرياتها عن المـاضي ، خلال الفراغ الذي أتاحته لها الشيخوخة . ولكن ما الذي يدفـع راهبة « لا شيء أمامها إلاّ التعبد » لتأليف مثل هذه المذكرات ؟ إنها تطرح هذا التفسير :

« بعد التأمل طويلاً في سلوك أمير موساشي ، أدركت أن البشر ليسوا بالأخيار ، أو الأشرار ، ولا هم أبـطال ، أو جبناء ؛ فـالرجـل العظيم يغدو وضيعاً ، في بعض الأحيان ، والشجاع يصبح متخاذلاً أحياناً ، ومن قهر بالأمس ألف خصم ، في ساحة القتـال ، تسوطـه اليوم في الدار هولات الجحيم ، وأشد النساء لطفاً ولباقة قد يتبـدى مزاجها وحشيـاً ، وأكثر المحـاربين بسالـة قد ينقلب إلى بهيمـة من الأنعام . وربما كان الأمير موساشي بوذا رحيماً ، أو بـوديسا تقا * ،

(*) أوضحنا بالتفصيل مفهوم البوديسا تقا ، في الهوامش الضافية لكتاب « مقدمة الهسي =

أفصح في شخصه عن قانون السبب والنتيجة الذي لا يرحم ودورة التناسخ ، وتجلى في هذه الدنيا لبعض الوقت ؛ ليرحل بنا بعيداً عن الوهم » .

وهي تخلص إلى أنه :

« بتحمّل أمير موساشي في بدنه الغالي لعذابات الجحيم ، أوضح لنا ، نحن معشر البشر الفانين ، الطريق إلى الاستنارة ، وأن وجوده بركة علينا جميعاً ، وإني لأكتب هذه الصورة للأنشطة التي قام بها ، عرفاناً بطيبته ، وتقدمة من أجل سكينة روحه ، فليس لي من مقصد آخر . ولئن وجد من يسخرون من سلوك الأمير ، فلسوف تحيق بهم اللعنة ، أما أولو الألباب فلن يساورهم إلا الشعور بعرفان الجميل » .

غير أن ما تذهب إليه يبدو متكلفاً بعض الشيء ، وهناك ما يدعو إلى التساؤل عما إذا كانت تؤمن حقاً بالتفسير الذي طرحته . كانت تحيا وحيدة ، بالطبع ، وهكذا فربما كانت احتياجاتها العضوية لا تلقى إشباعاً ، وربما كتبت ما سطرته في محاولة للتخفيف من وطء حدتها ، لكن هذا ليس إلا محض تكهّن .

أما مؤلف كتاب « اعترافات دوامي » فإنه يشير إلى دوافعه ، لكن من الجلي أنه ما كان بوسعه أن يمحو من ذاكرته أياً من « سلوك أميري المفزع » ، أو تجاربه الخاصة الغريبة ، في خوف سيده . ولا شك أن هذه المغامرات تبدّت له أشد غرابة ، كلما أمعن التفكير فيها ، وفي نهاية المطاف كان إغراء كتابة كل شيء عصيّاً على المقاومة .

= بوتشي » ، من تأليف أنطوني يو ، وترجمتنا ، وإصدار دار الشؤون الثقافية العامة ، في بغداد . أما هنا فيكفي القول ، ببساطة ، بأن البوديسا تقاهو السالك. وطريق الخلاص ، الذي يضحي بمراحل في تقدمه ، من أجل خلاص الآخرين . (ه . م .)

وبينما وصلت الراهبة مايوكاكو إلى الخلاصة البهيجة ، وغير المحتملة ،القائلة بأن الأمير موساشي هو نجل لبوديساتفا، فإن دوامي يبدو أنه قد تملك ناصية فهم واضح لعقلية سيده ، وأنه اكتسب ثقته ، من جراء ذلك . وبين الحين والآخر ، كان الأمير يطلع دوامي على مكنون ما يحس به من عذاب ، ويقص عليه تاريخ رغباته الجنسية ، انطلاقاً من الحاجة إلى التعاطف والتفهم . ويبدو أن دوامي من جانبه كان متملقاً ، ذليلاً ، على نحو ما ، وربما كان بطبيعته يشارك الأمير في نزعاته ، فإن لم يكن كذلك ، فقد ادعى هذه المشاركة ، ليحظى برضا الأمير . وفي غمار ذلك ، أضحى تابعاً حقيقياً للأمير ، يؤمن بما يذهب إليه من آراء وأفكار . وعلى أي حال ، فمن المؤكد أن دوامي كان رفيقاً لا غنى عنه في « جنة الأمير السرية » . وبغير دوامي ربما لم يكن من الممكن لألعاب الأمير الجنسية أن تشق مجراها المرتكن ، ولهذا السبب عينه فإنه كان في بعض الأحيان يصبّ اللعنات على وجود دوامي ، وغالباً ما كان ينهال عليه ضرباً ، وأوشك في أكثر من مرة على أن يطيح بسيفه عنقه ، لكن دوامي كان محظوظاً ، على نحو فريد ، فقلائل من الرجال والنساء، الذين شاركوا في « ألعاب » الأمير ، قدر لهم أن يفلتوا بجلودهم ، ولما كان دوامي هو الأكثر تعرضاً لسوء المنقلب ، فلا شك أنه واجه الموت أكثر من أي شخص آخر ، ولا ريب في أنه أفلت من فكي النمر ؛ لأنه كان موضع احتياج بقدر ما كان مجلب كراهية ، ولكن النجاة كانت ، في أحد جوانبها ، المكافأة التي تلقاها عن اليقظة وسعة الحيلة .

عن درع تيروكاتسو، أمير موساشي ، ولوحة الأميرة شوسيتسوين

تظهر لوحة ، موجودة الآن لدى أحفاد أبناء عشيرة كيريو ،

تيروكاتسو، وهو جالس متربعاً على جلد نمر، وقد أسبغ عليه درعاً ذات صدارة أوروبية ، وصفائح كتف سوداء مزركشة وشُرّابات زخرفية ، وانتعل حذاء من الفرو ، وتعلو خوذته قرون هائلة ممتدة كأنها قرون جاموس الماء ، ويمسك بعصا قيادة مزخرفة بالشُرّابات في يده اليمنى ، أما يده اليسرى فتمتد بعيداً ، على فخذه ، حتى إن الإبهام يبلغ غمد سيفه . ولو أنه لم يكن يسبغ عليه درعه ، لكان بمقدور المرء أن يكوّن فكرة ما عن تركيبه الجسماني . أما وقد أسبغتْ عليه درعه ، فما كان يبين منه إلا وجهه . ومن الأمور المألوفة رؤية لوحات شخصية لأبطال ينتمون إلى فترة الحرب الأهلية وقد أسبغوا عليهم دروعهم ، ولوحة تيروكاتسو تشبه ، إلى حد بعيد ، لوحات هوندا هايهاتشيرو ، وساكاكيبارا ياسوماسا ، التي غالباً ما تظهر في كتب التاريخ ، وهي جميعها توحي بكبرياء وقسوة شديدتين ، ولكن هناك في الوقت نفسه تصلباً وطابعاً رسمياً ، لا يبعثان على الراحة ، في الطريقة التي يشدون بها قاماتهم .

تشير المصادر الرسمية إلى أن تيروكاتسو قد توفي في الثانية والأربعين من العمر ، وهو يبدو على نحو ما أصغر سناً في هذه اللوحة ، ربما في عمر يتراوح بين الخامسة والثلاثين والأربعين ، ومن المؤكد أنه بخديه الوافرين وبفكّه القوي المربّع لا يبدو رجلاً قبيح الهيئة ، على الرغم من أن عينيه وأنفه وفمه تبدو كبيرة ، على نحو لا يتناسب مع باقي ملامحه . وإجمالاً ، فهو وجه يليق بقائد جدير بمكانته ، يتّسم بالذكاء والثقة بالنفس . وعيناه المتّسعتان ، المحدّقتان فيما أمامهما ، تبرقان في غضب من تحت طرف خوذته الأعلى . وبين العينين وأعلى الأنف نتوء لحمي خفيف ، يقطعه أفقياً تجعّد عميق ، بحيث أن هذا النتوء يبدو على وجه التقريب كما لو

كان أنفاً ثـانياً صغيـراً للغايـة . وتمتدّ تجعـدات عميقة على جـانبي أنفه ، وصولاً حتى طرفي فمه ، الأمـر الذي يضفي عليـه لمحة من النزق والتهيّج الغـاضب ، كأنمـا مضغ لتـوّه شيئاً مـرّاً ، وله شـارب مسترسل ، في غير اتّساق ، ولحية صغيرة ، مشذبة على النمط الذي كان شائعاً في ذلك العهد .

وبقدر ما بدا هذا الوجه مؤثراً في النفس ، فإن من شأنه أن يكون أقل هيبة ، إذا تجرد من الخوذة ؛ فإضافة إلى القرون الرائعة ، كانت هناك شارة زخرفية على مقدمة الخوذة ، تصوّر تـايشاكـوتين ، راعي الشـرق البوذي ، وهـو يسحق هولـة تحت قدمـه . وتبـدو الصـدارة الأوروبية كذلك مؤثّرة في النفس ، على نحو غريب . ولست بالحجّة المتضلّع في هذا الموضوع ، ولكن يبدو أن الصـدارة غريبـة الطراز حملهـا إلى اليابـان الهولنـديون ، أو البرتغـاليون ، في ثلاثينيـات أو أربعينيات القرن السادس عشر ، أي في حوالي الوقت الذي دخلت فيه البندقية ذات الفتيل إلى اليابان ، من خلال تانيجا شيما . وربما من الممكن وصف هذه الصدارة بأنها درع تشبه صدر الحمامة ، فهي شـأن ثمـرة الخـوخ ، تتضخـم عنـد خط التقــاطـع في المنتصف ، وتستدير الحافة السفلية عالياً وبعيداً نحـو الظهـر ، وكان المقـاتلون النبلاء ، في ذلك العهد ، يثمنون مثل هذه الصدارة ، حتى إنه جرى تصنيع تقليد لها ، بعد وقت قصير من جلبها إلى اليابان ؛ ولذا فربما لم يكن أمراً لافتاً للأنظار أن تيروكاتسو كان يستخدم صدارة من هذا النوع . ومع ذلك ، ما السر في اختياره لهذه الدرع كي يظهر بها في لوحته ؟ إننا لا نعرف ما إذا كان قد أصدر بنفسه تعليمات بتصوير هذه اللوحة ، أم أن أحداً قد صورها من الذاكرة بعد وفاته ، ولكن في كلتا الحالتين فإن اللوحة فيما أعتقد تقف دليلاً على أن الصدارة الأوروبية كانت درع تيروكاتسو الأثير .

لو أن المرء نظر إلى اللوحة ، دون أن يكون قد قدر له أن يعرف أمير موساشي ، إلا على نحو ما تقدمه كتب التاريخ ، فإنها ستبدو شيئاً لا يتجاوز لوحة لأحد الأبطال ، تشبه لوحتي هوندا تاداكاتسو وساكا كيبارا ياسوماسا . ولكن من يعرف نقاط ضعف الأمير ، ومن قدر له أن يلم بأسرار حياته الجنسية سيرصد (أم أن ذلك يرجع إلى قوة الإيحاء فحسب ؟) قلقاً معيناً ، يقبع خلف الواجهة المهيبة - عذاب روح الأمير المتستر بالدرع الرهيبة - وستبدو الصورة وقد هيمنت عليها كآبة ، تستعصى على الإفصاح ، فالعين المحدقة ، على سبيل المثال ، والشفاه المطبقة في إحكام ، والأنف الغاضب ، ووضع الكتفين سيوحي للناظر بالرهبة ذاتها ، التي تبعثها في نفسه صورة نمر متعطش للدماء . ورغم ذلك ، فإن تيروكاتسو ، إذا نظر إليه في إطار ذهني مختلف ، سيبدو كأنه رجل يعاني من الروماتزم ، ويتجلد ليتمكن من تحمّل الألم المبرح في مفاصله . وبالمثل فإن الصدارة الأوروبية والخوذة بقرونها المسترسلة وشارة تايشاكوتين الزخرفية هي موضع تشكك . وربما كان قد اختار هذه الزخارف المؤثرة في النفس عامداً ؛ لكي يخفي ضعفه الداخلي . ولكن التأثير الذي أحدثته هذه العناصر المكملة هو ما جعل الشخص المتصدي للمصور ، على نحو متصلب ، يبدو أكثر ارتباكاً واصطناعاً . وكان من شأن درع صدر الحمامة أن تبدو مريحة على نحو أكبر ، لو أن تيروكاتسو كان جاثماً فوق مقعد مرتفع ، على الطريقة الغربية ، ولكن بسبب جلوسه متقاطع الساقين ؛ فإن الصدارة تنتأ إلى الأمام ، على نحو بعيد عن الرشاقة . وليس هناك ما يوحي باللحم العضلي ، الذي صلبته المعارك ، والذي لا بد أنه كان مستتراً خلف الصدارة ، فالدرع لا تتشبث بجسده ، على نحو ما ينبغي له ، وإنما تبدو مستقلة عنه ، على نحو ما، وهي أبعد ما تكون عن حماية شخصه وبث

الرعب في قلوب الآخرين ؛ إذ تبدو كمجموعة من القيود تلحق به عذاباً لا نهاية له . ولدى النظر إلى ملامح اللورد ، في هذا الضوء ، فإنها تفصح عن ملمح عذاب مؤثر ، وينحدر شخص المحارب الشجاع ، الذي أسبغت عليه درعه ، إلى أسير يئنّ متجهماً في الأغلال . ولو جرى النظر إلى النقش الزخرفي المرسوم على مقدمة الخوذة بعين متشككة ، فإن شخص تايشاكوتين الواقف في انتصار فوق الهولة إنما يرمز إلى شجاعة الأمير ، بينما الهولة البشعة المكشرة عن أنيابها ذاتها ، التي تُدهس بلا رحمة ، تومىء إلى الجانب المخجل من شخصية الأمير . وبالطبع ، فإن الفنان ما كان يساوره هذا المقصد ، وهو عاكف على عمله ، وربما لم يكن يعلم شيئاً عن حياة الأمير السرية ، وكان يصور لوحة شخصية موضوعية .

وعلى لفيفة مماثلة مودعة بالصندوق ذاته رسمت صورة لزوجة الأمير . ولا تحمل أي من اللوحتين توقيعاً ، ولكن من المستطاع دونما مخاطرة ، افتراض أنهما من إبداع فنان واحد ، في الوقت ذاته على وجه التقريب . كانت الأميرة هي ابنة تشيريفو ، أمير شينانو ، وهو « ديميو » * يحظى بالمرتبة ذاتها التي تحظى بها عشيرة كيريو . وقد عرفت بخدماتها الجليلة لزوجها تيروكاتسو ، وبعد موته جزّت شعرها ، وحملت الاسم الديني شو سيتسوين ، وقد دعمتها عائلة أبيها ، لكن سنواتها الأخيرة كانت منعمة بالوحدة ، على نحو خاص ، حيث لم تكن قد أنجبت أطفالاً ، ولم تعمّر بعد زوجها إلا ثلاث سنوات .

(*) لقب ياباني ، ينتمي إلى أصل صيني ، يتألف من مقطعين من الناحية الحرفية : « داي » بمعنى عظيم و « ميو » بمعنى ، سم ، وكان من ألقاب النبلاء في القصور الوسطى اليابانية ، ويشير إلى أن حامله يتولى رتبة عسكرية رفيعة وربما حكم مقاطعة ، وقد ألغي هذا اللقب حالياً (هـ . م) .

تتميز لوحات الشخصيات التاريخية في اليابان بأن العديد من لوحات الرجال هي روائع واقعية ، ترتسم فيها الملامح الفردية بدقة . ولكن لوحات النساء لا تعدو أن تكون أداء متفقاً عليه لما كان العصر يعتبره النموذج المثالي للجمال . وللأميرة في هذه اللوحة ملامح جميلة ومتسقة ، وتبدو فيها فاتنة بالتأكيد ، لكن اللوحة لا تختلف كثيراً عن لوحات زوجات الديميو الأخريات المنتميات إلى العصر ذاته . ويمكن بالمثل أن تكون لوحة تصور زوجة هوسوكاوا تاداوكي أو بيسشو تاجاهارو ، والانطباع الذي تتركه لدى الناظر إليها هو نفسه الذي تتركه عنده لوحات الأخريات .

هناك على وجه الدقة انفصال جليدي في الوجوه الشاحبة لهاته الحسناوات المتكررات ، وهذه الأميرة ليست استثناء من تلك القاعدة ، ووجه مستدير وممتلىء ، ولكن لدى تفحصه عن كثب ، فإن مسحوق التجميل الأبيض السميك يبدو متشققاً هنا وهناك ، ويلوح خداها متجردين من الحياة . والشيء عينه ينطبق على أنفها الأشم بديع التكوين . وفي المقام الأول هناك عيناها ، وهما فتحتان ضيقتان طويلتان ، يتألق بؤبؤاهما كبلورتين مستدقتي الرأس تحت جفونها المنسدلة ، وتوحيان بالبرود وبالذكاء المتّقد . ولا شك في أن زوجات الديميو في ذلك العهد كنّ يمضين أيامهن المترعة بالملل ، معتكفات في الأجنحة الداخلية من قصورهن ، التي لا يتسلل إليها الضوء إلا نادراً ، وربما لهذا اكتسبن جميعهن هذا التعبير المميز . وقد كان الضجر والوحدة واليأس الذي عانت منه زوجة تيروكاتسو ضارياً ، على نحو خاص ، ويحس المرء بأن هذه اللوحة قد أفصحت يقيناً عن مشاعرها الحقيقية .

الكتاب الثاني



وفيه ينشأ هوشيمارو رهينة في قلعة « أوجيكا» وحديث حول الرؤوس - المرأة

تتضمن « اعترافات دوامي » الصورة التالية :

« كان اسم مولاي ، في عهد طفولته ، هو « هوشيمارو » . وكان الابن البكر والوارث لتيروكوني ، أمير موساشي ، ولكن حينما كان في السادسة من عمره تم إرساله إلى القلعة الجاثمة على جبل أوجيكا ، مقر الأمير تسوكوما إيكانساي ، في المقاطعة المجاورة ، الذي تصالح معه أبوه . وقد حثني مولاي بقوله : « فصلت عن أبي منذ نعومة أظافري . وعلى امتداد عقد من الزمان درست الأدب وفنون القتال في قلعة جبل أوجيكا ، وإني لمدين بتنشئتي لإيكانساي » .

تأتي هذه الفقرة على ذكر « مصالحة » . ولكن زعيم عشيرة تسوكون كان ديميو عظيم الشأن ، يحكم عدة مقاطعات ، ومن ثم فمن المؤكد أن تيروكوني لم يكن شريكاً على قدم المساواة في « مصالحة » ، على الرغم من أنه ربما يكون قد أنقذ ماء وجهه ، فلم يضطر للتسليم الكامل . ومن المحتمل أنه أصبح تابعاً لإيكانساي ، وإلا لما عرض تقديم ابنه ووريثه كرهينة .

وفيما يلي جانب من الأحداث التي لم يطلها النسيان من سنوات هوشيمارو الأولى .

في خريف ١٩٤٩ ، حينما كان هوشيمارو في الثانية عشرة من

عمره ، حوصرت قلعة جبل أوجيكا ، لما يزيد على شهر ، من قبل قوات ياكو شيجي دانجو ماساتاكا الذي كان تابعاً لعائلة هاتاكياما ، التي كانت بدورها تضم المسؤولين بالوراثة في إطار حكم الشوجون لليابان . ولم يكن هوشيمارو قد بلغ مبلغ الفتية ، ولذا لم يسمح له بالاشتراك في القتال ، لكن تقارير المعارك اليومية ، التي كان يستمع إليها داخل القلعة ، جعلت قلبه الفتيّ يتوثب بين أضلعه . وقد أدرك أن صبياً في عمره ليس بمقدوره المضيّ للمشاركة في الحرب ، لكنه كان في نهاية المطاف سليل عائلة من الساموراي ، وقد أراد أن تتاح له على الأقل مشاهدة القتال ليراكم الخبرة لنفسه . وعلى الرغم من أنه كان أصغر من أن يخوض غمار حملته الأولى ، إلا أنه أقنع نفسه بأن الوقت ليس مبكراً على التسلّل إلى ميدان المعركة وتعلّم سلوك المحارب . ولكن قلعة جبل أوجيكا ـ معقل عشيرة تسوكوما على امتداد أجيال عديدة ـ كانت متاهة فرضت عليها حراسة مشددة . وكان من المستحيل أن يتسلل المرء خارجاً منها دون أن ترصده عين . وقد فرضت مراقبة وثيقة على الرهائن ، بعد بداية الحصار ، كما أن هوشيمارو كان يقوم على رعايته بصفة شخصية ساموراي ، قدم معه من قلعة أبيه. وقد ألفاه هوشيمارو ذا نفع ، من أوجه عديدة ، لكنه كان بمقدوره كذلك أن يكون مصدر ضيق . وكان هوشيمارو ، الذي اعتكف طوال النهار في الغرفة المخصّصة له ، يصغي إلى أصوات النيران النائية وصيحات القتال ، فيما وصيفه أوكي شوزين يصف له تطوّر سير المعركة ، فيقول : « ذاك صوت العدو ، وهو يطرد بعيداً » ، أو « ذلك صوت النفير ، يأمر رجالنا بإعادة التجمع داخل البوابات » ، ويوضح أن القتال سيكون ضارياً ، فقد استولى العدوّ بالفعل على التحصينات المتقدمة التي تحيط بالقلعة الرئيسية ، وأحكم أكثر من عشرين ألف جندي الطوق حول

قاعدة جبل أوجيكا . وكان هناك أقل من خمسة آلاف مدافع عن القلعة ، التي استطاعت ، بفضل التحصينات القوية والموقع الاستراتيجي ، أن تصمد حتى الآن ، ولكن عنصر الوقت كان في صالح المهاجمين ، وقد انقضى حوالي الشهر ، وكان الأمل الوحيد هو أن التغيّرات السياسية في كيوتو قد تؤدّي إلى قيام العدوّ برفع الحصار ، الذي ضربه حول القلعة ، أما إذا لم يحدث هذا على جناح السرعة ، فإن القلعة كانت ستسقط في يد مهاجميها .

كان هو شيمارو ، من الناحية الاعتبارية ، يعدّ رهينة ، ولكنه عومل دون شكّ معاملة خاصة ، باعتباره ابناً لديميو ، وخصّصت له غرفة مريحة في الحصن . ولكن ، تدريجياً ، أخذت القلعة الفسيحة في الانكماش ، فقد استولى المهاجمون على التحصينات الخارجية ، ثم غزوا الحصن الثالث ، ودفعوا بشاغليه إلى الحصن الثاني . ومع احتشاد هذا الأخير بالناس ، تدفّق الناس على قلب القلعة ، فازدحمت بهم الغرف والأبراج كافة . وفي الوقت نفسه بدأ التخصيص المنظم للمهام في التراجع ، فلقد كان لكل رجل مكان محدد للنزال ، ولكن الآن غدا كل من ليست لديه مهمة محددة يبادر بالمساعدة ، حيثما مسّت الحاجة إليه ، بل إن آوكي شوزين لم يعد بمقدوره البقاء دائماً إلى جانب سيّده اليافع ، ليتابعا المعركة اليائسة عن بعد ، فحينما يتّسم الهجوم بالضراوة ، على نحو خاصّ ، كان يحتلّ موقعاً ، ويشارك في الدفاع . وينقل دوامي عن مولاه قوله :

« عندما أعود بالذاكرة إلى طفولتي ، أجد أنه حتى الأحداث التي كانت مصدر إذلال ، في ذلك العهد ، قد أصبحت ذكريات غالية . وقد أجبرت خلال حصار جبل أوجيكا على السكنى مع نساء وأطفال لا حيثية لهم ، ولم أستطع تعلّم شيء عن استراتيجية

المعركة ، وقد جرح ذلك مشاعري ، ولكني حينما أعود بذهني إلى هذه التجربة أجدها مثيرة للاهتمام » .

وخلاصة القول إن هو شيمارو ابتهج بتراخي إشراف آوكي شوزين عليه . ودبّت الحياة في غرفته ، التي كانت معزولة عما في المعركة من إثارة ، مع ازدحامها بنساء وأطفال لا عهد له بهم ، ولا شك أنهم كانوا رهائن بدورهم ، جرى تجميعهم في غرفة هوشيمارو ، لتنحيتهم عن طريق الجنود . ويبدو أن الأطفال يبتهجون بالمواقف التي تحفل بالفوضى : الحروب ، الزلازل ، الحرائق وما إلى ذلك ، حيث يتجمّع عدد كبير من الناس معاً ، لائذين من الخطر ، ومحدثين قدراً من الهياج والحركة ، تماماً على نحو ما يقومون به وهم يستمتعون برحلة يضربون خلالها مخيماتهم . ولربّما جرحت مشاعر هو شيمارو ؛ إذ ألفى نفسه مفرداً مع « نساء وأطفال لا حيثية لهم » ، ولكنه ، باعتباره فتى رفيع المنبت لم يعرف عن الدنيا إلا القليل ، لا بد أنه شعر بفضوله يستثار ، وقد أثارت اهتمامه على نحو خاص مجموعة من العجائز .

لم يكن هناك رجال في سن النضج بين الرهائن ، وإنما صبية فحسب ، أما النساء فكنّ من كلّ الأعمار ، بينهنّ جدّات في الخمسين أو الستين ، وزوجات في أواسط العمر ، وفتيات في ميعة الصبا . وقد كنّ بالنسبة لهو شيمارو « بلا حيثية » ولكن بما أنهن كنّ هناك باعتبارهنّ رهينات ، فلا بد أنهنّ كنّ رفيعات المنبت ومن عائلات ساموراي ، وخير دليل على هذا هو أنهنّ لم يفقدن رباطة جأشهنّ قطّ ، حتى خلال أشد الهجمات ضراوة ، وإنما انتظرن في هدوء في ركن الغرفة ، معتصمات بالتحفّظ والحرص . وبَدَوْنَ جميعهنّ ، حتى أصغرهن عمراً ، وقد جرّبن الحرب قبلاً ، رحن

يتجاذبن أطراف الحديث فيما بينهن ، تماماً كما يفعلن وهن عاكفات على ارتشاف الشاي ، ويبدين تقديراتهن لمسار القتال ، بناء على دويّ صيحات القتال وقرع طبول الحرب . كن يقلن بلهجة العارف الخبير : « ربما سيقع هجوم الليلة » ، أو « بمقدورنا توقع هجوم مفاجىء في الصباح » . ولأن هو شيمارو لم يكن معه من يوضح له سير المعركة الآن ، بعد أن شارك آوكي شوزين في القتال ، فقد شرع في إرهاف سمعه لتلقف أطراف من محادثات النسوة ، وكان يودّ لو أدرج ضمن جمعهنّ ، لكنه كان خجولاً ، حيث كن جميعهن أكبر منه سناً ؛ ولذا كان يستمع إليهن كأنما بمحض الصدفة من بعيد ، أو يتلكأ في القسم الخاص بهن من الغرفة ، متذرّعاً بحجة أو بأخرى . وذات مساء ، عندما عادت النسوة الأكثر فتوّة من رعاية الجرحى (كان هناك اشتباك ضار في ذلك اليوم) شرعن يتحدّثن جميعاً عن أحداث اليوم ، فانتقل هو شيمارو بهدوء نحوهنّ .

حيّته عجوز في المجموعة قائلة : « هو شيمارو ، هو شيمارو ، هلمّ ، شاركنا مجلسنا ! » . حدجته بنظرة تبعث على الثقة ، وابتسمت في كياسة ، وقالت ، ملتفتة إلى رفيقاتها : « إنه صبيّ يثير الإعجاب ، يتظاهر بعدم الإصغاء ، عندما نتحدّث عن المعركة ، لكنه يرهف السمع . لا شك أنه سيكبر ويغدو قائداً عظيماً » . كانت العجوز ذات مرتبة رفيعة نسبياً ، وبدا أنها تحظى بتوقير الأخريات جميعهنّ . كانت تقتعد حشية سميكة ، وكوعها مستند إلى وسادة ، وقد تحلّقت حولها قرابة عشرين امرأة .

ـ هو شيمارو ، أتريد سماع ما كان من أمر القتال ؟

في هذه المرة كانت المتحدثة امرأة مختلفة . أومأ هو شيمارو موافقاً . أحسّ بعيون المجموعة بأسرها تلتفت إليه ، فيما هو

يتحدث ، واستشعر ذعراً مفارقاً للعقل ، شيئاً يحاكي الرعب الذي قد يحسّ به المرء إذا ما أحدقت به قبيلة عجيبة . كان مجتمع ذلك العهد يتمسّك بالتفرقة الحادّة بين الجنسين . أما ما يفوق ذلك فهو أن الصبيّ كان قد فُصِل عن أبويه منذ نعومة أظافره ، ليربّي بين الساموراي غلاظ القلب ؛ وهكذا فلم يقدر له أن يعرف شيئاً عن الحياة في الأجنحة الداخلية ، المعطّرة ، الفاتنة . وكان تجمّع النسوة أمامه يحاكي بستان أزهار ، يراه المرء لأول مرة ، متوهّجاً بالألوان وضائعاً بأريج غريب . كان يتطلّع إليهنّ من قبل عن بعد ، أما الآن ، وفيما هو يدنو منهنّ ، ويحتويه المناخ الذي يعشن في رحابه ، فربّما لم يصدمه شعور بالجمال أو الرغبة الحسّية ، وإنما لطمه مقت لما هو غير مألوف . وقف صامتاً لبعض الوقت .

ـ اقبل ، واجلس هنا ، رجاء !

أومأ موافقاً ، واقتعد الحصير ، محدثاً وقعاً مكتوماً ، لإخفاء شعوره بالحرج .

قالت إحدى النساء ، مخمّنة ما يدور في ذهنه :

ـ لسوف يكون بمقدورك المضيّ إلى القتال خلال عامين أو ثلاثة أعوام .

ـ نعم ، حقاً ، إنه طويل ، ووثيق التركيب ، ويمكنك بنظرة واحدة أن ترى أنه فتى واعد .

كانت النساء على معرفة بهويّة هو شيمارو ، وسبب وجوده في القلعة . ولا شك في أنهن تعاطفن معه ؛ حيث انهن بدورهن كن رهينات . وربما كان لبعضهن أبناء أو إخوة صغار في مثل عمره .

قالت إحداهن :

ـ لكم أودّ أن أراه يخوض غمار حملته الأولى !
ـ من حظّ أمير موساشي أن يكون له مثل هذا الوريث .

لم يكن أيّ من هذا مما يثير اهتمام هو شيمارو ، وإنما تمنّى لو عجلن بالحديث عن القتال . سألته العجوز ، التي تحدّثت أولاً ، بمزيد من التعاطف :

ـ إذن فلم يحدث أن شهدت تحركات العدوّ قط ؟

لم يكن السؤال مما يعكس طويّة سيّئة ، ولكنه أثار ضيق هو شيمارو ، فاحمرّ وجهه ، فيما هو يهزّ رأسه نافياً :

ـ لقد أردت ذلك ، لكنه لم يسمح لي ، ويقول إن الأطفال لا يمكنهم الذهاب إلى الحصن الثاني .

جعلت نغمة صوت العجوز تبتسم ، قالت :
ـ من الذي قال لك ذلك ؟

ـ الساموراي الذي يرعى شؤوني ، إنه يحدّثني على الدوام بأنني لا يمكنني فعل هذا ولا إتيان ذاك .

ثم طرح هو شيمارو سؤالاً :
ـ شاهدتنّ الهجوم عن قريب ، أليس كذلك ؟
ـ بلى ، فحينما يكون القتال ضارياً ، كما كان عليه الحال اليوم ، فإننا نقدّم ما بوسعنا من مساعدة ، وفي بعض الأحيان نمضي إلى الأبراج ، بل ونبلغ البوابة .

ـ إذن فبمقدوركنّ مشاهدتهم ، وهم يقتلون الأعداء ، وينتزعون رؤوسهم ؟

ـ آه ، نعم ، وفي بعض الأحيان نقترب كثيراً حتى ليصيبنا رشاش من دم .

تطلع هو شيمارو إلى محيا العجوز ، في حسد ، وراح يحدّث نفسه بأن حظ الكبار عظيم ، فحتى النساء بمقدورهنّ مشاهدة كل ذلك . لم يستطع كبح جماح نفسه ، فقال :

ـ ألا تأخذنني معكنّ في الغد ؟

قالت العجوز ، وهي لا تزال تبتسم ، في إعزاز :

ـ آه ، يا للأسف ! ليس بمقدورنا القيام بذلك حقاً ، ولئن فعلنا ذلك لانهال علينا آوكي شوزين لوماً وتقريعاً .

ـ لن يكتشف شوزين الأمر ، ولن أعوق حركتكنّ ، فبمقدوري القيام بما تستطعن إنجازه .

ـ ولكنّ نبيلاً شاباً مثلك لا يقوم بمساعدة النساء في عملهنّ ، لسوف يسخر الناس منك .

اضطر هو شيمارو إلى الإقرار بما قالته المرأة . ولكن لو أنه كان بمقدوره الذهاب بالفعل إلى ميدان المعركة ، إذن لاستطاع ، على الأقل ، أن يرى جثّة محارب شهير ، أو حتى رأسه . والحقيقة أنه لم يحدث أن شاهد قط جثّة مُثِّل بها ، أو رأساً احتز لتوه ، يتقاطر الدم منه . إنه يتذكر بالفعل أنه مر برأس بشريّ معوض، في مكان ما ، لكنه لم يـر أي شيء يستحضر مجد ميدان القتال قط . ومن الطبيعي أن يكون الأمر ، بالطبع ، على هذا النحو ، فهو إذ نشأ في دار ساموراي،كان موضع إشراف صارم للغاية . ورغماً عن ذلك ، فقد أخجله أنه هو ، الابن البالغ اثني عشر عاماً لقائد حربيّ ، على هذه الشاكلة من انعدام الخبرة . وفي مثل هذا الوقت ! إن أكواماً من الجنود القتلى ترتفع كل يوم غير بعيد عن غرفته ، وحتى النسوة كنّ قريبات من القتال حتى ينهال الدم عليهن . وهو وحده الذي يفتقر إلى الخبرة . لا شيء يمكن أن يكون أكثر مدعاة للشعور بالمهانة .

أراد أن يختبر شجاعته ، لا لأنه ظنّ أن مشهد القتال سيبعث الخوف في نفسه ، وإنما لأنه رغب في تدريب نفسه الآن ، بحيث لا يؤخذ على غرّة في حملته الأولى .

كان ذلك هو ما ناشد به شيمارو العجوز، بعد يومين أو ثلاثة أيام .

قلبت الأمر في ذهنها للحظة ، ثم قالت :

ـ ليكن ، إذن . ليس بمقدوري اصطحابك إلى ميدان القتال ، ولكن إذا كنت ترغب في مشاهدة بعض الرؤوس ، فإني أستطيع تدبّر الأمر ، من أجلك . وينبغي عليك ألا تحدّث أحداً قط ، حول هذا الموضوع . هل فهمت ؟ لئن وعدتني بذلك لأرينّك الليلة ما تريد مشاهدته .

أوضحت له ، هامسة ، أنه في كل ليلة ، على وجه التقريب ، يتم اختيار خمس أو ست نساء للقيام على أمر رؤوس الأعداء ، التي احتزّت في ميدان القتال . كنّ يدققن الرؤوس في ضوء قائمة خاصّة ، يصنّفنها ، ويمحين لطخ الدم عنها . كان لرؤوس الجنود العاديين شأن آخر ، أما رؤوس المحاربين البارزين فكانت تنظف بحرص ، وتقدم للقائد كي يتفقّدها . كانت النسوة يقمن بتمشيط شعر الرؤوس ، ويستكملن صبغ الأسنان ، بل وفي بعض الأحيان يضعن بعض مواد التجميل الخفيفة عليها ؛ لجعلها مقبولة المنظر ، لدى تقديمها للقائد . خلاصة القول إنهن كن يبذلن أقصى ما في وسعهن لإعادة رسم وإبراز الملامح ولون بشرة رؤوس الأحياء . وكان « تجميل الرؤوس » على نحو ما دعي هذا النشاط عملاً من الأعمال التي تقوم بها النساء ، وبالنظر إلى وجود نقص في عدد النساء بالقلعة ، فقد صدر الأمر لبعض الرهينات بالمعاونة في هذا الشأن . ولأنهن جميعاً كانت تربطهنّ أواصر الصداقة ؛ فإن

العجوز كان بوسعها اصطحاب هو شيمارو سرّاً لرؤية الرؤوس .

ـ أتفهم ؟ لو اكتشف أحد الأمر ، فإننا سنقع في شرّ أعمالنا . عليك أن تتبعني ، دون أن تنبس ببنت شفة ، وأن ترقب المشهد في هدوء ، وعليك ألّا تحاول المساعدة ، في معالجة أمر الرؤوس ، أو التحدّث بأكثر مما يقتضيه المقام .

قالتها العجوز ، وهي تمحص عيني هو شيمارو ، فألفتهما تتوهّجان بالفضول ، فأضافت :

ـ ليكن ، إذن ، سأوافيك الليلة ، عليك بالتظاهر بأنك غارق في النوم ، وانتظرني !

كان الأطفال والنسوة ، الذين غزوا غرفة هوشيمارو ، يرقدون في صفوف ، دونما اعتبار للسنّ أو للمرتبة الاجتماعية . وكان هو شيمارو وآوكي شوزين هما وحدهما اللذان يرقدان بمعزل عن الآخرين ، خلف ستار في صدر الغرفة . ومن حسن الطالع أن الغرفة لم يكن بها إلا مصباح واحد مضاء ، في خفوت ، وقد ساد الظلام ما وراء الستار . وحتى إذا استيقظ شوزين في جوف الليل ، فإنه ربما لا يلاحظ أن فراش هو شيمارو شاغر ، وإذ أنهكته مشاغل النهار ، فإنه كان يغرق في الحال في نوم عميق ، يتخلّله الشخير العالي . ولم يكن هو وحده الذي يغطّ في نومه على هذا النحو ، فباستثناء الجنود القائمين على الحراسة في نوبات متوالية ، كان الجميع يغطّون في النوم كالموتى ، فكلما استعرّ الضجيج والحراك نهاراً ، ساد هدوء أشدّ رهبة ليلًا . وفي الظلام الملتفّ بالسكون ، راح هو شيمارو ينتظر ، لاهث الأنفاس ، تحت أغطية فراشه . وسرعان ما سمع وقع أقدام العجوز ، ثم خشخشة تصدر عن الستار .

قال الصبيّ ، وهو يزحف حول قاعدة فراش شوزين ، وينزلق متجاوزاً الستار :

ـ أيّ طريق نسلك ؟

ـ هذا الطريق .

قالتها العجوز ، وهي تومىء بذقنها ناحية الباب . وكان بمقدور هو شيمارو أن يسمع الحفيف المنتظم ، الصادر عن أثوابها الحريرية ، كأنه تواتر الأمواج في بحر ساجٍ .

كانت ليلة باردة ، في منتصف الشهر العاشر ، والعجوز ترتدي رداء ضافياً ، منشّى ، فوق كيمونو أبيض اللون ، وقد أحنت كتفيها الهزيلتين ، ورفعت أطراف أثوابها بيديها كلتيهما ؛ حتى لا تمسّ من يغطّون في نومهم ، ولكي تحدّ من حفيفها . لم تكن تحمل مصباحاً ، لكنهما حينما خرجا من الغرفة إلى الدهليز ، استطاعا أن يلمحا نيران المراقبة تتوهّج هنا وهناك في الحديقة ، وانعكس الضوء عن ألواح الأرضية ، واتّقد محمراً على محيّا المرأة ، فيما هي تلتفت لتومىء لهو شيمارو بعينها ، بدا نفسها أبيض ، فيما هي تتحدّث ، لم تعد توحي بمظهر السيدة طيّبة القلب ، رفيعة القدر ، التي اعتاد على رؤيتها في ضوء النهار ، فقد خلعت عليها الظلال الغائرة في لحمها المهزول المظهر الخشن لقناع شيطاني ، لاحت مهملة المظهر وأشدّ إيغالاً في العمر ، مما تبدو عليه في النهار . وكان قد لاحظ من قبل أن جانباً من شعرها قد كساه الشيب ، أما الآن ، وفيما النار تتوهّج في البعيد ، فإن الجدائل الفضّية المنسابة على صدغها قد التقطت الضوء ، وشعّت متّقدة ، كأنها الأسلاك ، فتذكّر هو شيمارو ، فجأة ، تحذيرات آوكي شوزين المتكررة : « على المرء ذي المنبت الطيّب ألا يخرج مع من لا يعرفه . عليك دائماً

بإبلاغي قبل خروجك ! » . إذن ، فقد كان الأمر مؤامرة ، وهو بسبيله إلى الوقوع في فخّ ! ولكنه ، في الحال ، أحس بالخجل من هذه الأفكار المتّسمة بالجبن ، فقد كان الضوء الليلي هو الذي يضفي هذا الطابع غير المألوف على وجه المرأة ، ولا شيء غير ذلك . ومع ذلك ، فإن تخيّل الخطر يظل مؤشراً على الجبن . كانت لحظة التشكّك تلك ضربة موجهة لكبريائه .

ـ انتعل هذين ، رجاء !

عندما وصلا إلى نهاية الدهليز ، فتحت العجوز الباب ، دونما أدنى صوت ، ودلفت إلى الحديقة ، والتقطت خفين من القشّ ، من طيات الكيمونو الذي ترتديه ، ووضعتهما أمام هو شيمارو . لم يكن هو شيمارو قد لاحظ القمر من قبل ، بسبب أضواء المراقبة ، ولكنه فور الخروج إلى الحديقة رآه بدراً في تمام جلائه ، والتقطت الجدران المطليّة باللون الأبيض من حولها كلّها سنا البدر ، وعكسته متألقاً على الأرض . مضت العجوز مسرعة ، عبر النور والظلام المتداخلين ، بحذاء الجدران البيضاء المتعرّجة ، وبلغت مبنى صغيراً ، مؤلّفاً من طابقين ، وفتحت الباب ، وأومأت لهو شيمارو ، قائلة :

ـ هذا هو المكان المقصود .

تذكّر هو شيمارو هذا المبنى ، فقد كانت الأسلحة والدروع تودع به ، وكان هناك طابق علويّ متهالك ، لا يتجاوز العلّية في مساحته . عندما ولج المبنى ، وراء المرأة ، رأى المدخل وقد تمّ تغييره خلال الحصار ، فقد نقلت الأسلحة وصناديق الدروع كلّها لاستخدامها في المعركة ، وتركت الغرفة خاوية ، على وجه التقريب ، ونصب موقد مؤقت في أحد الأركان ، وكان بمقدور هو شيمارو تبيّن هذا القدر ،

في الضوء المنبعث من الموقد وسنا البدر الذي تخلّل المبنى ، كما لاحظ كذلك رائحة غريبة نفّاذة ، كانت راجعة في أحد جوانبها إلى رائحة العفن ، التي تميّز المخازن ، لكنها كانت رائحة مركّبة ، مزيجاً من أشياء عديدة ، كريهة للغاية ، وكان الجوّ دافئاً ، ورطباً ، على نحو غريب ، ربما بسبب البخار المنبعث من الغلّاية الموضوعة فوق الموقد .

ـ هو ذا الدرج ، تخيّر لخطاك موضعها بدقة !

قالتها العجوز ، وهي تسبقه إلى الطابق العلوي ، فحذا حذوها ، وجلس في ضوء المصباح المتوهّج ، عند أعلى الدرج .

ثبت عينيه على أشدّ الأشياء إثارة للفزع في الغرفة ، وقد عقد العزم على ألّا يدع شيئاً يبعث الخوف في نفسه . تطلّع أولاً إلى الرأس الموضوع أمام المرأة الأقرب إليه ، ثم انتقل إلى الرؤوس الموضوعة في صف ، واحداً إثر الآخر ، وسرّه أن بمقدوره أن يحدق في هدوء في أي منها . وفي حقيقة الأمر إن الرؤوس كانت بالغة النظافة ، حتى تبدو مفارقة للواقع وغير حقيقية ، ولم تستحضر شيئاً من هالة المجد أو بسالة المعركة ، التي كان هو شيمارو يتوقعها . وكلما طال تحديقه فيها بدت له أكثر اتساماً بالطابع الاصطناعي .

أومأت النسوة ، اللاتي حذرتهن العجوز مسبقاً فيما يبدو ، بالتحية بمزيد من التهذيب إلى هو شيمارو لدى دخوله الغرفة ، وواصلن عملهن في هدوء . ومن بين النسوة الخمس الموجودات ، كانت هناك ثلاث جلسن وأمام كل منهن رأس ، فيما راحت الأخريان تقدمان يد المساعدة . صبّت المرأة الأولى ماء ساخناً في حوض ، وبالاستعانة بإحدى المساعدتين غسلت الرأس ، وعندما

فرغت من ذلك ، وضعت الرأس فوق « لوح للرأس » ، ومررته إلى جارتها ، أما المرأة الثانية فهي تقوم بتمشيط شعر الرأس . على حين تضع الثالثة لافتة تصنيفيّة عليها . وفي نهاية المطاف يوضع الرأس في صفّ واحد مع الرؤوس الأخرى التي فرغن منها ، وذلك فوق لوح خشبي ثقيل وعريض خلفهن ، وحتى لا تنزلق الرؤوس فإنها تثبت بإحكام في مسامير ضخمة ، تبرز من سطح اللوح الخشبي الثقيل .

كان مصباحان وضعا بين النسوة للاستهداء بهما في عملهن ، ينيران الغرفة بضوء ساطع ، والسقف من الانخفاض بحيث إنه كان حرياً بهوشيمارو أن يرتطم بأحد أعمدته الخشبية ، لو أنه نهض واقفاً ، وكان بمقدوره أن يرى كل شيء في الغرفة بوضوح . لم تترك الرؤوس ذاتها تأثيراً قوياً في نفسه ، ولكن المفارقة بين الرؤوس والنسوة الثلاث أيقظت استثارة غريبة في أعماقه . فبالمقارنة بامتقاع الرؤوس المجردة من الحياة كانت أيدي النسوة وأصابعهن تبدو ، على نحو غريب ، متدفّقة بالحيوية وبيضاء ومبهجة للحواسّ . كنّ يمسكن بالرؤوس من الشعر الذي يكسو قممها ، ولما كانت الرؤوس ثقيلة الوزن فقد عمدن إلى لفّ هذا الشعر حول أرسغتهن لإحكام القبض عليها ، وقد بدا هذا وكأنه يزيد من الجمال الغريب الذي تحظى به الأيدي ، كما كانت وجوه النسوة على الدرجة ذاتها من الجمال ، ولما كنّ قد اعتدن على مهامّهنّ هذه ، فقد رحن يعملن بشكل آلي ، ودونما انفعال ، وقد تجرّدت وجوههن من التأثر واتسمت بالبرود حتى لتبدو كالحجر ، ولكن تجرّدهن من الانفعال كان على نحو ما مختلفاً عن تجرّد الرؤوس منه ، فالأول مخيف والثاني متسام ، وكانت النساء على الدوام يعاملن الرؤوس بتوقير ولا

يلجأن إلى الخشونة قط . وبدت حركاتهن مقصودة ومعتدلة ورشيقة .

سلب المشهد لبّ هو شيمارو ، وأفعمه بالنشوة ، ولم يقدّر له إلا فيما بعد أن يتفهّم الانفعال الذي أمسك بناصيته ؛ أما في حينه ، فقد نسي نفسه كلّية . كان ألمّ به اهتياج لم يجرّبه من قبل قط ، استثارة تستعصى على البوح . وقد خطر له أن النسوة الثلاث كنّ حاضرات في ذلك المساء قبل يومين أو ثلاثة حينما حادثته العجوز للمرة الأولى . وتذكّر وجوههنّ ، لكنه لم يستشعر شيئاً في ذلك الوقت . فلم يتعيّن أن يكنّ فاتنات الآن وهنّ جالسات وجهاً لوجه أمام الرؤوس في هذه العلية ؟ راح يراقب كل واحدة منهنّ ، فيما هي عاكفة على أداء مهمتها . كانت المرأة الجالسة إلى أقصى اليمين تربط خيطاً بلافتة خشبية ، وتثبت اللافتة إلى قمة الرأس الموضوع أمامها ، وراحت تحدث ثقباً في إحدى الأذنين بالاستعانة بمخرز ، وتمرر الخيط من خلالها . استشعر لذّة حادّة ، فيما هو يراقبها ، وهي تحدث الثقب . ولكن النشوة الكبرى استشعرها وهو يراقب الفتاة الجالسة في المنتصف ، فيما هي تغسل الشعر . كانت أصغر النسوة الثلاث ، وربما لا يتجاوز عمرها خمس عشرة أو ست عشرة سنة . وكان وجهها البدريّ ، على الرغم من تجرّده من أي تعبير ، وجهاً يعكس فتنة طبيعية . وبين الفينة والأخرى ، وفيما هي تحدّق في الرأس ، كانت ابتسامة تتلاعب ، دونما وعي منها ، على شفتيها . وقد كانت هذه الابتسامة هي التي جذبت هو شيمارو إليها . في مثل هذه اللحظات ، كانت قسوة لاختل فيها تَسِمْ وجهها ، وبدت يداها أكثر طراوة وأشدّ رشاقة من أيدي النسوة الأخريات ، فيما هي تمشط الشعر . وبين الحين والآخر ، كانت تلتقط مبخرة من مائدة إلى

جانبها ، وتقوم بتبخير الشعر ، ثم حينما تعقد الشعر ، وتهذب قمة الرأس ، تقوم بالترتيب على الجبين بخفة بمؤخرة مشطها ، فيما بدا أنه إيماءة مجاملة . وبالنسبة لهو شيمارو بدت الفتاة جميلة على نحو لا سبيل إلى مقاومته .

ـ أنمضي الآن ؟

تضرّج وجه هو شيمارو بالحمرة ، على نحو عنيف ، حينما قالتها المرأة . كانت قد عادت فحاذت العجوز النبيلة الشفوق مرة أخرى ، ولكن فيما كانت تتطلع إليه مبتسمة في حبور ، خالجه شعور بأنها تغلغلت في أعماق نفسه ، فأدركت سره .

لم يكن قد انقضى على وجودهما في الغرفة ثلث الساعة أو نصفها ، وبصورة عادية كان حرياً بهو شيمارو أن يسألها البقاء وقتاً أطول قليلاً ، فمن الطبيعي بالنسبة لصبيّ أن يرغب في مشاهدة شيء غير مألوف ، ولن يكون مما يبعث على الدهشة أن يطلب المزيد من الوقت ، لكن هو شيمارو كان قد فقد براءة الصبا ، وإذ استحثّته العجوز ، فقد هبط الدرج متردّداً ، لكن النشوة تطاولت ، وأبقته في حالة تحليق دائمة .

عند مدخل المضاجع ، تحدثّت المرأة ثانية :

ـ هل رأيت ما فيه الكفاية ؟ لقد أعددت هذا بنفسي ، وعليك ألا تحدّث أحداً به !

دنت بوجهها من إذنه ، وهي تضيف :

ـ أتفهم ؟ عد إذن إلى فراشك في هدوء . نوماً هنيئاً !

أحس هوشيمارو بالارتياح ، عندما ألفى آوكي شوزين غافياً في سلام ، وراء الستار . ولكن حينما آوى إلى فراشه ، لم يستطع

السيطرة على انفعاله ، وراح يحدق شارداً في الظلام . على امتداد الليل طغت الأشباح أمامه ، وراحت تختفي مثل زبد البحر ـ مشاهد الرؤوس وقد تناثرت في الضوء المتوهّج حيناً والمتراجع حيناً آخر ، التعبيرات المرتسمة على وجوهها ، لون جلدها ، أعناقها الملطّخة بالدم ، الأصابع الباعثة على البهجة التي تعمل بحدّة وسط الشخوص الصامتة ، وفي المقام الأول وجه الفتاة البيضاوي الجميل . كان قد شاهد منظراً فذاً ، وتخلّلت رائحة فظيعة كل شيء ، وكانت النسوة صامتات ، شأن الرؤوس المجتثّة . كان قد تسلّل من فراشه ، واقتيد عبر الحديقة الشاحبة المكسوة بضوء القمر إلى ذلك المكان الرهيب ، وانتهى الأمر كله على وجه السرعة . وبالنسبة لصبيّ في الثانية عشرة من عمره ، لا بدّ أنه قد لاح أن عالماً خبيئاً منفصلاً قد تكشّف أمامه للحظة ، ثم تبدّد فجأة .

في صباح اليوم التالي ، جدّدت قوات العدو هجومها ، فتواصل انبعاث رائحة البارود ، ودويّ أصوات البنادق ، ونداءات النفير ، وقرع الطبول ، وصيحات القتال ، على امتداد اليوم . ومن جديد عكفت الرهينات في إخلاص على القيام بدورهنّ بحمل المؤن والذخائر إلى الجنود ورعاية الجرحى . وراح هو شيمارو ، لكي يؤكد لنفسه أن مشهد العلّيّة لم يكن حلماً ، يبحث بينهنّ عن نسوة البارحة ، ولكنه لم يعثر على أثر للفتاة التي اجتذبته على نحو خاص أو للنسوة الأربع الأخريات ، على الرغم من أنهن كن موجودات دوماً في السابق . وجلست العجوز وحدها كالمعتاد في أحد أركان الغرفة متكئة على وسادتها ، وقد تعمّدت تجاهله ، فخمّن أن النسوة الخمس كنّ بعد انشغالهنّ طوال الليل بتنظيف الرؤوس ينلن قسطاً من الراحة نهاراً في مكان ما ، وربما كنّ الآن راقدات في العلّيّة ،

وحدّث نفسه بأن الأمر ربما كان كذلك ، وغلب على ظنه أن غيابهنّ اليوم يعني أنهنّ سيستأنفن عملهنّ الليلة .

انتظر مغيب الشمس بصبر نافد . لا شك أن العجوز سترفض ، إذا ما طلب منها اصطحابه إلى هناك مرة أخرى ، لكنه لم يعد بحاجة إلى إرشادها له ، بل إن وجودها سيكون مصدراً لتشتيت الانتباه حقاً . ولو أنه كان بمقدوره أن ينسلّ خارجاً من الباب ، دون أن تلحظه فحسب ، لاستطاع شقّ طريقه بنفسه . وحينما عقد عزمه على محاولة القيام بذلك ، ادّعى بدوره اللامبالاة ، وتجنّب ركنها من الغرفة .

راح يتساءل عما يدعوه إلى الشعور برغبة ملحّة في زيارة العلّية مرة أخرى ، فأدرك أن دافعه كان مختلفاً تمام الاختلاف عن البارحة . وعلى أيّ حال فقد كان متيقّناً من أن توقه هذا لا يليق بسليل ساموراي . حاول أن يحدّث نفسه بأنه سيقوم مجدّداً باختبار مدى شجاعته ، ولكنه أدرك على نحو غامض أنّ في ذهنه هدفاً آخر ، وقد أثقل ذلك ضميره ، وعانى من شعور بالخجل ، لم يستطع فهمه حقّ الفهم .

كان أكثر تخوّفاً من إيقاظ العجوز منه بالنسبة لأوكي شوزين . ومن حسن الطالع أن أياً منهما لم يلحظه ، وهو ينسلّ خارجاً إلى الدهليز ، ولم يكن هناك المزيد من التعقيدات . اجتاز الحديقة التي أنارها البدر في الساعة عينها التي عبرها فيها البارحة . اجتذبته قوة خفية فيما يشبه الغيبوبة عبر باب المخزن وإلى قاعدة الدرج ، ولكنه توقّف هنالك ، وراح يصغي لأية أصوات قد تتناهى إليه من الطابق العلويّ ، بل إنه راح يتساءل عما إذا لم يكن ما رآه البارحة وهماً ، لربما استخدمت العجوز السحر لجعله يرى شيئاً لا وجود له . ولكنه

فيما وقف عند قاعدة الدرج ، راح الماء يغلي مجدّداً فوق الموقد ، نعم، لقد ملأت تلك الرائحة الكريهة ، التي لا سبيل إلى نسيانها ، الهواء الدافىء الرطب . لم يصدر صوت من أعلى ، لكن الضوء كان يخفق عند أعلى الدرج ، من المؤكد أن هناك أحداً ، في العلّية ، لقد مرّ البارحة بالغلّاية ، دون أن يعرف الغرض منها ، أما الآن فقد أدرك أن الماء المغليّ بها معدّ لغسل الرؤوس .

أضافت معرفة أن كل شيء حقيقي المزيدَ إلى شعوره بالخجل . وفيما هو يرقى الدرج ، راح يجالد شيئاً حاول ، بمزيد من القوة مع كل خطوة ، أن يردّه إلى أسفل . وعندما بلغ قمة الدرج تكشّف أمامه مشهد البارحة تؤدّيه النسوة الخمس ذاتهنّ . لم يتوقّعنه الليلة . كفّت النسوة الثلاث عن عملهن ، ورمقنه في تشكّك ، ولكن حينما أومأت كبراهن إيماءة مهذّبة ، حذت الباقيات حذوها في رقّة ، دون أن ينحّين الرؤوس التي كنّ يمسكن بها . لم يخفق الشك عبر وجوههن إلا للحظة ، واستأنفن في التوّ عملهن الصامت . تضرّج وجه النبيل الصغير بالحمرة في عنف ، فيما النسوة يحيّينه ، ولكنه رفع وجهه في شموخ ، وأفلح في التمسّك بأهداب الكبرياء ، التي يتوقّعها المرء من سليل ديميو . لم يكن قد تعلّم فنّ إخفاء شعوره بالحرج وراء ابتسامة . وبحسبانه نجل نبيل مقاتل ، فإن عليه الاحتفاظ بكبريائه طوال الوقت ، وخاصّة أمام النساء . ولا بدّ أن المشهد كان طريفاً ، فقد وقف الصبي كأنه جندي شامخ في وقفته ، وفيما كان الخجل يعتريه في قرارة نفسه ، كان مظهره الخارجي متشامخاً . وأحسّ بالارتياح لدى عودة النسوة إلى عملهن ، دون أن يلقين عليه نظرة ثانية . ولا شك أن مجيئه بمفرده قد جعل التشكّك يداخلهنّ ، ولكنهن إذ يعلمن أنه سيكون من قبيل الوقاحة توجيه اللوم إليه ، وأن

القيام بذلك ليس مسؤوليتهن ، فقد عكفن باجتهاد على مهامهنّ . وفي انشغالهن وسلبيتهن ، كنا على الوضع ذاته الذي عملن في إطاره البارحة . وكذلك كان الحال بالنسبة لكل شيء ، فقد اضطفّت الرؤوس من طرف الغرفة إلى الطرف الآخر ، وراح مصباحان يتوهّجان تحت السقف المنخفض ، والهواء يفوح برائحة البخور والدم . وبالنسبة لهو شيمارو كانت الليلة استمراراً للبارحة ، وبدا عالم سنا النهار ، الذي تخلّل الليلتين ، كما لو كان حلماً نائياً . لم تغب إلا العجوز وحدها . ومن جديد لفّه ثمل مغوٍ ، نشوة حادّة مضت تعمل في فؤاده التمزيق .

وكما هو الحال في السابق ، راحت المرأة الجالسة إلى اليمين تستخدم مخرزاً في إحداث ثقب في رأس مقاتل وهب حياته للحرب . أما الفتاة الجالسة في الوسط ، والتي كان عليها أن تغسل الشعر ، فقد راحت تربّت بمشطها على جبين الرأس . كانت هي الفتاة التي خلبت لبّ هو شيمارو البارحة . في ملكوت الرؤوس الملطّخة بالدم ، مجمع الموت ذاك ، لا بد أن حسن الفتاة وشبابها قد برزا على نحو مفعم بالحيوية . وبالمقارنة بالرؤوس التي كساها لون الرماد ، ربما بدا خدّاها الورديان الأسيلان أشد تدفّقاً بالحياة . فضلاً عن ذلك ، فبما أن عملها كان تمشيط الشعر ، فإن أصابعها لا بدّ قد تغطّت بالزيت ، وبإزاء الشعر الأسود اللامع بدت ، دونما شك ، أشد بياضاً ، وأعظم حيوية مما هي عليه بالفعل . والليلة أيضاً رأى هو شيمارو تلك الابتسامة الغامضة ، وهي تتلاعب حول عينيها وفمها . ولدى تلقّيها لرأس غُسل لتوّه من المرأة الجالسة إلى اليسار ، كانت تقوم أولا بقطع الخيط الذي يضمّ الخصلة العلوية ، ثم تقوم بتصفيف الشعر بحرص ونعومة . وفي بعض الأحيان تضع

قليلاً من الزيت ، وتمسّ المساحة ذات الشعر الحليق بموسى ، أو تلتقط مبخرة من المنضدة المجاورة لها ، وتمسك بالشعر فوق الدخان . وعقب ذلك تمسك بخيط جديد في فمها ، فيما هي تلملم الشعر بيدها اليسرى وتعقد الخصلة العلويّة من جديد ، تماماً على نحو ما يمكن أن يقوم به مصفّف شعر محترف . عكفت على عملها منفصلة عنه ، ولكنها حينما تمعن التدقيق في رأس تم الانتهاء منه ، كما لو كانت تتأمل تصفيفة شعر ، تزحف دوماً تلك الابتسامة الملغزة عبر خديها .

ربما كانت تلك الابتسامة تعبيراً عن دماثة الفتاة ولطف معشرها ، فقد درجت على عادة الابتسام على نحو بهيج أمام الآخرين ، وراحت تبتسم دونما وعي بالطريقة ذاتها أمام الموتى . ومن الطبيعي بالنسبة لها أن تفقد حساسيتها أمام بشاعة الرؤوس التي تعمل بها، وأن تستشعر عاطفة حيالها ، وأن تستجيب لها على نحو ما تستجيب للأحياء ، فيما هي تضع مواد التجميل عليها . ولكن بالنسبة لشخص يلج إلى هذا المشهد فجأة ، لا بدّ أن الرؤوس التي تجمّدت عذابات الموت على ملامحها الشاحبة ، من ناحية ، والشفتين الحمراوين اليافعتين لهذه الفتاة الجميلة ، ابتسامتها مهما كانت عابرة ، من ناحية أخرى ، كانت شيئاً مثيراً . كان جمالها من النوع الساحر تنكّهه مرارة القسوة . هكذا ، فليس أمراً مدهشاً أن هو شيمارو ، الذي لم يتجاوز عمره الثانية عشرة ، قد افتتن بمثل هذا الجمال . غير أنه،إضافة إلى هذا الافتتان،استشعر انفعالاً حادّاً يتجاوز ما يستشعره الإنسان العاديّ . وقد جاء في « اعترافات دوامي » ، التي وصفت فيها حالة الصبيّ الذهنية بالتفصيل ، أن هو شيمارو قد حسد الرأس الموضوع أمام الفتاة الحسناء ، كان يحسّ بالغيرة ، ولا

يرجع الأمر إلى أنه حسد الرأس على قيام الفتاة بتمشيط شعرها ، وحلاقة مقدمته ، أو تحديقها فيه بتلك الابتسامة القاسية ، لقد أراد أن يلقى مصرعه ، وأن يتحول إلى رأس شاحب يعلوه تعبير مفعم بالعذاب ، تتلاعب به كفّا الفتاة . كان التحوّل إلى رأس مجتثّ شرطاً ضرورياً ، ولكن لئن أصبح رأساً على هذا النحو ، ووضع أمامها بكل فتنتها فما أشد سعادته عندئذ !

باغتته وحيّرته اللّذّة التي منحته إيّاها هذه الصورة الغريبة والمفارقة للمنطق . كان حتى ذلك الوقت سيّد فؤاده ، وبمقدوره أن يوجّهه حيثما شاء . ولكن في أعمق أغوار فؤاده كانت هناك بئر عميقة الغور ، ذات تكوين مختلف ، لا يطالها انضباطه الذاتيّ ، وقد كشف الغطاء فجأة عن هذه البئر ، وفيما وضع يديه على الحافة وتطلع إلى الظلمة ، روّعه العمق السحيق . كانت مشاعره تحاكي مشاعر إنسان كان يعتقد أنه في أوج الصحّة ، ولكنه يكتشف أنه يعاني من مرض خبيث . لم يدرك هو شيمارو مصدر مرضه ، ولكن من المحقّق أنه قد استشعر ، وإن يكن على نحو غامض ، أن ثمة شيئاً مَرَضياً في اللذة ، التي انبثقت من البئر السرّيّة القابعة في صدره .

ولا بدّ أنه أدرك ، بالطبع ، أنه سيفقد وعيه إذا لقي حتفه ، ومن هنا فإن تصوّره الخيالي ـ اللذة التي سيستشعرها لو أنه كان رأساً موضوعاً أمام الفتاة ـ كان شيئاً مجرداً من المنطق . لقد كان ذلك التصوّر الخيالي ذاته هو الذي منحه اللذة . لقد انغمس في تصور أنه قد أصبح رأساً ، دون أن يفقد وعيه ، وحاول أن يتخيل أن أحد الرؤوس الموضوعة أمام النسوة هو رأسه. وعندما ربتت الفتاة على رأس بفقار مشطها تخيل أنه هو نفسه يجري التربيت عليه ، فدفع هذا

بلذّته إلى القمّة ذاتها ، وطال الخدر فمه ، وارتجف جسده . ومن بين الرؤوس المختلفة ، راح يركز على أشدها قبحاً ، رأس اكتسى بتعبير حزين أو متوسل ، ويقول لنفسه : « هـا أنذا » ، ومنحه ذلك لذة أعظم من التوحد مع رأس محارب شاب رائع . وخلاصة القول إنه حسد الرؤوس الجديرة بالرثاء والمثيرة للغثيان أكثـر من الرؤوس الجميلة .

كان هو شيمارو صبياً جريئاً ، يتصرّف بلا توتّر ولا تكلّف . ولا بدّ أنه قد استشعر كراهية متفاقمة لنفسه مع ازدياد حدّة لـذّته البـاعثة على الخجل . ولا شك أنه قد اجتهد في كبح جماح استثارته . وقبل مضيّ وقت طويل ، استجمع كلّ ما لديه من قوة إرادة ، وانسحب من الغـرفة الغـامضة ، الحـافلة بالنـذير ، التي بـدت متأهّبـة لجرّه إلى الحضيض . كان الليل الخريفيّ الطويل لا يزال حالك السواد ، وهو يسرع عائداً إلى غرفته ، ويغطّ في نومه . ويتمّ على نحو مسهب سرد ما أعقب ذلك من عذاب هو شيمارو في « اعترافات دوامي » . على مدار ثلاث ليال أخرى تباعاً ، انطلق إلى العلّيّة ، وفي كل مرّة ينطلق فيها كان يخدع نفسه بحجّة أو أخرى : فمن الجبن أن يخـاف على هذا النحو ، ولسوف يختبر قوة إرادته . ولكن ، في حقيقـة الأمر ، كان إغواء المشهد يجتذبـه بقوة لا سبيـل إلى مقاومتهـا ، على وجه التقريب . وخلال تلك الأيـام الثلاثـة تعاوره بـالتبادل نسيـانُ النفس والنوم . وفي كل مرة ، لدى هبوطه الدرج،كان يكرّر لنفسه مـا عقد العزم عليه : « ينبغي ألا أجيء هنـا ثانيـة » ولكن عقب ذلك ، وفي جـوف الليل ، كـان يزحف منسـلاً من فراشـه ، كأنمـا هو محمـوم يتخبّط ، ويسرع في يأس نحو بوّابة فردوسه السرّيّ .

عندما وصل هو شيمارو إلى العلّيّة في الليلة الثالثة ، ألفى رأساً

غريباً أمام الفتاة . كان رأس ساموراي شابّ ، لا يتجاوز عمره الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين ، وكان الأنف ، ويا للغرابة ، مفقوداً . كان وجهاً جذاباً ، البشرة شاحبة على نحو رائع ، والأجزاء حديثة الحلاقة تلتمع ، والشعر الأسود اللامع رائعاً ، كالشعر الـذي ينسدل فاتناً على كتفي الفتاة وصـولاً إلى ظهرهـا . لا شكّ أن هـذا المحارب كان رجلاً شديد الوسامة . كان لعينيه وفمه تكوين تقليديّ ، وأفصحت الملامح الرجولية المتناسقة عن رقّة من نوع ما . ولـو أنه كان هناك أنف بديع ومستقيم في المنتصف ، لكان الوجه خير تجسيد للمحارب الشابّ ، تماماً كما لو كان صانع دمى محنّك قد أبدعه . ولكن لسبب ما كان الأنف مفقوداً ، كأنما اجتُثّ بنصل حادّ ، عظماً وجلداً ولحماً ، من الجبين وحتى الشفة العليا . وربما كان من شأن الأنف الأفطس ألّا يفتقد على هذا النحو المؤلم ، ولكن المرء حريّ بـه أن يتوقّـع أن يجد امتـداداً بديعـاً ينهض من منتصف هذا الـوجه الرائع . وبدلاً من ذلك ، كان هذا الملمح الحيويّ قد أزيل تماماً ، كأنما أزالته سكّين حادّة ، تاركة جرحاً دموياً مسطّحاً ، وكنتيجة لهذا كـان الوجـه أكثر قبحـاً وهزليـة من وجوه البشـر العـاديين المتّسمين بالقبح . مرّرت الفتاة مشطها بعناية في الشعـر الأسود الكثّ للرأس المجـرد من الأنف ، وأعادت ربط الخصلة العلوية ، ثم على نحو ما تعمـل دوماً حـدّقت في محور الـوجه ، حيث كـان ينبغي للأنف أن يكـون ، وابتسمت . وكالمعتـاد أثار التعبيـر المـرتسم على وجههـا النشوة في نفس الصبيّ . ولكن دفق الانفعال ، الـذي استشعره في تلك اللحظة ، كان أقوى بكثير من أيّ انفعال أحسّ به في السابق . ففي مواجهة الـرأس مجـدوع الأنـف ، توهّـج محيّا الفتـاة بكبريـاء وبهجـة الأحيـاء ، تجسيـدا لجمـال لا يشـوبـه عيب . والآن بـدت ابتسامتها ، لأنها على وجه الدقة ابتسامة صبيـانية وغيـر مصطنعـة ،

مترعة بأشد ألوان الخبث إغراقاً في النزعة الكلبيّة ، وأتاحت للصبيّ ما ينسج عليه تخيّلات لا تنتهي . راح يحدّث نفسه بأنه لن يسأم قط التحديق في وجهها الباسم . وكانت الخيالات التي ألهمه إياها هذا الوجه بلا حصر ، وقبل أن يدرك الأمر ، اجتذب الـوجه روحـه إلى أرض الأحلام المترعة بشراب الآلهـة ، حيث أصبح هـو نفسه هـذا الرأس مبتـور الأنف وعاش مع الفتاة في عالم خلا إلا منهما . وقـد أحب هـذا التصور الخيـالي ، إلى أبعد الحـدود ، حيث جعله أكثر سعادة من أي وقت مضى .

تحوّلت بهجته إلى نشوة ، ولكن ابتسامة الفتاة تلاشت تدريجياً منجابة عن خدّيها ، ولبعض الوقت وقف الصبي ذاهلاً ، وهو يتابـع بقايا حلمه . وعندما رأى الفتاة تشـرع في تمريـر الرأس إلى المـرأة الجالسة إلى يسارها ، بدّد الصمت القاتل بقوله :

ـ ما الذي حدث لذلك الرأس ؟ ذلك الرأس الذي تمسكين به . . .

وإذ أدرك أن صـوته يـرتجف ، توقّف عن الحـديث ، ثم تكلم بقوة :

ـ ماذا يجري ؟ ذلك الرأس مبتور الأنف .
ـ ليس لـه أنف يا سيدي !

قالتها الفتاة ، وقد وضعت يـديها المتـألقتين بالـزيت على لوح الـرؤوس أمامهـا ، واتخذت وضـع التوقيـر المألـوف لدى مخـاطبـة النبلاء . وفي غمار قيـامها بهـذا ، رشقت محيّا الصبي بلحـظها في لمحة عجلى ، لكنها خفضت رأسها توّاً ، في انحناءة رشيقة مفعمة بالإجلال .

قال الصبي :

ـ لا بد أنه كان من الحماقة بحيث تسبب في بتر أنفه .

انبعثت من حلقه ضحكة مبحوحة ، أقرب إلى سعال عجوز منها إلى ضحكة صبيّ ، وجلجلت على نحو غريب في العلّيّة .

ـ لم بتر أنفه ؟

ـ ولكن ، يا سيدي ، هذا رأس ـ امرأة * !

ـ رأس امرأة ؟

ـ لا يا سيدي !

ربما كانت الفتاة في سنّها ذاك تحسّ بعدم الارتياح ، لدى الحديث مع الرجال ، وربما استشعرت من سلوك الصبيّ ، أو من الطريقة التي غمغم طارحاً الأسئلة بها ، أن هناك شيئاً غير عاديّ يحيط به . على أية حال ، فقد ظلت منكسة عينيها ، فيما هي توضح ، على استحياء ، وبتردّد ، جليّة الأمر :

ـ إن رأساً ـ امرأة ليس هو رأس امرأة. لست أدري الكثير عن الأمر ، ولكن قيل لي إن المحارب لا يتمكن على الدوام في المعركة من أخذ رأس العدو ، الذي أرداه قتيلاً ، وحمله معه ، وفي مثل هذه الحالات ، فإنه لا يأخذ إلا الأنف فحسب ، حتى يكون بمقدوره أن يعود ، في وقت لاحق ، ليعثر على الرأس ذاته .

فيما راح هو شيمارو يلحّ بأسئلته ، زادت الفتاة رأسها انحناء ، وردّت بأكثر الإجابات إيجازاً. كان يريد أن يعرف، على سبيل المثال السبب في أن هذا الرأس يُدعى بـ«الرأس ـ المرأة». كان ذلك يرجع إلى

(*) المقصود رأس مبتور الأنف ، وقد دُعي بما هو وارد في المتن للإشارة إلى هذه الصفة وللإيماء إلى أن الأنف غير كافٍ للفصل بما إذا كان عائداً لرجل أو لامرأة (هـ . م) .

أنه إذا جلب الأنف وحده من ميدان المعركة فإن أحداً لن يستطيع القول ما إذا كان أنف رجل أو امرأة. وبشكل عام، لم تكن الرؤوس مجدوعة الأنوف من الأشياء المرغوب فيها . ولكن المقاتل الذي انتزع ثلاث أو أربع رؤوس في ميدان المعركة لا يمكنه أن يحملها جميعها ، وبدلاً من ذلك فإنه ينتزع الأنوف ، ويستخدمها في العثور على الرؤوس بعد المعركة . ولم يكن بتر الأنوف مسموحاً به إلا في حالة الضرورة القصوى ، فيما أوضحته الفتاة ، ولذا فإنه كقاعدة عامة نادراً ما يتمّ جلب رؤوس مبتورة الأنوف . وهذا الرأس هو الأوّل من نوعه الذي عالجته بطريقتها تلك في الحصار الحالي . وقد استطاع هوشيمارو انتزاع هذا القدر من المعلومات منها ، دون أن تضيف المزيد .

وإذا شئنا أن نقتطف من « اعترافات دوامي » لوجدنا ما يلي :

« أبلغني مولاي بقوله : ما من شيء في غرابة فؤاد الإنسان . فلو أني لم ألتق بتلك الفتاة ، ولم يقدر لي قط أن أشهد رأساً - امرأة ، لما أسلمت لمثل هذه الأنشطة الباعثة على الشعور بالعار . وعاري ينهض من ذكرى محيّا تلك الفتاة ، الغائرة عميقاً في فؤادي ، بحيث لا أملك لها نسياناً صباحاً أو مساء . لقد أردت جلب رأس - امرأة ، وأن أرى وجه الفتاة الباسم من جديد . وبعد أن عقدت العزم على هذا غلبني نفاد صبري ، وذات ليلة انسللت خارجاً من القلعة إلى معسكر العدو » .

وفيه ينتزع هوشيمارو أنفا في معسكر العدو، ويبرهن على شجاعته

وقفت عقبات عديدة بين هو شيمارو وتحقيق رغبته في رؤية رأس آخر مبتور الأنف ، وهو يوضع أمام الفتاة في العلّيّة . فبادىء ذي

بـدء ، لم يكن بمقدوره الاعتمـاد على شخص آخر في جلب رأس ـ امرأة ، ويتعيّن عليه أن يجلبـه بنفسه . ومع ذلك فقـد حظر عليـه الخروج إلى ميدان القتال . وحتى إذا كان بمقدوره أن يتسلل خارجاً من القلعة ، فثمة عقبة أخرى ، إذ يتعيّن عليه رصد محارب بارز من مقاتلي العدوّ ، وصرعه أرضاً ، ثم اجتثاث رأسه وبتر أنفه . لسوف يتعيّن عليه أن يخفي حقيقة أنه هو الذي احتز الرأس ، ثم أن يـرسله إلى الفتاة ، على أنّـه مرسلٌ من شخص آخر . ولكي يكتسب المرء الجـدارة في الميـدان كـان من الضـروري وجـود شـاهـد على مـا اجترحه ، لكن هدف هو شيمارو لم يكن تأكيد جدارته وتميّزه ، وإنما ببساطة هدفه أن يرى الفتاة وهي تبتسم من جديد أمام الرأس مبتـور الأنف ، وأيسـر الحلول هو أن يطلب جثة منـاسبة ، من بين الجثث المتناثرة في ساحة القتال ، فيحتزّ رأسها ، وإما أن « يخترع » شاهداً أو يرشو أحد الجنود المشاة ، ولكن ذلك أمـر كان ضميـر المحارب الكامن في أعماقه يأباه ، وما كان لسليل عائلة من الساموراي أن يقرّ مثل هذه الخطّة الخسيسة . لا بدّ له من أن يقتل أحد محاربي العدوّ بنفسـه ، وأن يحتزّ رأسـه ، ويبتر الأنف . راح يصـارع معضلته في تكتّم ، وكان عليه أن يبدع خطّة على وجه السرعة ؛ ذلك أن النسوة قد تستبدل بهنّ غيرهنّ .

فيمـا كان هـو شيمارو يغـذّي آمالـه وخططه الغـريبـة ، واصـل الجيشـان معركتهمـا اليائسـة ، عند التخم الحرجيّ للقلعة والحصن الثاني ، وإذ استثارها احتمال إحـراز النصر الـوشيك انـدفعت قوات ياكو شيجي عبر الأسوار الحجريّة ، وحطّمت البوّابات ومضت قدمـاً في كتلة سوداء إلى حرم القلعة ، فلم يوقفها إلا المدافعون الذين نال منهم الاضـطراب وردّوا إلى الحصن الثاني ، وقـد ألقى في قلوبهم

الرعب ، صيحات غاضبة ، دويّ مدافع ، صرخات ، والزئير الكئيب للجيوش ، وهي تكرّ وتفر . طوال اليوم ، راح عجيج الذبح والدمار يتردّد صداه ، كالرعد ، في أذني هو شيمارو . لم يكن هناك إلا أمل واهن في أن قلق أوجيكا ، التي تناهبتها الشكوك ، يمكن أن تصمد أكثر من هذا . وكان آوكي شوزين يضع ضماداً حول فخذه الذي أصابته حربة ، وأصيب بجرحين في ذراعه ، ولكنه تحامل على نفسه ، وواصل القتال ، ولم يعد يرعي شؤون هو شيمارو إلا قليلاً ، وفي كل مرّة ، فيما هو ينسحب ماضياً إلى المعركة كان يقول ، وقد ارتسمت نظرة مأساوية في عينيه : « أمستعدّ أنت يا سيدي ؟ حينما يحين الأوان لا تنس ما حدّثتك به دائماً ! » . كان يبدو أنه يعني أن على هو شيمارو أن يتأهّب للقاء الموت في أية لحظة بشجاعة ، عن طريق شقّ بطنه . وفي غضون ذلك ، كانت النسوة ، بمن فيهن العجوز ، التي أرشدته إلى المبنى ، منهمكات في العناية بالجرحى ونقل الموتى. وفي بعض الأحيان، كان عملهنّ يستمر طوال الليل.

ولكن إذا كان مصير القلعة وحياة هو شيمارو يتدلّيان من خيط رفيع ، فإنه لم يكترث لذلك ، فكلّ ما يعنيه الآن هو أنّ بمقدوره أن يصنع ما يحلو له ، بفضل الفوضى ضاربة الأطناب في القلعة . لن يكون من المتعذّر أن ينسلّ خارجاً ، دون أن يلحظه أحد . أما المشكلة الوحيدة فهي كيفيّة التسلّل إلى معسكر العدوّ . في الليلة الثانية بعد تجربته الغريبة في العلّية ، هبط في هدوء التلّ المترامي وراء حرم القلعة ، وسلك ممراً سرّياً ، يفضي إلى خارج جدرانها . حدّث نفسه بأن الحراسة ستكون متراخية في المعسكر الرئيسي للعدوّ ، فيما وراء الخندق الخارجي ؛ لأن معظم جنود العدوّ حشدوا داخل الحصنين الثاني والثالث . ومع وجود عدد محدود من

المحاربين ، من المؤكد أن الفرصة ستسنح له ، إذا لزم الطريق وبرز مباشرة وراء مركز قيادة العدوّ . دوى وجيب قلبه ، وراحت مفاصله ترتجف ، من فرط اللهفة ، شأن محارب يمضي للقتال للمرّة الأولى . تراقصت أمام عينيه ابتسامة الفتاة الجميلة وحشود من الرؤوس مبتورة الأنوف .

بلغت الساعة الثانية من بعد منتصف الليل ، عندما بدأ الصبيّ في الانحدار مع الممرّ . كان البدر ، الذي ألقى بوهجه الشاحب على زياراته الليلية للعلّية ، يرتاح الآن على قمّة جبل أوجيكا ، وينقش ظلّه بحدّة على الأرض . أرخى نقاباً شفيفاً على وجهه ، بحيث يبدو كما لو كان امرأة تهرب من القلعة ، وفيما هو يغذّ السير شاهد ظلّ القلعة المرتجف يطفو عبر الأرض ، كما لو كان قنديل ماء .

لا بدّ أن معسكر الأعداء كان مجهّزاً خير تجهيز ، بعد أن داوم على إحكام الحصار لمدّة شهرين ، وضمّ ما يزيد على عشرين ألف رجل . كانت قلعة جبل أوجيكا تنتصب عند حافة منطقة جبلية ، فوق نتوء جبلي ، يندفع في السهل ، كأنه شبه جزيرة ، وقد ضرب العدوّ معسكره ، على شكل حدوة حصان ، حول الطرف الأدنى لشبه الجزيرة تلك . وأقام الأعداء سوراً من الخيزران حول المعسكر ، وأشعلوا نيران المراقبة كل عشرة أو خمسة عشر متراً ، وبنوا أبراجاً للمراقبة هنا وهناك ، فيما يلي السور مباشرة . وأخيراً أقاموا عدداً من الملاجىء المؤقتة من ألواح الأخشاب ، لتكون بمثابة ثكنات ، يرقد فيها الجيش ابتداء من القائد العام فما دونه . وقد شقّ هو شيمارو طريقه عبر القمة المفتوحة لحدوة الحصان ، وسار بحذو أسفل ظهر معسكر العدو إلى أن بلغ قاع الحدوة . كان الآن وراء مقر قيادة

المعسكر الذي يواجه البوابة الأمامية للقلعة . اخترق سور الخيزران ، وانسل دون أن يلحظه أحد إلى الداخل . وما كان يمكن ، بالطبع ، في الظروف العادية أن يكون التسلل إلى معسكر الأعداء على مثل هذا القدر من اليسر . ولكن ، وكما توقّع ، كان معظم جنود العدوّ في مواقعهم داخل الحصنين الثاني والثالث ، تاركين المعسكر يعاني من النقص في الجنود ، ومراكز المراقبة لاهية عما عهد إليها به .

كان الصبيّ قد اعتاد الحياة داخل قلعة ، أما الليلة فقد كان يرى ، للمرة الأولى ، ترتيب معسكر ميدانيّ ، فأوغل في إرضاء فضوله ، بالانزلاق إلى داخل السور . وإذ أدرك أن تنكّره لن يعود عليه إلا بإثارة التشكّك ، داخل المعسكر ؛ فقد طوى النقاب الذي كان يضربه على وجهه ، ودسّه في صدر الكيمونو الذي يرتديه ، ثم بسرعة الطائر المحلّق وخفّته ، انطلق يعدو من مبنى إلى آخر ، متّشحاً بالظلال القاتمة ، التي ألقاها البدر الساطع . راح يتوقّف تحت طنف كل مبنى ، ويحدّق داخله . ومن حسن طالعه أن سنا البدر قد محا الضوء المنبعث من نيران الحراسة فبدت كأنها دخان أشهب شاحب . أحدث التوهّج العشوائيّ للبدر انعكاساً ذهبياً على الأرض ، وخلع إشعاعاً ضوئياً على كل شيء مهما صغر بحيث يحجبه عن النظر في هواء الخريف الليليّ الرائق . وجعل هذا التوهّج غير العادي نظر الحراس يغرق في ضرب من الغبش . زحف الصبيّ بعيداً عن مجموعة من الحراس الجاثمين ، فيما هم يتحلّقون النار ، ومضى تحت برج حراسة بصورة مباشرة ، ملتصقاً بالظلّ الذي ألقاه البرج ، كأنه وشاح على الأرض ، لكن أحداً لم يعترض سبيله . وبما أن مدافعي القلعة قد ردّوا على أعقابهم إلى حرمها

الداخلي ، فلا شك أن الحراس قد تراخوا في المراقبة وغطوا في نومهم . وحتى لو أن أحداً كان قد رآه فلا بد أنه خلط بينه وبين وصيفٍ شابٍ فتنه القمر .

كانت كل ثكنة محاطة بخيمة معسكر ، تحمل شعار شاغل الثكنة ، وانتصبت لافتة عند كل مدخل ، فيما احتشدت وراء الستائر الأعلام والرايات والحراب وما إلى ذلك . وفيما كان هو شيمارو يتفحّص هذه المقارّ ، أحدها بعد الآخر ، ألقته الصدفة أمام ستارة فاخرة ، على نحو خاص ، تحمل شعاراً مميّزاً ، فتجمّد في موضعه ، كان الشعار هو شعار ياكو شيجي دانجو ماساتاكا ، وعرف أن الستارة تلفّ بالتأكيد مقرّ قيادة القائد العام للعدوّ . رفع الستارة ، وزجّ بنفسه ملاصقاً للحائط الخشبي للثكنة ، وأرهف السمع للحظة ، لكنه لم يسمع شيئاً ، ثم دار حول المبنى ، فألفى اسطبلاً به خمسة أو ستة جياد مقيّدة بحبال إلى أوتاد ، بدا أنها تخصّ القائد العام . أحسّ هو شيمارو بأنه حتى وإن كان الجميع يرقدون بسلام فإن القدر أهداه فرصة لاجتراح أعمال بطوليّة لم تخطر له على بال قط . كان هدفه هو الحصول على رأس ـ امرأة وليس على رأس القائد العام ، ولكن لو أنه ترك هذه اللحظة التي ألقت بها العناية الإلّهية إليه تنقضي لما كان جديراً بتراث ساموراي . ولأن شعار القائد العام وراياته كانت ها هنا فمن الممكن ألا يكون قد انضمّ إلى القوات القائمة بالحصار ، وأنه يغطّ في نومه ، في غرفة داخلية بهذه الثكنة . ولو أن كل شيء مضى على ما يرام ، واستطاع أن يحتزّ رأس القائد العام لحقّق جدارة لم يسبق إليها سابق . كانت هذه الفكرة بمثابة حافز أطلق مشروعه المغامر من عقاله ، وبرباطة جأش رجل ناضج وشجاعته ، فتح الباب الخلفيّ في هدوء . وفي لحظة ، راح

يتحسس طريقه على امتداد أرضية الدهليز الخشبية باتجاه ما خمن أنه الغرف الداخلية . كان كل شيء يحيط به غارقاً في ظلام دامس ، ولكن بالاستعانة بسنا البدر ، الذي انسلّ عبر الثقوب ومن الفرج بين ألواح الخشب ، تلمس طريقه إلى نهاية الدهليز ، وأخيراً إلى باب . من خلال فتحة ضيقة ، انساب ضوء لهب من الغرفة التي يسدها الباب . فتح الصبيّ الباب لمسافة قدم تقريباً ، كان الداخل مقسماً إلى منطقتين ، وبدت المنطقة التي استطاع هوشيمارو أن يلمحها غرفة أمامية ، يرقد فيها وصيفان في مثل عمره ، على وجه التقريب ، وفصل ستار الغرفة الأمامية عن المساحة الخلفية ، وثمة مصباح مضيء خلف الستار . ومحاذراً إيقاظ الوصيفين تسلّل هوشيمارو على أطراف أصابعه عبر الغرفة الأمامية ، وجثم في ظل الستار ، وحدق في وجه المحارب الراقد وراءه . وعلى الرغم من أن الثكنة مقامة من كتل خشبية خشنة ، فإن الغرفة كانت فسيحة ، وقرب الوسادة فجوة علقت فيها لفيفة تضم صور « هاتشيمان » إلّه الحرب ، ووضعت أيقونة لـ « فودو مايو » إلّه النار الرهيب على مذبح نقّال جوار الفراش . ولم تترك الأدوات الكمالية والسيف الطويل والدرع ، حامل السيف وقطع الأثاث الثرية المطلية باللّك الذهبي والفضي شكاً في نفسه حول أن هذا المقر ليس ثكنة ساموراي عادي . وإضافة إلى ذلك ، كان شعر الرجل معقوصاً بأسلوب يقتصر على القادة وحدهم ، واستقر رأسه على وسادة في لون اللّك الأسود ، على جانب كبير من الفخامة ، وكان يرتدي منامة من الدمقس . لم تكن لهوشيمارو معرفة سابقة بعمر أو مظهر ماساتاكا . وقد بدا هذا الرجل في الخمسين من العمر ، عريض الجبين ، له محيّا بيضاوي وسيم ، وبشرة رقيقة ، وملامح دقيقة ، ولاح في سكونه أقرب إلى رجل بلاط منه إلى ساموراي . ومعظم

المحاربين ، ممن هم في مثل عمره ، تميّزهم بشرة خشنة ، لوّحتها الشمس ، وتحمل بعض آثار ساحات القتال ، أما بشرة هذا الوجه الغافي فرغم سمرتها الداكنة ، إلا أنها كانت تحاكي سطح خشب تم تلميعه إلى حدّ التألّق ، وله النسيج الرقيق الذي يميّز أبدع أنواع الرقّ . لم يكن هذا الجلد جلد محارب ، أمضى أيامه على ظهر جواد ، ينهمر عليه المطر ، وتعصف به الريح ، وإنما كان جلد رجل أرستقراطي ، آوى إلى هذا الملجأ كما لو كان طفلاً ، ولا يعرف شيئاً إلا مباهج الشعر والموسيقى في البلاط .

كان ياكو شيجي دانجو ماساتاكا رجلاً قوياً حقاً ، رغم أنه لم يكن إلا تابعاً لعشيرة هاتاكياما . ومنذ عهد أبيه فاق نفوذ أسرته نفوذ آل هاتاكياما ، وبين الحين والآخر وحتى باعتباره تابعاً هامشياً كان بمقدوره أن يوجّه إرادة نظام شوجون موروماتشي . وقد ارتفع إلى هذه المرتبة الخاصة بفضل قدرات أبيه في المقام الأول ، ولم تكن منجزاته العسكرية مجيدة على نحو خاص ، وإنما بالأحرى استخدم الوضع المؤاتي الذي حقّقه أبوه كمنطلق للحركة ، وبالاستعانة بفصاحته الخاصة ولماحيته وبعد نظره ، فاز بالحظوة لدى رؤسائه ، واستفاد من عصر كان التابعون فيه يسيطرون على سادتهم . هكذا ، فعلى الرغم من أنه كان من الناحية الإسمية ديميو ، إلا أنه كان من وجوه الطبقة النبيلة ، التي استعارت لنفسها أجواء أعضاء البلاط . وفي هاتيك الأيام ، كان الكثيرون من ساموراي كيوتو من أعضاء نظام الشوجون فيما دون ذلك يتأثرون تدريجياً بالبلاط ، وبدأوا في انتحال طرق سلوك الأرستقراطيين ذوي الأعصاب المرهفة ؛ ومن هنا فليس من المدهش أن ماساكاتا كان أكثر تملّكاً لناصية الشعر من الحرب ؛ وقد جاء إلى هذا الحصار بنفسه باعتباره القائد العام ، ولكنه لثقته في التقدم الذي أحرزته قواته ، أغفى الآن بارتياح في ثكنته . هكذا كان

الرجل الذي راح هوشيمارو يحدق في وجهه الغافي .

أحسّ الصبيّ بأن هذا الرجل ، الذي خلص إلى أنه ماساتاكا نفسه ، ينقصه شيء . حقاً إنه يتميز بالكبرياء والوقار اللائقين بديميو بارز ، لكنه بدا أكثر اعتدالاً مما ينبغي ، كان يفتقر إلى الجلال الذي يتوقعه المرء في كبير عشيرة حربية وقائد لجيش مؤلف من عشرين ألف رجل . لقد تصور الصبي القائد العام ، متمتعاً بالمناقب ذاتها التي رآها في أبيه تيروكولوني ، أمير موساشي ، وفي إيكانساي صاحب قلعة أوجيكا : بدن كالفولاذ ، وجه جريء يتوهّج بالرغبة في الغزو . أما هذا الشخص الناعم فمن الممكن التخلص منه بغاية السرعة ، حدّث الصبي نفسه بأن الرجل ليس تحدياً يعتدّ به . لكن ذلك لم يكن سبباً لاستيائه أو لشعوره بخيبة الأمل ، لربما كان حرياً به أن يحسّ بشيء من هذه المشاعر ، لو أنه كان بسبيله لإظهار شجاعته أو للقيام بإنجاز هائل ، ولكنه كان يتطلع إلى الوجه الغافي من وجهة نظر مختلفة . ففي محور الوجه استقرّ أنف جميل ، نحيل ، رقيق ، وأرستقراطي . وكان بمقدوره ، من موقفه ، أن يتطلّع مباشرة إلى خيشومي الأنف المقلوب إلى أعلى قليلاً ، وأن يحكم انطلاقاً من الفاصل المستطيل الناحل الذي يفصل الخيشومين أحدهما عن الآخر ، بأن اللحم ليس بالغليظ . وكما هو الحال في الأنوف النبيلة ، تقوّست أرنبة الأنف قليلاً ، وبدا تكوين أطراف العظم واضحاً هوناً ما تحت الجلد . ولو أنه قدّر له أن يبتر هذا الأنف ، فإن الابتهاج الذي يحدثه هذا الدمار لن يكون أقل من ذلك الذي أحدثه الرأس ـ المرأة في العلّية . هنالك كان رأس محارب شاب وسيم ، ولكنه ملتصق ببدن القائد العام للعدو ، الذي ربما لم يكن مناسباً تماماً ، وكان رأساً بديعاً ، رقيقاً ، حسن المنظر ،

الأمـر الذي يعـوض عن النقص المتمثّل في أن صـاحبـه في أواسط العمر . لا ، لا بد أن هذا الأنف أكثر إغواء من الأنف الآخر، وكافٍ لكي يفعـم الصبي ، الذي استمد مثل هذه اللذة من ذلك المشهد في العلية ، بالحنين .

فيما كان يحدق ، تأرجح الضوء المنبعث من المصبـاح الزيتي الصغير ، وارتجف في مجرى التيـار الهوائي . ومـع كل خفقـة راح الظل الذي يلقيه الأنف على الوجه الغافي يتأرجح بدوره . في بعض الأحيان ، وبحسب حركة اللهب ، تبتلع الظلمة الأنف بكامله ، فجأة يعـاود الأنف الظهـور ، ثم يختفي . بـدا الأمـر كمـا لـو أن الضـوء المتقلب يحاول غوايـة الصبي ، ومضى الأنف ذاته يستحثّـه إذ يبدو كمـا لو اجتثّ من مـوضعه ، لاح حـريصاً على أن يبتـر بأسـرع مـا يمكن . ومن جديد تراءت ابتسامة الفتاة الملغزة لهو شيمارو ، لسوف يحوّل هذا الوجه إلى رأس بلا أنف، يضعـه أمام ركبتيها، يعرضـه أمام عينيها المحدقتين ـ لا يمكن أن تكون هنالك لذة أعظم من تلك.

كان هو شيمارو ثقيلاً وقوياً بـالمقارنـة بمن هم في مثل سنّـه ، وواثقاً من قدرته على إعمال سيفه . لطم بغتة وسادة الرجل الغـافي بقـدمه ، وقبـل أن يفلح خصمه في مـدّ يده إلى سيفـه ، وثب على صـدره ، وهـو يحـاول الجلوس ، واقتعـد الصـدر ، واختـرق زوره بضـربة بـاطشة واحـدة . كـان السيف القصيـر الـذي أهـداه والـده تيروكوني إليه من صنع المبدع الشهير كانيمتسو ، ولكن براعة الصبي كانت أكثر تـأثيراً من السـلاح ، بعد أن دفـع بالسيف غـائراً بضـربة واحـدة ، ونهض على جناح السـرعة حتى أن الـدم المنبثق لم يكد يمسّـه . أدهشه حـذقه وبـراعته ، فلم تتـح للرجـل حتى الفـرصـة

للصراخ . ورأى هو شيمارو العينين المترعتين رعباً والفم المفتوح والمتأهّب للنطق ، ثم بعد لحظة وجه الموت متجمداً ، والملامح متقلصة تحت وطأة العذاب . وفي تلك اللحظة عينها ، لمح وميض نصل خلفه عن كثب ، فقد استلّ الصبيّان الراقدان في الغرفة الأمامية سيفيهما في وقت واحد ، واندفعا نحوه ، ولكنه إذ دعمت ثقته بنفسه الضربة التي وفّق في توجيهها تنحّى جانباً ، واندفع باتجاه الفجوة الموجودة في الجدار ، وهنالك وقف متأهّباً ، وخلفه اللفيفة التي تحمل صورة « هاتشيمان » وقد كفل له هذا الوضع التمتّع بميزة واضحة ، حيث إن نصف الفراغ الموجود أمام الفجوة شغلته الجثة والمذبح النقال والأثاث المجاور للسرير ، وهكذا اضطر العدوّان المقبلان إلى الاقتراب من جانب واحد . لاح جلياً أن الوصيفين قد اضطربا أشدّ الاضطراب لمرأى مولاهما الصريع ولإدراكهما أن القاتل يافع في مثل سنّهما . ولا بدّ أن هو شيمارو فيما هو يثب إلى الفجوة وينتظر مطارديه بصمود بطل مخضرم قد بدا لهما كما لو كان شيطاناً انشقّت عنه الأرض . ورغم القوة الأولى التي اندفعا بها ، فإنهما تحلّقا جثة مولاهما في حذر حريصين على عدم دهسها ومقتربين في بطء من الفجوة .

امتشقا سيفيهما وذباباتاهما على استقامة واحدة ، وتقدما باتجاه حافة الفجوة ، ولكن فيما أوشكا على ولوجها ، تراجع أقلّهما ثباتاً ، وراح هو شيمارو يرقب تحركات أدناهما إليه ، وفي اللحظة التي وضع الوصيف قدمه على عتبة الفجوة ، اندفع هو شيمارو إلى الأمام ، طاعناً بسيفه ، فتراجع الوصيف ، وقد أذهله هذا الهجوم الضاري ، من صبيّ كان يقف محصوراً في ركن لا يبعد عنه إلا بستة أقدام . وقد أتاحت الفجوة ، نظراً لانخفاضها ، ميزة لهو شيمارو ،

وإذ رأى أن ضربته الأولى قد أحدثت جرحاً غائراً في كتف الوصيف ، بادر إلى ضمّه إليه ، وطعنه في جنبه ، فتهالك الصبيّ وئيداً والدم يتدفّق من جرحيه ، كأنه سفينة تغوص إلى القاع ، وحتى قبل أن يرتطم الوصيف الأول بالأرض كان هو شيمارو يهاجم الآخر، وإذ قهر الرعب هذا الصبيّ التعس ، بدا مجردا من إرادة القتال ، ولكنه صمد نتيجة لإصرار على أن يلحق بمولاه في موته ، أشاح بعينيه عن وميض سيف هو شيمارو ، وصدّ النصل مرتين أو ثلاثاً ، لكن مقاومته كانت من النوع الحافل بالاستسلام ، ومن قبيل رفع العتب ، والمترع بالدمع ، فأطاح هو شيمارو بالسيف من يده ، وألقاه أرضاً ، وأغمد السيف في صدره .

وإذ تخلّص من الوصيفين ، انحنى إلى جوار جثّة القائد العام ، وقابضاً على خصلة الشعر العلوية بيده اليسرى ، شرع في احتزاز الرأس بيده اليمنى . وعند ذاك سمع وقع أقدام العديد من الرجال ، وهم يعدون باتجاهه عبر الدهليز . ورغم سرعة الصبيّ ، فلا بدّ أن الأمر استغرق منه خمس عشرة أو عشرين دقيقة لينجز كل هذا القدر من الأعمال . ولم يكن ثمة أحد يقف حارساً قرب الغرفة الداخلية ، فيما يبدو ، ولم تفجأ الضجّة محاربين في البعيد إلا الآن فحسب ، فأقبلوا عدْواً ، ولم يكن أمام هو شيمارو الكثير من الوقت ، ولكن احتزاز الرأس من الجثّة برهن على أنه أمر أكثر صعوبة من طعن رجل حيّ ، فداخله الفزع ، فيما هو يصغي للأصوات المتناهية من خلفه . ولئن أراد الهرب ، فعليه أن ينطلق الآن ، لقد نجحت خطّته حتى الآن ، على نحو عجائبيّ ، ولكنه سيتعيّن عليه في نهاية المطاف التخلّي عن هدفه ، أو أن تتعاوره السيوف . صرّ على أسنانه ، شاعراً بالإحباط ، وانتزع السيف ، ولكنه عندئذ ، وأياً كان

السبب ، احتـزّ أنف الجثـة ، فتهـاوت كتلة اللحم إلى الأرض ، ومنتزعاً إياها ، في ردّ فعل عصبيّ ، نحّى جانبـاً بابـاً منزلقـاً ، ولاذ بالهرب .

عندما يقرأ المرء سيرة حياة بطل عظيم ، يبدو في غالب الأحوال أن السماء قد منحته حماية خاصّة ، الأمر الذي يمكّنه من المغـامرة باقتحام مواقف تعلو على مطال تجربة الإنسـان العادي والنجـاة منها دون أن يمسّه أذى . وما العمل الجريء الذي اجترحه هو شيمارو إلا مثال على صحّة هذا القول . وربمـا كان قـد بتر الأنف تنفيسـاً عن شعوره بالإحباط ، وربما أراد أن يحقّق جزءاً على الأقل من الهدف الـذي رمى إليه ، وربمـا مجدّداً تصرّف الفتى الجسور ، في نهـايـة المطاف ، بدافع من فزعه . لا سبيل إلى معرفة حقيقة الأمر . ولكن كائناً مـا كان كبـد الحقيقة ، فـإنه لو لم يـأخذ الأنف معـه حينما لاذ بالهرب لربما كان قد وقع في أيدي مطارديه . لا يعدو ذلك أن يكون مجرّد تخمين ، لكن المحاربين عندما وصلوا إلى المخدع واكتشفوا أن شيئاً مهماً قد اختفى من محيّا مولاهم،لم تمض إلا قلة منهم وراء مقترف هذا الجرم ، لكن الباقين ، وقد قفزوا إلى استنتاج أن الأنف قد بتر بمحض الصدفة ولأنهم ما كانـوا ليخمّنوا قط أن المهـاجم قد مضى بـه ، ربما راحـوا ينقّبـون الغـرفـة بحثـاً عن قـطعـة من وجـه مولاهـم . في البداية ، لم يطـارد هو شيمارو إلا رجلان أو ثـلاثة ، ويبدو أنهم ظنوا أن الصبي ، الذي يعدو أمامهم، هو أحد الوصفاء من المعسكر استيقظ وقدم معهم. وبالكاد أفلح هو شيمارو في الابتعاد الغرفة ، وقبل أن يستطيع اجتياز السور الخارجي ، سمع دويّ النفير وقرع الطبول في أبراج المـراقبة ، في كـل الاتجاهـات . وإذ انتزع الرجال من أحـلامهم انتزاعـاً ، تدفّقـوا خارجين من الثكنـات . عمّ

الهرج والمرج المعسكر ، لكن هذه الفوضى كانت في صالح هو شيمارو ، فقد شقّ طريقاً بين المشاعل المتعددة في ثبات ، وفي نهاية المطاف انتزع مشعلاً ، وراح يلوّح به ؛ ذلك أن الصبيّ كان من الحذق بحيث أدرك أن قوامه سيلفه الغموض إذا كان يحمل مشعلاً في يده ، ولدى وصوله سالماً إلى خارج مجمع العسكر ، ألقى بالمشعل ، وبعد العدو لمسافة ستمائة أو سبعمائة متر ، أرخى نقابه على وجهه ، وذاب في سنا البدر المترامي بلا انتهاء .

وفيه تصيب الحيرة الطرفين ، وترفع قوات ياكو شيجي الحصار

تقول أسفار التاريخ إن ياكو شيجي دانجو ماساتاكا سقط مريضاً ، خلال الهجوم على قلعة أوجيكا ، في الشهر العاشر من العام ١٥٤٩ ، فرفع الحصار ، وانسحب إلى كيوتو ، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة ، بعد عشرة أيام في دارته في أبوراكوجي . ومن الجليّ من كتابي « اعترافات دواجي » و « حلم ليلة » أن هذه الصورة عارية عن الصحة ، ولكن في الوقت نفسه لم يعرف القصة الحقيقية إلا قلائل من القوة المهاجمة ، وهو شيمارو وحده في القلعة .

ويبدو أنه خلال دقائق من هرب هو شيمارو اندلع حريق في المعسكر لاح ظاهراً للعيان من القلعة ، ولم تحترق إلا ثكنة واحدة ، وسرعان ما تمّ حصر النيران ، ويلوح أن شخصاً ما في المعسكر كان من الحكمة بحيث أضرم النار عمداً ، لتقديم تفسير محتمل للهرج والمرج السائدين . وخلاصة القول إن مصرع القائد العام كان نتيجة للتقصير ، وزاد الطين بلّة أن القاتل سمح له بأن يلوذ بالهرب ، ولا بدّ أن الحرج الذي ساد القيادة العليا كان بالغاً ، ولكن في المقام

الأول أجـري بحث لاهف عن الأنف ، فـالأنف ، المفقـود أصعب بكثيـر في التعامـل معه من الـرأس المفقود . لقـد استهان إمـاجـاوه يوشيموتو بخصمه ، ففقد حياته جزاء وفاقاً في معـركة أوكيهـا زاما ، ولكن بعد مضيّ بعض الوقت أعيـد الـرأس والأنف ثابت في موضعه منها بالطبع . غير أنه كان إذلالاً مضاعفاً ، بالنسبة لرأس ماساكاتا ، أن يتركـه القاتل وراءه ، ويأخذ معه الأنف ، وما كان يمكن أن يذاع هذا النبأ في المعسكر . وهكذا يبـدو أنه كـوسيلة لمعالجـة الموقف فرض القادة التزام الصمت على من شاهدوا ساحة القتل ، وعـزيت الطبول والأبواق إلى الحريق .

ولكن حتى إذا كـانت هذه الاستـراتيجية قـد أفلحت في إخفاء الحقيقة عن المعسكر ، فإنها قـد تصدر عن العـدوّ ، فيصل رسـول حاملاً الأنف على صحفة ، ويقول : «لقد سقط شيء ثمين ينتمي إلى الأمير ماساتاكا ، على نحو غير متوقّع ،في أيدينا. ولا شك في أنكم بحـاجة إليـه ، ولذا فـإننا بمقتضى هـذا وبمزيـد من التوقيـر نعيـده إليكم ». وقد روّعت إمكانية حدوث شيء من هـذا القبيل القـائمين على إدارة ذمّة الأمور في معسكر يـاكـوشيجي. وعندما أطلّ الفجر ، خففوا من ضراوة الهجوم ، ورصدوا ما ستقدم القلعة عليه ، ولكن ما من رسالة وصلت ، ومع انحسار الهجـوم ، ساد القلعـة المحاصـرة بـدورها صمت غـريب ، الأمر الـذي زاد رجالات الحـاشية قلقـاً . وشرع الشكّ في وجود مؤامرة يراودهم . وأشار البعض إلى أنه كائناً من كـان ذلك الـذي اخترق مخـدع القائـد العام فـإنـه ليس عميـلاً للقلعة ، وإنما لصّ ، أو ربما شخص يكنّ ضغينة شخصية للأمير . فلو أن المهاجم كان ساموراي لما اقترف جرم بتـر الأنف الذي يبدو عبثيّـاً . وقد لاحت هـذه الحجّة مقنعـة ، ولكن آخرين اعتقـدوا أن

ساموراي من القلعة قد مضى بالأنف ، إذ لم يتح له الوقت الكافي لاحتزاز الرأس . وأن العدوّ يعتزم استخدام الأنف لإذلالهم .

وفيما كان قادة الياكوشيجي عاكفين على سبر أغوار نوايا القلعة ، ساور القلق القوات المدافعة عن القلعة بدورها ؛ إذ لم يكن لها علم بالسرّ الذي جعل محاصري القلعة الموشكين على الانتصار يوقفون هجومهم ، على حين غرّة . كان المدافعون ، وهم يخوضون غمار القتال ، يعتقدون أنه لا سبيل أمامهم للنجاة إلا بحدوث تغير سياسي في كيوتو ، ولكن لم ترد تقارير عن وقوع أي شيء من هذا القبيل . لقد مضى القائمون بالحصار قدماً في هجومهم حتى غدا سقوط القلعة وشيكاً ، ولم يكنَ ثمة ما يدعوهم الآن للانسحاب ، لكنهم لزموا جانب الحذر ، على نحو غريب ، منذ الصباح . لم يعودوا يقرعون طبول الهجوم ، أو حتى يردون على نيران القلعة ، وإنما قووا دفاعاتهم ، ولزموا الصمت ، وكل ذلك دونما سبب واضح . لقد شب حريق في معسكر الأعداء البارحة ، ربما وقع خطب فادح . وأرسل الجواسيس إلى خارج القلعة ، لكنهم لم يرجعوا بشيء له مغزاه . من المؤكد أن ثمة حقيقة غائبة ، وهكذا اجتمع إيكانساي مع كبار ضباطه لمحاولة اجتلاء كنه الأمر ، ولكن ما من أحد منهم استطاع أن يطرح شيئاً يتجاوز التخمينات العرضية ، وكان لكل منهم نظريته ، لكنهم لم يخرجوا بشيء . وذهب أحدهم إلى القول بأن على القلعة أن تشن هجوماً يائساً ، ولكن آخرين ردوا عليه بأن ذلك من شأنه أن يكون أمراً خطيراً ؛ لأن أحداً لا يستطيع التكهن بالمخططات السرية ، التي يعد لها العدو ، ولسوف يكشف لهم مرور الوقت عما يصير إليه الحال ، وعلى قوات القلعة أن تلزم السكوت إلى أن يشرع العدو في التحرك ، وفي نهاية المطاف أوشك النهار على الانتهاء .

فيما كان الجيشان المتصارعان يقفان فريسة لشياطين من صنع خيالهما ، أخذ العذاب بخناق هو شيمارو لإخفاقه البارحة . وعلى الرغم من أنه لم يكن واثقاً في ذلك الوقت من أن الرجل الذي قتل هو القائد العام للعدو ، إلا أنه اقتنع أخيراً بذلك ، حينما هلّ الصباح ، وانحسر الهجوم بغتة . لكنه ما كان ليمضي في حبور ليبلغ الآخرين بما أقدم عليه . غالباً ما يثير الأطفال الحيرة والاضطراب ، لدى الكبار ، بمزحة بريئة مندفعة تؤدي إلى تعقيدات لم تخطر لهم على بال . وفي مثل هذه الحالات ، فإن الجميع سيوفّر عليهم عناء طائل لو أن الطفل أوضح فحسب أنه هو الذي أشعل شرارة الأمر كله ، ولكنه في غمار خشيته من اللوم ، أو تردده في الحديث حينما تأخذ الأمور هذا المعنى ، يدعي الجهل بالأمر ، ويأمل في ألا يكون أحد قد اطلع على جليته . وقد كانت مشاعر هو شيمارو قريبة من هذا ، فلو أنه تقدم وأقر بأنه هو الذي أحدث التغيير في موقف العدو ، بما أقدم عليه البارحة ، لالتقط المدافعون عن القلعة أنفاسهم تواً ، ووفروا على أنفسهم قلقاً هم في غنى عنه . وقد تاق هو شيمارو إلى الكشف عن جلية الأمر ، عندما أدرك مدى براعته في إنجاز ما قام به ، وكيف أن أباه وإيكانساي سيمتدحانه إذا ما علما بما اجترحه ، وهو في عمره ذاك ، ولكنه أحس بالفزع ، حيال الفكرة القائلة بأن العمل الجسور ، الذي قام به ، قد يكون جرى بمحض الصدفة ، وأن الدافع المخزي الكامن وراءه قد يتكشف للعيان . وعلى أية حال فمن ذا الذي سيصدق إذا حاول نسبة ما قام به إلى شخصه بلا دليل ولا شاهد ؟ لو أنه قدم نفسه في لحظة عودته إلى حرم القلعة للمسؤولين ، لربما كانوا قد صدقوه ، ولكنه في حقيقة الأمر ، وقبل أن ينسل تحتَ أغطية فراشه ، كان حريصاً على القضاء على هذا الدليل ، بإلقاء الملابس المخضبة بالدم في نيران الحراسة

الكبرى . أما الآن فإن البرهان الوحيد الموجود لديه هو الأنف ذاته ، الذي لفه في ورقه ، وأخفاه في صدر ثوبه . ولكن لو أنه قدّمه ، لفضح سره الحيوي .

أما ما شغل خاطر هو شيمارو أكثر من غيره فهو أن خطة البارحة باءت بالخذلان ، في اللحظة الحرجة ، ولا شك أن العدو قد تعلم من الدرس الذي تلقنه ، وسيكون أشد يقظة ؛ الأمر الذي يجعل من المستحيل عليه أن يتسلل إلى المعسكر من جديد بمثل هذه السهولة . وبين الفينة والأخرى ، وبعد التأكد من أنه بمفرده ، راح يلتقط الأنف من صدره ، ويسرح بخاطره في حلم من أحلام اليقظة . لقد ارتسم بعمق وجه الجثة لحظة بتره للأنف في خياله ، وازدادت الصورة حيوية في كل مرة يستخرج كتلة اللحم الصغيرة تلك من صدره . ولكن آه لو أنه كان لديه الرأس ذاته! طال به الحنين إلى المضي طلباً له . لا شك في أن جثمان القائد العام سيكون الآن مسجى ، في تلك الغرفة الداخلية . وراح يتصور الغرفة ثم وجه الجثة المسجاة الناعم الرقيق ، وأخيراً التجويف في وسط الوجه . وشأن شيء نادر عظيم القيمة ، أثارت الصورة رغبته في الاستحواذ . ولكن الآن وقد انتهى القتال ، كفت النسوة فى العلية عن عملهن ، وحتى لو أنه استطاع سرقة الرأس وإحضاره إلى القلعة ، فقد ضاع منه إلى الأبد الأمل في وضعه أمام الفتاة . غير أنه كان بمقدوره أن يختلس نظرات إليها ، فيما هي تجلس وسط النسوة اللاتي لم يعد لديهن شيء يشغلهن ، فتجمعن في غرفته من جديد ليشكلن حلقة حول العجوز ويوغلن في الثرثرة ، من الصباح حتى المساء .

ولكن ربما لم يكن هناك شيء أكثر تجرداً من الأمل وتعرضاً

للانكشاف من الهوى ، المكنون ، والذي لا يلقى استجابة ، إذ يستشعره صبي ، حيال امرأة تكبره سناً ، فالفتاة ، دونما إدراك منها ، أشعلت لهيب العاطفة في صدر هو شيمارو ، ودشنت حياته الجنسية التي لا تطاق . ومع ذلك ، فإن هو شيمارو لم يستشعر إلا افتتاناً ، نائياً ، يحاكي الحلك ، ولم يقدر له بالفعل أي اتصال مباشر بها . وفيما هو يختلط بالنساء الثرثارات ، داخله شعور بالارتياح ، إزاء قدرته على الإصغاء لصلاتها واختلاس النظر إلى الابتسامة التي تزحف على خديها ، لكن هذه الابتسامة أوحت إليه بأخيلة مكنونة عن مشهد العلية ، رغم أنها لم تتجاوز كونها الابتسامة الودود لفتاة لطيفة المعشر . أما هو شيمارو فقد رأى القسوة في هذه الابتسامة ، الأمر الذي أغرقه في شعور حاد بالنشوة . وأحزنه سماع القسوة ، وهن يقلن : « يبدو أن الحصار قد انتهى »، أو « يلوح أن القلعة ستنجو »، فكل يوم استمر فيه الحصار كان يوماً آخر يمكنه خلاله أن يكون قريباً من الفتاة ، وتاق إلى استمرار هذا الوضع .

تواجه الجيشان ، في وجل ، لمدة أربعة أيام ، ولكن في اليوم الخامس رفع المهاجمون الحصار ، واقتلعوا معسكرهم ، وانسحبوا . وحتى اللحظة الأخيرة ، عجز كبار رجال حاشية ياكوشيجي عن العثور على أنف مولاهم ، ولم يتمكنوا من معرفة هوية المهاجم ، وربما فقدوا تماسك أعصابهم . أعلنوا عن : « المرض المفاجىء الذي أصاب الأمير ماساتاكا »، وحملوا الجثة في محفّة . وفي ذلك الوقت ، شاع في صفوف الجانبين أن القائد العام ليس على ما يرام ، وضمن الكثيرون أنه قد لقي حتفه بالفعل ، على الرغم من أن أحداً لم يشك في صحة الشائعات ، التي عزت موته إلى المرض . ولكن لو أن الجنود الذين يحملون المحفة ألقوا نظرة واحدة على وجه

« المريض » لسرت الرجفة في عروقهم . كانت بكتيريا المرض الذي يؤدي إلى تآكل أنف المرء قد دخلت اليابان ، حوالي ذلك الوقت ، مع الطباق ، ولكن من المؤكد أنها لم تكن قد انتشرت كثيراً .

بهذا تختتم الطرائف المختارة من طفولة موساشي ، تلك الفترة التي كان يدعى فيها بهو شيمارو . ويضيف كتاب « اعترافات دوامي » ملاحظة ختامية :

« قال مولاي : « غطى كواجو جيمبي تراجع العدو من الحصنين الثاني والثالث ، اندفع جانبنا من حرم القلعة مهاجماً في السحال لمضايقة العدو ، فيما هو ينسحب ، ولكن إيكانساي كبح جماح رجاله ، قائلاً إن الساموراي لا يستفيد من محنة ساموراي آخر ، وإذا كان ماساتاكا مريضاً ، فعلينا أن ندعهم يرحلون ، إن كل من في القلعة قد أيقنوا أن مآلهم في نهاية المطاف إلى موت أكيد . أما الآن فقد عمّتهم البهجة ، ومدت الموائد الحافلة في الأبراج ، وثمل الجميع بالساكي ، الذي تدفق احتفالاً بهذه المناسبة . لست أدري إلى أين مضت لرهينات ، ربما منذ انتهى الحصار ودّعن القلعة ، وعدن من حيث جئن . وقد رغبت في رؤية الفتاة مرة أخرى ، ولكن رغم بحثي عنها ، في كل مكان ، لم أعثر لها على أثر قط . علمت أن اسمها تيرو بنت أمير إيدا من سوروجا . رحت أحدث نفسي قائلاً : « آه ، لو وقع حصار آخر ، إذن لكان بمقدوري أن ألقاها مرة أخرى ، وراودني الأمل في أنه ذات يوم سيجدد الأعداء هجومهم » .

« آه ، لو وقع حصار آخر ، إذن لكان بمقدوري أن ألقاها مرة أخرى ». هنا يبدو الصبي مثل أوسيتشي ، ابنة الخضري ،التي أضرمت النار في دارها ، لكي تتمكن من الانضمام إلى محبوبها في معبد الحي . يا لها من فكرة تثير غرابتها الضحك ! .

الكتاب الثالث



وفيه يبلغ هوشيمارو سن النضج وحديث حول الأميرة كيكيو

بلغ هوشيمارو سنّ النضـج في اليوم الحـادي عشر من الشهـر الأول في ربيع ١٥٥٢ ، حيث دخل عـامه الخـامس عشر . كـان لا يزال يقيم في قلعة أوجيكا ، باعتباره تابعاً لإيكانسـاي . وقد وصف الاحتفال ببلوغ سنّ النضج في كتـاب « حلم ليلة » بذلـك الاهتمام التفصيلي المـدقّق الـذي يميّـز الكـاتبـات ، لكنهـا صــورة حـافلة بالإطناب ، وما من حاجة تدعو إلى التطرّق لمثل هذه التفاصيل هنا . وقد أقيم الحفل في قاعة بدارة إيكانساي ، حسب ما أوردته الكاهنة مايوكاكو ، وأقبل تيروكوني ، والد هوشيمارو ، من مقاطعته ؛ ليضع قلنسوة رمزية على رأس ابنه . في ذلك الوقت كان طول هوشيمارو خمسـة أقـدام وبـوصتين ، وعنـدمـا اعتمـر القلنسـوة ذات الخيـوط الطويلة ، وسار وراء أبيه ، بدا جلياً أن لهما الطول ذاته .

على القارىء أن يلاحظ أن هوشيمارو بلغ طـول خمسة أقـدام وبوصتين ، وهو في الخامسة عشـرة من عمره ، وليس من البيّن مـا الذي كان عليه متوسط طول الرجال ، في عصر الحـروب الأهلية ، ولكن من المحتمل أن خمسة أقدام وبوصتين لم يكن بالطول المتميّز بالنسبة لفتى في مثل سنّه . وغالباً ما تعقّب مايوكاكو ، مؤلفة كتاب « حلم ليلة » على مـظهـره بعـد بلوغـه ، فهي تقـول ، على سبيـل المثال : « كان وجه مولاي في لون الحديد ، وتركيبه الجسماني يفوق

أي رجل آخر . وعلى الرغم من أنه لم يكن طويل القامة ، إلا أنه كان الأضخم جثة ». وفي موضع آخر تضيف : « كان وميض عينيه حاداً ، وعظام خديه ناتئة ، وشفتاه غليظتين ، ووجهه كبيراً بالنسبة لرجل في مثل طوله ». وبمقدورنا أن نستبين من هذا أن قامته لم تزدد طولاً بعد بلوغه سن النضج ، وربما ورث قصر القامة من تيروكوي ، الذي لم يكن يفوق ابنه الشاب طولاً ، ولكنه ليس من المتعذر تخيل الفزع ، الذي يثيره هذا الوجه الضخم بالمقارنة بطول صاحبه ، في النفوس .

وبالمثل حمل هوشيهارو اسم تيروكاتسو مجتزأ مقطعاً من لقب أبيه وكذلك اللقب المراسيمي « نائب حاكم كاواتشي». وفي وقت يعود إلى صيف ذلك العام ، خلال حصار إيكانساي لقلعة ميزوكوري ، قدم اقتحاماً أوّلياً رائعاً لميدان القتال،فهو لم ينتزع رأس هوتا ميزايمون القائد العام للعدوّ فحسب ، وإنما كان أول من اعتلى السور ، ووثب إلى داخل القلعة . ومستحثاً جنوده بقوله : « لا تدعوا تيروكاتسو يلقى حتفه ! » استولى إيكانساي أخيراً على القلعة . ويقال إن تيروكوني ، الذي أقام في جبل تامون ، قد بكى من فرط السعادة ، حينما حدّثه آوكي شوزين عن بسالة ابنه . وبدوره أشاد إيكانساي في حرارة بشجاعة تيروكاتسو ، في ذلك اليوم ، ولكن يبدو أنه أعرب لخاصّته عن قلقه ، بقوله : « لسوف يغدو رجلاً مرهوب الجانب . ترى ما الذي سيحل بآل تسوكوما بعد رحيلي ؟» . وهكذا ، فلا بد أنه اتخذ للأمر حيطته بالفعل ، إذ أدرك أن تيروكاتسو لم يكن ماهراً في القتال فحسب ، وإنما كان حاذقاً على نحو خاص وجريئاً كذلك . وقد قال تيروكاتسو نفسه (كما هو مسجّل في كتاب « اعترافات دوامي ») إن نجل إيكانساي الأكبر المسمى آور يبينوشو نوريشيجي قد شارك في

الحصار كذلك . وكان نـوريشيجي يكبر تيـروكاتسـو بعامين ، لكنـه أدنى منه كثيراً في المظهر والتركيب الجسماني والاقتدار . ولا بد أن هذا لم يغب عن بصيرة أبيه ، إيكانساي ، الذي بدا حزنه الداخلي جلياً ، فعقد تيروكاتسو العزم على ألا يستثير عدم ثقة الأب أو الابن به .

ولكن هذه الحكاية لا تستهدف تقديم صورة عن تيرو كاتسو بكل ساحات القتـال البارز ، فـالتفاصيـل الواردة أعـلاه مسجلة في ذلك الفصل من كتاب « حوليات حرب تسوكـوما » الـذي يحمل العنـوان التالي : « حول سقوط قلعـة ميزوكوري » وفي كتب حوليات أخرى عديدة . والسؤال الذي يبقى مطروحاً هو : ما الذي صار إليه أمر لذة تيروكاتسو الغامضة ، وأخيلته الوحشية ، ورغبتـه في الانطلاق قـدماً نحو « الفردوس السـري » التي فجرتهـا فيه صبيـة الرأس ـ المـرأة ؟ لربما يعتقـد المرء ، بنـاء على ظهوره الأول المشهـور في ساحـات القتال ، أن هذه الذكرى الجهمة قد تلاشت ، دون أن تترك أثراً في فؤاد المحـارب الشـاب ، وحـل محلهـا طمـوح مؤرّق ، على نحـو وحشي . وفي حقيقة الأمر فإن جميع الصبيـة ربما يتعـرضون مـرة أو مرتين لشيء قريب من اللذة السرّية ، التي انتشى بها الصبي . ولكن حينما يتفق أن صبياً يوضع وسط محيط صارم ، ويحيا من جديد تلك المشاعر مراراً وتكراراً ، فإن اللذة المكنونة تلتهم طريقها الى فؤاده ، وتضرب جذورها هناك ، باعتبارهـا انحرافـاً مُرَضيـاً ، يحكـم حياتـه الجنسيـة بأسـرها . وينبني على هـذا أن تيرو كـاتسو ربمـا مـا كـان ليكتشف أبداً وجود ذلك « الفردوس المكنون » لو أنه لم ير في صباه امرأة ـ رأساً . وحتى لو أنه اكتشفهـا لمرة واحـدة ، فمن المؤكد أن غرائزه الجنسية ما كانت لتصاغ على هذا النحو لو أن جرح الطفولة لم

ينكأ من جديد قط . وفي نهاية المطاف ، فإن نجل ديميو في عصر الحروب الأهلية لم يكن يحيا الحياة الهادئة ، التي يعيشها الشباب الأرستقراطيون اليوم . وما كان ليتاح للشاب الوقت لتغذية مثل هذه الأخيلة الوحشية الوضيعة ؛ ومن ثم يمكن القول بمزيد من الاطمئنان بأن الشاب تيروكاتسو لم يكن أمامه خيار إلا الإحجام عن لذته المضمّخة بالعار لبعض الوقت وأن يهب نفسه دونما تردد لاكتساب صيت حميد في ساحات القتال . ومن سوء طالعه أن المرأة التي قدر لها أن تعيد إشعال النار في ميوله الكريهة قد اقتحمت الساحة في هذه المرحلة .

كانت الأميرة كيكيو ، زوجة تسوكوما أوريبينو شو نوريشيبي ، ابنة ياكوشيجي دانجو ماساتاكا نفسه ، الذي « سحقه المرض » ، بعد حصار قلعة أوجيكا . وقد زُفّت إلى نوريشيجي في ١٥٥١ ، أي بعد عامين من الحصار ، وهي في الخامسة عشرة من عمرها ، وهكذا كانت أصغر من نوريشيجي بعام واحد ، وأكبر من تيروكاتسو بعام كذلك . ويرد هذا الوصف لها في كتاب « حلم ليلة » .

« باعتبارها أميرة رفيعة النسب ، قدمت من العاصمة ، كانت ضليعة في الشعر والموسيقى ، وما كانت يانج كوي - في من كاثي ، ولا الأميرة سوتوري من أرضنا ، لتضارع الجمال اللؤلؤي لحاجبيها التويجبين وشفيتها الورديتين . . . » إن هذه السلسلة من عبارات الإطناب التقليدية لا توضح مدى ما كانت الأميرة عليه من جمال . أما كونها جذابة ، على نحو استثنائي ، فهو أمر ربما كان صحيحاً ، إذ قيل إنها لم تكن أقل في هذا الشأن من أمها ، ابنة المستشار الأوسط لقصر الأقحوان ، والتي ترددت الشائعات حول أن حسنها لا مثيل له ، ولهذا السبب فإن نوريشيجي ، الذي كان رجلاً عاطفياً غزلاً

بطبيعته ، كان يتوق منذ وقت طويل إلى من تسايره وتجاريه .

كان التأييد الحاسم من جانب الحكومة العسكرية هو الذي وصل بالمفاوضات التي جرت حول إتمام هذا الزواج إلى نهاية مكللة بالنجاح . وحينما قام ياكو شيجي دانجو ماساتاكا في ١٥٤٩ بمحاصرة قلعة جبل أوجيكا بجيش جرّار ، وأوشك على إجبار إيكانساي على الانتحار بالطريقة الطقوسية التقليدية ، كان ذلك تتويجاً لسنوات طويلة من الحروب التي تواصلت بلا هوادة بين عشيرتي ياكوشيجي وتسوكوما . وما كان يمكن أن يعمّ السلام ربوع البلاد ، طالما واصلت هاتان العشيرتان ، اللتان تتمتعان بقوة متعادلة ، على وجه التقريب ، الاقتتال فيما بينهما؛ من هنا انتهزت حكومة مورو ماتشي العسكرية الفرصة التي أتاحها موت ماساتاكا للتدخل ، فخلف الجانبان وراءهما عداءهما ، الذي دام طويلاً ، وتمّ ترتيب الزواج تكريساً لتصالحهما . ومن ناحية ياكو شيجي كان ماساهايو ، شقيق الأميرة كيكيو قد أحرز نجاحاً باعتباره كبير العائلة . وكان يعلم أن أباه ماساتاكا لم يمت من جراء مرضٍ ألمّ به ، وإنما اغتيل في ثكناته على يد مقتحم ، ألمّ بالمعسكر ليلاً ، وأن جثته قد لحق بها تمثيل لا يحتمل ، وكنتيجة لهذا ، فإن حقد ماساهايو على تسوكوما وعدم ثقته بهم لم يعرفا التراجع ، ولكنه تجلد لمواجهة الموقف ، وقبل اقتراح الحكومة العسكرية بمزيد من الامتنان . أما بالنسبة لتسوكوما فما من أحد ، باستثناء تيروكاتسو ، كان يعرف الظروف التي لقي ماساتاكا حتفه فيها ؛ ومن ثم فبوسعنا التأكد من أن العشيرة بأسرها قد ابتهجت بالمصالحة والزواج ؛ إذ لم يكن لديها ما يحملها على التشكك في نوايا ماساهيو ، وكان العريس نوريشيجي هو أشد أبناء العشيرة بهجة وحبوراً .

في الشهر الثالث من عام ١٥٥٣ ـ أي بعد مرور ما يزيد عن العام على الزفاف ـ مات إيكانساي على فراش مرضه ، بحسب ما يؤكده كتاب « حوليات حرب تسوكوما » وغيره من السجلات التاريخية . وإذ يستعيد المرء أحداث الماضي ، ويمعن النظر فيها ، فإن هذا الموت يبدو بدوره مثيراً للشكوك ، على الرغم من أن أياً من كتابي « اعترافات دوامي » و « حلم ليلة » لم يشر إلى أن هناك غموضاً يلفّه ؛ فقد لقي حتفه من جراء الإصابة بالدوسنتاريا عن ثلاثة وخمسين عاماً ، حسبما يقولان ، وهذا أمر محتمل تماماً ، ومع ذلك فإنه في « حوليات حرب تسوكوما » تبدو صورة سبب المرض واطّراده أكثر تفصيلاً من المألوف ، وبشكل ما فإنها لا تحمل سمة الصدق . ولكن بدلاً من أن نتوغل بصورة أعمق في بحث ظروف وفاة إيكانساي ، دعنا ننطلق إلى الحادث الذي أعقبها .

في خريف الغام ١٥٥٤ ، وبعد أن تلقى تسوكوما أوريبينو شو نوريشيجي تقارير عن انتفاضة قام بها تابعه يوكوا بوزين ، صاحب قلعة تسوكيجاتا ، انطلق على رأس سبعة آلاف من الفرسان لاستعادة القلعة ، وقد صحبه تيروكاتسو ، باعتباره أحد أفراد حاشيته . وفي اليوم العاشر من الشهر الثامن ، وعندما حمي وطيس القتال ، أوقف نوريشيجي جواده ، في ظل أجمة ، على بعد قرابة الميل من البوابة الأمامية للقلعة ، وراح يوجه قواته من تلك البقعة المميزة ، فإذا بطلق ناري يندفع بغتة ماراً لصيق قصبة أنفه ، فأخطأه بما لا يتجاوز قيد أنملة . شهق نوريشيجي ، مذهولاً ، وأطبق بصورة غريزية كفّيه على أنفه . وفي الحال ، دوى طلق ناري ثان ، أوشك هذه المرة على أن يكتسح الأنف من وجهه اكتساحاً ، وتكوّن كشط على قصبة أنفه ، كما لو كانت مشرّرة قد أصابته بشرارة أحرقت جلده ، وانساب خيط

من الدم منثالاً من الجلد المكشوط . سارع تيروكاتسو ، الذي كان يقف أمام الجواد ، إلى حماية قائده بترسه ، ومضى به وعيناه تمسحان ، في ومضة ، ميدان المعركة ، نحو ملاذ يقيه في الأجمة .

ومن الطبيعي أن نوريشيجي ، باعتباره هدف القناص ، قد أخذ منه الانزعاج كل مأخذ ، لكن القلق أخذ بناصية تيروكاتسو بدوره ، كان انزعاج نوريشيجي راجعاً إلى اعتقاده بوقوع محاولة لاغتياله ، ولكن تيروكاتسو تشكك في أن الأمر كذلك ؛ فمن الجليّ أن القناص صوّب رصاصه على أنف القائد ، وبما أن الرصاصتين كلتيهما أطلقتا من اتجاه واحد ، وبما أن الثانية جاءت أقرب إلى الهدف من الأولى ، فإنهما لا يمكن أن تكونا رصاصتين طائشتين ، وكان مسارهما موازياً لوجه نوريشيجي ، فيما هو على صهوة جواده ، وبتعبير آخر بزاوية قائمة مع كتلة أنفه ، وتلك ليست بالتأكيد الزاوية التي يختارها مَنْ هدفه الاغتيال . لكن تلك الافتراضات لم تكن الأسس الوحيدة للشكوك التي ساورت تيروكاتسو ؛ فقد كان شاهداً من قبل ، حينما حل حادث مماثل بساحة إيكانساي ، وقد وقع ذلك الحادث قبل شهرين من بداية المرض الذي أودى بحياته ، وذلك خلال معركة تشيجو ساجاوا في الشهر الثاني عشر من عام ١٥٥٢ .

وفي تلك الواقعة بدورها سلكت الرصاصة خطاً أفقياً ، أمام وجه إيكانساي ، ولكن بما أنه لم تطلق إلا رصاصة واحدة ، فلم يكترث بها أحد ، إلا تيروكاتسو ، وإذ واجه الأخير موقفاً متطابقاً ، على وجه التقريب ، مع ذلك الموقف تفاقم شعوره بالقلق . لقد أراد أحدهم انتزاع أنف إيكانساي ، وهو الآن ينشد أنف ولده ووريثه نوريشيجي . وفي قلب عجاج المعركة الضارية ونقعها استعاد تيروكاتسو فجأة ذكرى الحدث الوحشي ، الذي تخلل طفولته ، ونسيه منذ زمن بعيد . وجه ماساتاكا الخالي من الحياة والمجرد من

الأنف، الرأس ـ المرأة، ابتسامة الفتاة الجميلة الملغزة، وهي تحدق في الرأس.. لا شك أن هذه الأشباحِ راحت ترفّ أمام عينيه، كلمع البرق. وفي الوقت نفسه، تذكر واجبه. كانت الأشباح تهدد باجتذاب روحه إلى مسارب النشوة، لكنه نحّاها جانباً، بتلويحة من يده، وحاول الجزم بهوية من أطلق الرصاصتين. كان محاربو قلعة تسوكيجاتا، وقد قرّ في يقينهم أنهم ملاقو حتفهم، قد اندفعوا قدماً، وانقضّوا لسحقه ، وتحول الميدان إلى ساحة عراك وحشي صاخب ، فيما صفوف المقاتلين تتقاطع ، وانتشر القتال المتلاحم، حتى عتبة مقر قيادة نوريشيجي ، على وجه التقريب . ولكن تيرو كاتسو تحول بناظريه ، في الحال ، إلى الاتجاه الذي أطلقت منه الرصاصتان ، ولمح شبح ساموراي ، يقف على بعد مائتي متر يحدق باتجاهه ، كان يسدل على صدره صدارة بديعة ، مطلية باللك الأسود ، وموشاة بالذهب . أدرك تيروكاتسو أنه هو القناص ؛ فقد كان يتأهب لإطلاق النار للمرة الثالثة ، ولكنه بدلاً من ذلك ألقى بالبندقية القصيرة ، وانطلق مبتعداً .

لما كانت المسافة بينهما أبعد من أن تتيح لتيرو كاستو اعتقال الرجل فقد احتجب عن ناظريه ، وتتبعه ، واقترب منه ، حتى لم تعد المسافة بينهما تتجاوز ستة أقدام ، وهنا بلغ الساموراي حافة الخندق ، في مواجهة البوابة الأمامية للقلعة :

ـ قف !

هتف بها تيروكاتسو من وراء الرجل ، بغتة .

ـ نعم ؟

التفت الرجل ، متّشداً ، وتراجع خطوة إلى الوراء . بدا من قريب ساموراي حسن المظهر ، يعتمر خوذة وافرة الزخرف ، والشعار

المتألق على صدارته هو الحرف الذي يرمز إلى « التنّين »، وقد رسم كبيراً بـاللكّ الذهبي .

ـ أفصح عن هويّتك ! إنني تيروكاتسو ، نائب حاكم كاواتشي ، الابن الأكبر لكيريو تيروكوني ، أمير ماساشي .

ـ من العبث ذكر اسمي .
ـ أيها الجبان،لم استخدمت البندقية ؟
ـ لم أقم بهذا .
ـ صمتاً ! لقد رأيتك تلقي بها ، وتلوذ بالهرب .
ـ لقد اختلط عليك الأمر ؛ فحسبتني غيري .
ـ ليكن ، عليك بالإنكار إن أحببت !

حتى قبل أن يلفظ تيروكاتسو بهذه الكلمات الأخيـرة ، كان زُجّ حـربته يتـألق عند « التنين ». استهـدف تجميد حـركة السـامـوراي الغامض بجرح عميق ، وأخذه حياً . في البداية ، نـظر الرجـل إلى تيروكاتسـو بحسبانـه مجرد طفـل ، ولكن في تلك اللحظة كـان زُجّ الحربة يواجهه ، كأنه سـرب جراد . وبعـد ثلاث أو أربـع حركـات دفـاعية ، غُلب على أمـره ، وطُعن في ساقـه ، من خـلال الشـريط المجـدول في أسفل درعـه ، ثم طعنه تيـروكاتسـو في أعلى عضده الأيمن ، وجثم فوقه ، فتناهت إليه شهقة يأس وإحباط من أدناه .

ـ اسمك !
ـ لا ، عليك بقطع رأسي !
ـ لسوف آخذك حياً .

عندما سمـع المحارب كلمتي « آخـذك حياً » شـرع في التلوي

والتقلص بعنف ، على الرغم من جراحه . تطلع تيروكاتسو حوله إلى من يساعده ، لكن كل ما كان بوسعه أن يراه لم يعد نقعاً هائلاً ، وفيما وراءه امتدت كتل كالظلال ، تتلاحم ، وتفترق ، كأنها أمواج بحر صاخب . وفي غضون ذلك ، تشبث المحارب الصريع بنطاق تيروكاتسو بيده اليمنى ، واستل سيفه القصير بيسراه ، وشرع في الطعن عشوائياً . ولم يعد بمقدور تيروكاتسو أن يأمل في أخذه أسيراً ، دونما عون من أحد ، فدفع ، متردداً ، بطرف نصله في زور الرجل .

- سأمنحك ما أردته ، فقل لي ما اسمك !

قالها تيروكاتسو ، مطالباً للمرة الأخيرة ، لكن الرجل صرخ فيه :

- هلم أجهز عليّ !

« دون إضافة المزيد ، أطبق شفتيه ، وأغمض عينيه ، كان حرياً بي أن أسأله عن هوية من أرسله وراء نوريشيجي ، لكن علمت من سلوكه أنه لن يعترف قط ؛ ولذا احتززت رأسه . لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره إلا بعامين أو ثلاثة ، وبدا وسيماً . تفاقم شكي ، ففتشت تحت درعه ، وعثرت على كيس من القماش المقصب مربوطاً بكتفه ، ضم أيقونة صغيرة مؤطرة لبوذا ، وقد لفت حول الإطار رسالة كتبت بخط نسائي رشيق » .

جاء في كتاب « اعترافات دوامي » أن الرسالة كانت على النحو التالي :

« إلى زوشو — الشهر السابع ١٥٥٤

لكي تثأر لأبي ، عليك بمحو أنف نوريشيجي بالرصاص ، ولكن احرص على ألا تقتله . لئن أنجزت ذلك من أجلي ، لكان عملاً يعبر عن أعمق مشاعر الإخلاص » .

وقف تيروكاتسو للحظة ، ممسكاً بالوريقة ، في حيرة ، في ميدان القتال ، الذي كساه النقع . إن المحارب الصريع هنالك هو زوشو ، الذي وجهت الرسالة إليه . ولكن ماذا عن المرسلة ؟ أي امرأة تلك التي طلبت من الساموراي زوشو أن « يمحو أنف نوريشيجي بالرصاص » ؟ لم يكن هناك توقيع . ولكن من العبارة القائلة : « لئن أنجزت ذلك من أجلي ، لكان عملاً يعبر عن أعمق مشاعر الإخلاص »، ومن الطريقة التي كتبت بها الرسالة ، فجاءت موجزة ، وفي الصميم ، استخلص تيروكاتسو أن الرسالة سطرت إلى تابع من سيدة رفيعة المرتبة ، ترغب في حجب اسمها . ولو أن أحداً غير تيروكاتسو قرأ الرسالة ، لحار في فهم السرّ في أن كاتبتها تسعى وراء أنف نوريشيجي وليس وراء حياته ، وكيف أن ذلك من شأنه « الثأر لأبي » بل لاستعصى حمل الرسالة على محمل الجد حقاً . ولكن فيما راح تيروكاتسو يحدق في الآثار الغامضة لفرشاة الكتابة ، شرع الأمر ينجلي له ناصعاً .

ـ الأميرة كيكيو . . .

بعثت الفكرة الرعدة في بدن تيروكاتسو ، وجعلت جسده يتصبب عرقاً ، تحت درعه . فعلى الرغم من أنه كان في حاشية آل تسوكوما ، منذ عهد الراحل إيكانساي ، إلا أنه من الطبيعي ألا يسمح له بدخول المقر الخاص للعائلة ، ولم يقدّر له قط أن يلمح محيّا الأميرة كيكيو ، وقد تناهت إليه شائعات عن بديع حسنها ، ولكن لم يبلغه شيء عن شخصيتها ؛ ومن هنا فإنه لم يتعرف هذا الخط النسائي ، لكن الرجل المشار إليه من قبل المرأة التي سطرت الرسالة باعتباره « الأب » لا يعدو أن يكون أحداً غير ماساتاكا ، الذي بتر هو نفسه أنفه ، وهكذا أصبح معنى الرسالة السرية جلياً له ، فلا بد أن

الأميرة كيكيو كانت من أعضاء العائلة القلائل الذين علموا بأن شيئاً شديد الأهمية فُقد من أنف أبيها القتيل . وإذ أخذ الحزن بجماع فؤادها ، أرادت الثأر له ، بأن تلحق بالوجه الحيّ لزعيم آل تسوكوما ما حل بوجه أبيها الصريع ، وسواء أكانت قد زُفّت إلى رحاب آل تشوكوما بهذا القصد ، أم اتجهت إلى تحقيقه بعد زواجها ، فإن الأمر كان بلا شك من بنات أفكارها ، وليس من رغبات أخيها ماساهايو . فلو أن هذا الأخير كان يستشعر ذلك القدر من المرارة حيال مصرع أبيه ، على هذا النحو الخارج عن المألوف ، لما وافق على التصالح مع عشيرة التسوكوما قط ، ومن باب أولى لما وافق على زواج أخته من نوريشيجي ، كائناً ما كان معسول قول الحكومة العسكرية ، وأسلوب الانتقام هو أشد مراوغة وختلاً من أن يتصوره رجل ، وما كان يمكن لماساهايو أن يكون على مثل هذا القدر من الجبن ؛ إذ حريّ به اللجوء إلى أسلوب صريح وواضح . وبما أن الرسالة التي حملها زوشو سُطرت بخط نسائي ، ومؤامرة الانتقام تشي في فكرتها بالطابع النسائي الدامغ ؛ فقد خلص تيروكاتسو إلى أن الأميرة كيكيو قد أبلغت زوشو ، وهو ساموراي موثوق به ، الخطة السرية ، التي غذّتها كالنبتة في صدرها . ودون أن تبلغ عائلتها بشيء ، عقدت العزم على الثأر لأبيها بأشد الأساليب إيغالاً في الاتسام بالطابع الكلبي .

اجتذبت هذه التكهنات فؤاد تيروكاتسو ، في اتجاه غير متوقع ، فمن المؤكد أن خدمته لآل تسوكوما كانت مهمة مؤقتة ، وليست نتيجة لعلاقة موروثة تربطه كتابع بهم كأمراء ، ولكنه كان مديناً لتلك العائلة بالعرفان ، لقيامها بتنشئته ، وهكذا فمن الطبيعي تماماً أنه لم يختلف عن باقي أعضاء حاشية نوريشيجي في مشاعر التقدير والمودة التي

يكنها له ، وفي رغبته في أن يخدمه بإخلاص . وحينما أوقعت ضربة من ضربات الحظ هذه الرسالة الخطيرة في يده ، كان عليه أن يطير فرحاً لتمكنه من الحيلولة دون الكارثة ، التي تهددت نوريشيجي ، وإبلاغه بالأمر في التو واللحظة . هكذا كان الواجب يقتضيه ، في ظل تلك الظروف . ولكن ، بدلاً من ذلك ، اتخذت أفكاره مساراً مذهلاً ؛ فقد استيقظ فجأة الانجذاب إلى الرؤوس ـ المرأة ، الذي قبع ساكناً كل هذا الوقت في ذهنه ، واتخذ شكلاً مترعاً بالحيوية والنشاط ؛ راح يتخيل نصف الابتسامة تلك التي ارتسمت على خدي الفتاة في العلية ، ثم نقلها إلى محيّا تلك السيدة الارستقراطية ، التي تقبع في أعماق قلعة جبل أوجيكا . ورسم مسرعاً صورة للمرأة الحسناء التي لم يرها قط ، فإذ تعتكف في غرفة تحيطها الستائر الذهبية ، التي تعكس في ومض الضوء المترامي من الحديقة ، وترتفق وسادة ، في ظل مصاريع نوافذها الخيزرانية ، ستحدق صامتة في الدنيا المترامية خارج الغرفة ، بعينين باردتين ، فاتنتين . واجتذبت الابتسامة المراوغة ، التي من شأنها أن تتلاعب على خديها الشاحبين الصافيين ، فيما هي تتصور زوجها نوريشيجي وقد حرم من أنفه ، تيروكاتسو على نحو يفوق في قوته بكثير اجتذاب ابتسامة فتاة العلّية له ، فتلك الفتاة لم تكن إلا ابنة شخص يدعى إيدا من سوروجا ، أما تلك فهي سيدة كريمة المنبت ، انحدرت من صلب المستشار الوسيط لقصر الأقحوان . لقد كانت الابتسامة غير الواعية لابنة إيدا تكسوها لمسة من القسوة ، لا أقل ولا أكثر ، بينما الابتسامة المتلاعبة على الخدين الأسيلين لتلك السيدة تضم دفقاً عميقاً من السخرية والاستهزاء . كانت تلك هي الابتسامة المترعة بالضغينة ، التي ترسمها امرأة تدعي التمسك بأهداب الفضيلة ، حتى وهي تحيك في هدوء نسج شبكة الانتقام . راح تيروكاتسو يفكر أولاً في

هذه السيدة ، التي تملكها حقد مخيف ، ثم في زوجها نوريشيجي ، وقد مثلت به حيلتها اليائسة ، وإن ظل على قيد الحياة . وعندما وضع وجهيهما أحدهما قبالة الآخر ، الوجه الأول تجسيد للجمال ، والثاني للقبح ، تجاوزت البهجة الوحشية التي أثاراها بكثير أي شيء سبق أن استشعره في العلية . كان قد حلم بالبهجة المضمخة بالنشوة ، التي سيحس بها ، لو أنه كان رأساً ـ امرأة ، تجردت من الوعي ، ووضعت على ركبتي الفتاة ، فراحت يداها تتلاعبان بها . أما الآن فإن واحداً من الرجال ، الذين يعرفهم حق المعرفة ، سيصبح « رأساً ـ امرأة » تسري الحياة في عروقه ، ينعم بتحديق زوجته البارد فيه ، وليس من المستحيل أن تيروكاتسو سيشهد عما قريب هذا المشهد بالفعل .

كما لعلك تعلم ، فإن كتب التاريخ وسير الحياة اليابانية ، وخاصة بعد إرساء الحكم العسكري في عهد كاماكورا ، كانت شديدة الإسهاب في سرد أقوال وأعمال الأبطال ، ولكنها تلتزم الصمت حيال شخصيات النساء ، اللاتي تحمّلن هؤلاء الأبطال ، واللاتي كنّ في الغالب يتلاعبن بهم من وراء الكواليس . وهكذا كان الأمر في حالة الأميرة كيكيو بدورها ، حيث يمكننا من خلال كتاب « شجرة أنساب آل تسوكوما » وموادّ متناثرة في الحوليات العسكرية المعاصرة ، التحقّق من نسبها ، ومن تواريخ زواجها ، ووفاتها ، وأنها أنجبت طفلاً وطفلة من نوريشيجي ، ولكن الإيماءة الوحيدة إلى أنها قد تآمرت مع تيروكاتسو ، للقضاء على نوريشيجي ، ترد في سطر أو سطرين موحيين في كتاب « حوليات حرب تسوكوما »، وما من شيء على الإطلاق يمكن الوصول إليه من كتب التاريخ الرسمية حول الظروف التي واكبت المؤامرة أو حول طبيعة شخصيتها . ومن

شأن رجل له ميول جنسية مازوكية ، كما هو حال أمير موساشي ، أن يجنح نحو بناء صرح تصوّرات خيالية ، تتوافق فيها شريكته مع متطلباته المرتكسة . وهكذا ، فإن المرأة ، في معظم الحالات ، ليست على الإطلاق ذلك المخلوق عديم الرحمة ، الذي تُصوّر في إهابه . وفيما يتعلق بتمثيل الأميرة كيكيو بزوجها ، فإن لدينا رواية تيروكاتسو الواردة في كتاب « اعترافات دوامي » وملاحظات الكاهنة مايوكاكو الواردة في كتاب « حلم ليلة »، ولكن هاتين الروايتين هما من التناقض بحيث يبدو أنهما تصفان أشخاصاً مختلفين ، وإذا ما صدقنا المصدر الأول ، فإن الأميرة كيكيو تتبدى امرأة سادية بالسليقة ، أما إذا أخذناه بالمصدر الثاني ، فإن إصرارها الرهيب لم ينبع إلا من رغبتها الجارفة في الانتقام لما حل بساحة أبيها من هوان فحسب ، وأنها في حالتها العادية كانت امرأة رقيقة القلب ، وربما كانت الصورة الأخيرة أقرب إلى الحقيقة . ولكن من المحتمل أن الكاهنة مايوكاكو ، بسبب افتقارها إلى المعرفة المباشرة بالأميرة كيكيو ، آثرت التزام الحذر . وأياً ما كان الأمر ، فلا بد أن ميول تيروكاتسو الفريدة قد استثارتها ضراوة زوجة ، ما كانت لتتردد في التمثيل بزوجها ، ثم الاستمتاع بالتحديق في تشوّهه ، فيما هي تقوم على رعايته والاهتمام بأمره . ومنذ تلك اللحظة ، غدا مفتوناً بالأميرة ، وحليفاً سرياً لها ، وألقى جانباً بولائه لنوريشيجي ، كما يلقي بحذاء بالٍ .

« علمت فيما بعد أن زوشو كان ابن ماتوبا سايمون أحد أفراد حاشية ياكو شيجي وكانت أمه هي مربية الأميرة كيكيو ؛ ومن ثم فإنه والأميرة كانا بمثابة أخ وأخته . وكان من أبرز الرماة المهرة ، واعتقد أن قطع علاقاته بمولاه ، في الوقت الذي قامت فيه انتفاضة قلعة

تسوكيجاتا ، وانطلق مسرعاً من العاصمة للانضمام إلى يوكوا بوزين ، وكان هو نفسه الذي أطلق النار على إيكانساي ، في العام السابق. وإذ تركت رأسه في ساحة القتال ، أخفيت الأيقونة والرسالة ، تحت درعي ، وعدت إلى المعسكر . لم يعلم أحد بخيانة لأميرة كيكيو . وكان قتل هذا الرجل الخطأ الكبير في حياتي ، ولكن منذ تلك اللحظة تغيز ولائي ، فلسوف أغدو حليفاً لها ، وسأساعدها في تلبية رغبتها ».

وبتعبير آخر ، فإن شهوة تيروكاتسو المريضة ورغبة الأميرة كيكيو في الانتقام قد سعيا ، بمحض المصادفة ، إلى الإشباع ، من خلال هدف واحد : الإطاحة بأنف نوريشيجي ، دون قتله . وهكذا ، فقد كان أمراً غير ملائم لكل منهما أن يقدم تيروكاتسو على قتل زوشو ، أهم شخص بالنسبة لتحقيق هدفهما. ومن سوء طالع نوريشيجي أن حدثاً مضحكاً قدر له أن يحل بساحته ، قبل انقضاء وقت طويل .

وفيه يغدو تسوكوما نوريشيجي أشرم ، ويتم وصف مراحيض سيدات الطبقة العليا

في ربيع عام ١٥٥٥، وبعد حوالي ستة أشهر من وقوع معركة قلعة تسوكيجاتا ، أقام تسوكوما أوريبينوشو نوريشيجي حفلاً لمشاهدة تفتح البراعم ، في حديقة القصر الداخلي ، في قلعة أوجيكا . كانت أزهار الكرز في قمة ازدهارها ، فمدّ سجادة في ظل الأشجار ، وأسدل من حولها الستائر ، وهنالك عكف على احتساء الساكي ، والتسرية عن نفسه بالشعر والموسيقى ، بصحبة زوجته والوصيفات . بدأ الحفل في الصباح ، وتواصل حتى اعتلى قمر أشهب كبد السماء . وعندما جلبت المصابيح ، وتم ترتيبها على السجادة ، جعل نوريشيجي ، الذي تعتعه السكر الآن ، موسيقياً ضريراً

يصاحبه بالقرع على طبل يدوي * ، فيما هو يغني ، ويرقص « كوسيمايي » ، وفيما هو يقترب من نهاية الرقصة .

زنار البراعم المقصب
انحلّ ، لكنما بلا طائل ،
وخيوط الحور منطلقة ، فؤادي
لا يسعه ، أبداً ،
أن ينسى ذلك الشعر في انطلاقه الحلمي .

كشط سهم ، على حين غرة ، وجه نوريشيجي ، مهدداً بنثر أنفه بدداً ، مع براعم الكرز ، لكنه جاء منخفضاً ، فأصاب شفته العليا .
ـ أيها الوغد !

كان نوريشيجي على يقين من أنه رأى شخصاً ، ملتفاً بالسواد ، يثب من فوق غصن شجرة كرز ، على بعد حوالي أربعين قدماً ، وضاغطاً بيده على فمه النازف دماً صاح ـ أو حاول أن يصيح ، ولكن لسبب ما جاء نطقه بعيداً عن الوضوح . حاول ، في هياج شديد ، أن يصرخ : « هناك ، مضى في ذلك الاتجاه ! » لكنه لم يستطع التفوه إلا بضوضاء غريبة ، غير محكمة النطق ، وبلا معنى على الإطلاق ، كأنها لثغ طفل وليد ؛ ذلك أن السهم كان قد شرم شفته العليا ولثته ، وجعل الألم من المتعذر عليه تحريك شفتيه ، على نحو سليم ، وتلاحق انسياب تنفسه عبر الجرح ، الذي أحدث ما يشبه الهوة في وجهه . ولكنه في ذلك الوقت ، وفيما الدم يتدفق من

* التايكو : أو طبول اليابان هي عالم بكامله ، يبدأ من الطبول الدقيقة وينتهي بطبول المعابد الهائلة ، والطبل المشار إليه ، يحمل باليد اليسرى، على الكتف اليسرى ويدق عليه بكف اليد اليمنى في إيقاع شبه ثابت تقريبا لمصاحبة الأغاني وربما القصائد (هـ . م) .

وجهه ، لم يستطع التيقن مما إذا كانت الضربة قد أصابت أنفه أو فمه ، وعندما أدرك أنه لا يفقه ما يقول ، أخذت منه الحيرة كل مأخذ .

وبما أن الرجال لا يسمح لهم ، إلا نادراً ، بولوج هذا الجزء من القلعة ، فقد بادرت الوصيفات إلى مطاردة القناص . وفي غضون ذلك ، هرع عدد من الساموراي إلى الساحة ، وراحوا يفتشون كل أركان الحديقة الفسيحة ، لكن القناص أفلح بشكل ما في الاختفاء ، ولم يعثر له على أثر . لم يستطع أحد فهم كيفية وقوع هذا الحدث الغامض ، ذلك أن القصر الداخلي هو قلب الحصن الرئيسي ، ومن شأن أي مقتحم متطفل من الخارج أن يضطر إلى اجتياز عدد كبير من المراكز الدفاعية ، للوصول إليه ، وعلى الرغم من أن القصر كان بمثابة جزيرة للنساء ، ولا مجال لوصول الرجال إليه ، فإن الحراس كانوا يراقبونه ليلاً ونهاراً ، من مراكز استراتيجية ، تحيط به من كل الأنحاء . وربما كان شخص ممن يعرفون الطريق قد سار عبر الممر الجبلي السري ، واقترب من حرم القلعة من الخلف ، إلا أنه كان سيجد من المتعذر عليه التسلل إلى الحديقة الداخلية ، فلم يكن بمقدور أحد ، حتى ولا ساموراي من القلعة ، الوصول إلى هذه الحديقة دون المرور بنقطتين أو ثلاث نقاط للحراسة ؛ من هنا فقد كان من قبيل الأعاجيب أن القناص قد أفلح في التسلل إلى الداخل ، وقد تفاقم الغموض حينما لم يسفر التنقيب الدقيق في أرجاء الحديقة في العثور على أثر له . وذهب الجميع إلى القول بأنه ليس بوسعه الهرب إلى الخارج وأنه بالقطع مختبىء في مكان ما في القلعة ، فاستمر البحث طوال الليل في الحديقة ، وفي كل غرف وقاعات القصر ، وفي العليات والدهاليز والأقبية ، ولكن بلا طائل ، الأمر

الـذي أثار الضيق الشـديد ، في نفـوس قـاطني القلعـة ، فشـددت الحراسة ، وصدرت الأوامر بالقيام بـدوريات ليليـة لا تنقطع ، لكن شهراً انقضى ، ثم شهرين ، دون وقوع المزيد من الحوادث ، فيما ظلت هوية القناص لغزاً ، لم تنكشف أسراره .

ابتهـج السامـوراي جميعاً ؛ لتـراجع الخـطر الذي تهـدد حيـاة سيّدهم ، لكن كل من قابله عقب الحادث شعر بالإشفاق عليه ، في قرارة نفسه . وعندما اندمل جرحه بما يتيح له استقبال رجاله ، بـدا جلياً ، للجميع أنه أصبح أشرم ، وما كـان ذلك ليـوصف بالإصـابة الخطرة ، فعدم الانتظام نسبياً في السطح العلوي لشفته لن يؤثر على أنشطته اليومية ، ولن يمنعه من إعمال سيفه في الميدان ، شـأن أي رجل عادي . وبالمقارنة بأعرج أو أعور فإنه لا يمكن القـول ، على الإطلاق ، بأنه رجل معوق ، وهكذا هنأه رجاله على حسن طالعه ، لكن أيـاً منهم عندمـا انحنى بتوقيـر مصطنـع ، لم ينظر مبـاشرة إلى محيّـاه . وقد أصابهم فتور كبير من الانزعـاج ، عندمـا تبينوا أنهم لا يستطيعون دائماً فهم ما يقوله . وتحسن الوضع هوناً ، مـع استمرار اندمال الجرح ، لكن هوة مثلثة ظلت قابعة في منتصف شفته العليا ، وفقدت سنّتان أو ثلاث ؛ الأمر الذي نتج عنه أنّ بعض الأصوات لم تكن مميزة . ذلك كان مدى الضرر الجسماني الذي لحق به .

لكن المـرء يألف هـذه الأمور ، ومـع مضي الـوقت لا يكتـرث الشخص المعني ، ولا من يحيـطون به ، أدنى اكتـراث بهـا . وفي البـداية ، اغتم نـوريشيجي ، أما الآن فقـد غـدا بمقـدور رجـالات حـاشيتـه النـظر إلى وجهـه ، وكـأن شيئـاً لم يكن ، وتعلمـوا كيف يتفهمون حديثـه . وسلم الجميع بهـذا الشرم ، كـأنه أمـر طبيعي ، فنسي نوريشيجي الجرح ، الـذي كان يستشعـره في بادىء الأمـر .

وضرب له بعض أعضاء حاشيته مثالاً برجل الاستراتيجية البارز ياماموتو كانسوكي، الذي كان أعرج، أحول، يوشك أن يكون قزماً، تقتحمه العين، وأكدوا له أن العيوب البدنيّة لا تأثير لها في زيادة كبرياء المرء ومكانته، وقد جرى تدريجياً إقناعه بأنّ ذلك هو الحق الصراح. ولكن بالنسبة لمراقب محايد، أو لشخص خبيث الطوية، فإنه ما من شيء مضحكاً. وكلما زاد اعتياد أعضاء الحاشية الآخرين لوجه نوريشيجي وحديثه، لاحا بصورة أكبر أكثر اتساعاً بالطابع الفكاهي، من منظور تيروكاتسو، وأياً كانت محاولاته لمنع نفسه من الانسياق مع هذا الشعور، فقد كان يعرف أنه لا يسعه أن يكون موالياً للرجل فيما هو ينظر إلى شفته ذات الشرم الثلاثي. بل إن الأمر كان على العكس من ذلك، فقد أدى قبح وجه نوريشيجي إلى زيادة إخلاص الأميرة كيكيو. وتاق إلى اختلاس نظرة إلى الأميرة، وخاصة إذا ما كانت منفردة بالديميو الأشرم، في مخدعهما. لسوف يتفوه الأمير ذو الوجه المثير للرثاء بعبثياته العذبة، بذلك الصوت المميز بغرابته، وستقمع زوجته الحبيبة الأميرة كيكيو ضحكة، وتخفي سوء طويتها، وتبتسم في غنج ودلال. لقد تجسد هذا المشهد، الذي لا شك أنه تكرر كل ليلة في جوف القصر، في أحلام يقظة تيروكاتسو، كلما مثل في حضرة نوريشيجي. في بعض الأوقات، راح يحدث نفسه بأن بمقدوره أن يرى محيّا الأميرة النبيلة، المكسو بالذرور، يرفّ كأنه الشبح، في الفجوة الظليلة، وراء نوريشيجي، فيما هو يقتعد منصّته.

أمضى تيروكاتسو أياماً عديدة، مستمتعاً بالأخيلة، التي ألهمه إياها وجه نوريشيجي، ولكنه بدوره لم تكن لديه أدنى فكرة عن هوية من تسلّل إلى الحديقة، وأطلق السهم، الذي مثل بوجه

نوريشيجي . وربما لعلكم افترضتم أن الفاعل هو تيروكاتسو نفسه ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، فيما يبدو . وفي كل الظروف القائمة ، سيكون التشكك فيه أمراً طبيعياً ، ولكن كتابي « اعترافات دوامي » و « حلم ليلة » يتحدثان عن فاعل آخر ، على نحو ما سنرى ، ويبدو من المنطقي تماماً القبول بالصورة ، التي يرسمانها ، وهما صريحان أشد الصراحة ، فيما يتعلق بالجوانب الأكثر قتامة في الحياة السرية لأمير موساشي ، بحيث أنه لا يحتمل أن يتكتما أمره ويتلاعبا بالحقائق ، إذا كان مذنباً في هذه الحالة . إضافة إلى هذا ، فلم يتم بعد إجراء اتصال بينه وبين الأميرة كيكيو . وربما كان حرياً به أن يحاول القيام بعمل خبيث ما ، ولكن من المؤكد أن مآل هذا العمل إلى الفشل ، لم يكن على اتصال بالأميرة . وعندما كانت عاطفته المرتكسة تجتاحه ، كان ينقلب إلى شيء لا صلة له به في حالته العادية بالمرة ، لكنه كان في أعماق نفسه محارباً نبيلاً ، مكتمل الرجولة . وربما شعر ، في ذلك الحين ، بما لا يتجاوز كونه حافزاً للقيام بعمل خبيث ، ولكن من المؤكد أن ميوله المَرَضية لم تكن قد نمت بالقدر الكافي لجعله ينحدر إلى هذا الدرك . وبدون أدنى شك فإن هذه الفعلة اقترفها غيره . وقد وقعت حادثة مشاهدة ازدهار الكرز ، حينما كان تيروكاتسو قد شرع لتوّه يستشعر أعظم قدر من الندم على قتله لزوشو ، وإحباطه لخطة الأميرة . وبما أنه لم يكن بمعية نوريشيجي في ساحة الواقعة ، فلم يدر بالتفاصيل ، ولكنه أحس ، على الفور ، بأن الأميرة أبت التخلّي عن خططها ، بل وعثرت على من يضطلع بدور زوشو . وبالطبع ، لم يعلم بالكيفية التي دخل بها هذا الرجل ، أو المرأة ، الحديقة الداخلية ، ثم أفلح في الهرب ، ولكنه بدا جلياً أن كل شيء تم القيام بإنجازه بمباركة الأميرة ، وأدرك أن السهم الذي شرم نوريشيجي إنما وُجّه إلى أنفه ،

فهل تكتفي الأميرة بما حلّ بزوجها من شرم ؟ أم أن الهجمات ستتواصل إلى أن تطيح بأنفه ؟ من المحتم أن اهتمام تيروكاتسو قد انصبّ على هذه النقطة .

ذات مساء صيفيّ حار ، في الشهر السادس من العام نفسه ، كان نوريشيجي مسترخياً في الشرفة مع زوجته ، يستروح النسيم ، ويعاقر الساكي ، عندما اندفع سهم ، بغتة ، باتجاهه من أجمة كثيفة في الحديقة . كان قد أُطلق من الاتجاه ذاته ، وبالزاوية عينها ، مع وجه نوريشيجي ، كالسهم السابق ، ولكن في هذه المرة سمعه نوريشيجي يشق طريقه ، عبر هواء الليل الساكن ، فحوّل وجهه وتراجع إلى الخلف ، في ردّ فعل انعكاسي ، ولو أنه لم يفعل هذا لتسطّح البروز الناتىء فوق شرمه . ورغم ذلك ، فلم يخرج من الأمر سالماً ؛ ذلك أن السهم كان أسرع من حركته المفاجئة ، ففيما هو يميل بجسمه إلى الخلف ، ويلوي عنقه إلى اليسار ، اكتسح السهم الجانب الأيمن من وجهه ، ومضى في سبيله بكتله ناتئة من اللحم والغضروف ، هما أذنه اليمنى .

تحركت الوصيفات مسرعات ، فاهتمّت مجموعة بالعناية بنوريشيجي ، واندفعت أخرى إلى الحديقة بالحراب . لم يطرأ شيء خلال الأشهر الثلاثة ، التي انقضت منذ حفل مشاهدة ازدهار الكرز ، وتم التخلي عن التفتيش عن الجاني ، بحسبانه أمراً لا طائل وراءه ، وتراجعت اليقظة في الحراسة هوناً ، لكن الحرّاس كانوا على الدوام يضربون نطاقاً محكماً ، معتمدين على خبرتهم من الهجوم السابق . غير أن القنّاص قد طار لا بدّ إلى عنان السماء ، أو انشقّت الأرض وابتلعته ، ففي هذه المرة أيضاً أفلح في الهرب ، دون أن يعثر له على أثر .

كان الضرر الناجم عن جرح نوريشيجي محدوداً كسابقه ، بل وأقل منه حقاً . بالطبع ، كانت تلك لطمة ثقيلة حلت بمظهره ، إذ فقد أذنه اليمنى ، بعد أن غدا رجلاً أشرم ، من قبل ، لكن ذلك أفضل من فقدان أنفه . ربما يمكن الذهاب إلى القول بأن فقدان أذن هو أسوأ من الشرم ، أو المضيّ بلا أنف ، لأنه يقلب توازن وانسياب الوجه ، لكن ذلك أمر يتعين على كل امرىء أن يقرر لنفسه ما يراه فيه . أما سكان قلعة أوجيكا ، وهم أبعد ما يكونون عن تمحيص مثل هذه المسائل ، فقد حلّت بهم حالة رهيبة من القلق والاهتياج ، وخلصوا إلى أن الجاني هو ، على وجه اليقين ، الشخص نفسه الذي أتى هذا الأمر قبلاً . ولكن إذا كان القنّاص قد اختفى كل هذا الوقت في القصر الداخلي ، فلا بد إذن من أنه أو أنها من أهل الدار ؛ وبناء على ذلك فقد بدأت عمليات التفتيش والتحقيق مع الحجّاب والأمناء في القصر (فعلى الرغم من أنه كان يفترض ألا يدخله الرجال ، إلا أن بعض الخدم من الذكور ألحق به) وطالت الوصيفات ، ولكن التشكك حاق داهماً بالمحظيّات . وعادة ما يؤثر الديميو محظياته على زوجته ، ولكن نوريشيجي تزوّج من المرأة التي يهواها ، ولم يبق على محظيّتين أو ثلاث محظيّات إلا بتأثير العادة ، ولأنه أمر متوقّع من أمير إقطاعي . ويظهر مدى إهماله لهن من خلال الحقيقة المتمثّلة في أنه ولد له طفل وطفلة من زوجته ، على حين لم يُعقب من محظياته . وكان في السابق يمضي لرؤيتهن حسبما يعنّ له ، من حين لآخر ، ولكنه بعد تعرّض وجهه للحادث المشؤوم لم يكن يترك جوار زوجته ليلاً إلا نادراً ، واستشعر مقتاً شديداً لرؤية محظيّاته له ، على هذا النحو . وفي غمار هذه التداعيات ، أفردت محظية ، عُرفت بغيرتها ، على نحو خاص ،

لمزيد من التحقيق ، ولكن ، في نهاية المطاف ، لم يعثر على دليل ضدها ، ولم يسفر التحقيق عن شيء .

وعلى الرغم من أنه لم يتمّ التخلي عن القيام بالتفتيش كلية ، فإن التوقّعات لم تكن مشجعة . وتم تنفيذ دورات المراقبة ، بمزيد من الصراحة ، وزيدت مواقع الحرس ، وعيّن أحد أفراد الحاشية الموثوق بهم ، كل شهر ، ليتولى مهمة الإشراف على هذه المواقع . وبعد حوالي شهرين ، في منتصف الخريف ، حل دور تيروكاتسو ، أخيراً ، للإشراف على مواقع الحرس . وكان ينتظر هذا التطور بلهفة ، فبما أنه كان الوحيد الذي اشتمّ رائحة السرّ وراء ما يحدث ، فإنه وحده هو الأنسب للاضطلاع بهذا الواجب . ولكن بالطبع لم تكن الرغبة في خدمة نوريشيجي ، بالعثور على الدليل على المؤامرة ، هي السبب في لهفته . وبما أن مواقع الحرس كانت عند طرف ناءٍ ، بالنسبة للغرف الخاصة بالأميرة كيكيو ، فلم يكن هناك كبير أمل في تحقيق ولو اتصال غير مباشر بها ، دع جانباً استراق النظر خلسة إليها وهي غافلة ، ومع ذلك فإنه بالنسبة لرجل يعشقها عن بعد إلى حدّ التبتّل كان أمراً مريحاً أن يغدو أكثر قرباً منها ، وأن يرى أسقف وجدران القصر الذي تقطنه . وبعد تولي مسؤولياته الجديدة ، راح تيروكاتسو يتجول على مهل عند السور الخارجي للقصر الداخلي كل ليلة ، مصدراً توجيهاته بالنسبة لمواقع الحرس والمراقبة ، مستغرقاً طوال الوقت في بهجة أخيلته المعتادة ، وهو يرسم لنفسه صورة الثنائي المتناقض ، في مخدعهما . وحتى خلال النهار ، كان يستند إلى سور حجري مشمس أسفل القصر ، ويحدق في سماء الخريف الصافية ، ويتابع الأشباح في ذهنه شارداً . وفي مثل هذه الأوقات ، يغدو بطل ساحات القتال شاعراً . كانت تلك أكثر البقاع

هدوءاً وعزلة في أراضي القلعة ، المكان المثالي لشاب أخذ الهوى بمجامع قلبه ، ليمضي فيه الوقت ، في حوار مع أحلام يقظته . وعلى نحو ما رأينا ، فإن قلعة تسوكوما كانت سلسلة حصون جبلية ، تستغل الموقع الحصين الذي يحتله جبل أوجيكا . وهي لا تتبع الأساليب الفنية الغربية ، في بناء الحصون ، على نحو ما غدا الحال عليه ، في وقت لاحق ، بالنسبة لقلعة أروتشي ، وإنما كانت قلعة مبنية بأسلوب القرون الوسطى ، الذي لا تشوبه شائبة : فالمدخل يخضع لما تمليه الاعتبارات الطوبوغرافية ، وعلى الرغم من أنها فسيحة الأرجاء ، إلا أنها غير منتظمة الشكل ، إلى أقصى حد ؛ إذ تضم داخلها غابات وأودية وأغواراً ، تحيط بها أسوارها . وقد استقر القصر الداخلي على قمة تل ، يرتبط بتل آخر ، يأخذ شكل اليقطينة ، شيّد فوقه القصر الخارجي ، ويصل عنق اليقطينة الضيّق التلّيْن أحدهما بالآخر ، ويقاطعه ، مستعرضاً ، ممر طويل يفضي من القصر الخارجي إلى الغرف الخاصة ، ومثّل باب خشبي الفاصل بين الجنسين . وكان هذا هو الطريق الداخلي الوحيد ، الذي يفضي من عالم الرجال إلى دنيا النساء . وشملت المنطقة ، التي يراقبها الحراس ، التل الذي يتربع القصر الداخلي عليه بكامله ، وبالتالي فلا بد أنها ضمت مساحة يعتدّ بها . وكانت المساحة المسطحة يحيطها سور طينيّ ، يرتكز على سور حجري شديد التحدّر ، وترك المنحدر الذي يعلوه السور على حالته الطبيعية ، حيث نمت الأعشاب البرية كثيفة وعالية ، وثمة هوة صخرية هنا وهناك ، إلى جانب غابة عذراء كثيفة الأشجار ، يلفها الظلام ، على نحو يبعث الرعدة في النفوس . وإذا ما غامر أحدهم باقتحام هذا المكان ، لاعتقد أنه ضل الطريق ، في هذه البرية الجبلية ، التي لا تبين فيها المعالم .

ذات أصيل ، أقبل تيروكاتسو ، كمألوف عادته ، إلى هذه البقعة النائية ، عند قاعدة السور الحجري . وفيما هو يجلس شارد الذهن ، على الجذر الباقي من شجرة مجتثّة ، امتدّ ناظره صعداً على السور الحجري والسور الطيني الذي يعلوه، وصولاً إلى قمم أشجار الغابة الرائعة ، التي تشكل امتداداً للحديقة الداخلية ، وأخيراً إلى السقف ، الذي يتخايل من بين قمم الأشجار . قال محدثاً نفسه : « ذلك هو القصر ». رغم قربه ، لم يكن أمامه من سبيل إلى إعلانها برغبته في أن يكون تابعاً موالياً لها ، وأن ينفّذ أي مهمة تعهد بها إليه ، دونما شعور بالامتنان من جانبها . أفعمته هذه الخاطرة بالأسى والحنين ، في آن واحد . وإذ أفعمه الحنين العاجز ، كان يمكن أن تظل عيناه تطوفان إلى ما لا نهاية بالسور الحجري والسقف ، لكنه لاحظ ، فجأة ، موضعاً في أدنى السور جُرّد من الطحالب . لم يكترث به ، في البداية ، ولكن على الرغم من أن باقي الجدار كان مكسواً باللون الأخضر ، كانت هناك علامات في هذا الموضع تدل على أن أحدهم قد أحدث خدوشاً في الطحالب ، ثم لإخفائها انتزع أجزاء من الطحالب المجاورة . نهض تيروكاتسو ، وطرق مرتين أو ثلاث مرات على سطح الحجر الأكثر انكشافاً ، فبدا من الصوت كما لو كان هناك فراغ وراء الحجر ، وقد أكد هذا بالطرق على الصخور الأخرى ، على سبيل المقارنة ، ثم لاحظ أن الأرض قد وُطئت ، وأن الأعشاب دهست ، كما لو كان أحدهم قد نقل الحجر ، ثم أعاده إلى موضعه ، ولما عثر على فراغ مناسب لدس أصابعه حاول قلقلة الحجر ، فإذا به ينزلق خارجاً ، فيما هو يجذبه . أحس تيروكاتسو بذهول شديد يتملك ناصيته ، فقد كان من اليسير نزع الحجر ؛ لأنه قلّص إلى أقل من نصف سمك الأحجار المجاورة له ، وألفى مقبضاً قد نُحت في خلفية الحجر ، طوله سبع أو ثماني بوصات ، بحيث

يمكن إعادته إلى موضعه ، من داخل السور . وبإزاحة الحجر من الطريق ، وجد أن للثغرة القائمة بالسور من السعة بحيث تسمح بدخول رأس رجل وكتفيه . تخلى عن سيفه الطويل ، وزرق خلال الفتحة ، تماماً على نحو ما يفعل المرء في طقوس التطهّر البوذية ، المعروفة باسم « اجتياز الرحم ». وما إن غدا في داخل الثغرة ، حتى وجد فراغاً يكفي للزحف قدماً ، وهكذا استردّ سيفه ، ثم أمسك بالمقبض بقوة ، وأعاد الحجر وراءه إلى موضعه . لفّه الظلام الحالك ، لكن النفق ، الذي سمح اتساعه بالزحف خلاله ، كان يمضي به إلى أعلى بصورة طبيعية . وفي بعض الأحيان كانت أرضية النفق تتحول إلى درج متحرر من الحجر . بدا له أنه قد شق طريقه زحفاً طوال آماد عبثية ، لم يكن بمقدوره أن يخمن ، على وجه الدقة ، كم من الأمتار ، بل كم من مئات الأمتار ، امتد هذا النفق ، ولكن في نهاية المطاف أفضى الممر ، الواقع تحت الأرض ، إلى حافة ممر رأسي ، يتقاطع معه بزاوية قائمة ، . أمسك بحصاة ، وألقاها في الممر الرأسي ، فألفاه شديد الغور ، وأدرك ، على نحو تقريبي ، أين هو الآن .

عند هذه النقطة ، آمل أن تغتفروا لي طرح موضوع شديد الغلاظة والخشونة ، هو تصميم المراحيض ، التي كانت السيدات الارستقراطيات تستخدمها ، في ذلك العهد . يقال إن سيدة شهيرة ، من سيدات بلاط يو شيوار ، أبدت رقتها ورهافتها بالتظاهر بالخلط بين خيط ينتظم قطعاً من العملات المعدنية وبين يرقانة فراشة ، ولكن السيدات اللاتي يولدن في رحاب عائلة ديميو لم يكنّ جاهلات بالنقود والعملات فحسب ، وإنما لم يسمحن لأحد ، ولا حتى لأنفسهن برؤية فضلاتهن قط . وقد تم تحقيق هذا الأمر الدقيق بحفر

بئر عميقة تحت المرحاض ، تطمر للأبد لدى وفاة السيدة النبيلة . ومن المؤكد أنه ليست هناك وسيلة أكثر رهافة للتخلص من الغائط ، ويدهش المرء من فخامة مرحاض ناي يون ـ لين ، الذي صُمّم على نحو يجعل الفضلات الصلبة الجافة المتساقطة فيه تلتهمها في التو أعداد لا تحصى من الفراشات المحلقة ، لكن ذلك لا يضارع الدماثة ، التي يعكسها الأسلوب الآخر ، الذي يحقق الغرض المطلوب ، دون السماح حتى للخادمات برؤية أي شيء . ثم هناك القصة التي تروى عن سيدة البلاط الهاينية الحسناء ، التي عذبت بالإدناء ثم الاقصاء خاطباً لودّها ، بأن أهدته نسخة من غائطها صنعت من فصوص الثوم . وقد جمع التكتم في هذا الخصوص بين السيدات النبيلات كافة . وبالمقابل فإن المرحاض الغيطي الحديث ، إذ يحقق متطلبات النظافة ومراعاة الجوانب الصحية ، إلا أنه يضع كل شيء أمام ناظريك ؛ ولذا فإنه ينبغي أن يقال إنّه ابتكار وضيع وبذيء ، لا بد أن مصممه نسي أن هناك شيئاً اسمه الذوق واللياقة في خلوة المرء بنفسه .

كانت هذه المراحيض قصراً على السيدات والفتيات الارستقراطيات ، ولما كانت البنت الصغيرة في القصر لا يتجاوز عمرها العامين ، فإن هذا النفق لم يكن يستخدمه إلا شخص واحد . وبتعبير آخر ، ألفى تيروكاتسو نفسه غائراً في الأرض تحت مرحاض الأميرة كيكيو مباشرة .

الكتاب الرابع

وفيه تلتقي الأميرة كيكيو بتيروكاتسو وتتام

لشدّ ما بدا بعيداً عن اللياقة ، بالنسبة لتيروكاتسو ، الذي قُدّر له أن يغدو أمير موساشي مرهوب الجانب والمحارب الجليل ، الذي نقلت لنا تلك اللوحة ملامحه ، أن يجثم كالخلد في نفق تحت مرحاض الأميرة كيكيو ، ولا شك أن تقطيبة علت ملامحه ، عندما تأمل الوضع الزري الذي ألفى نفسه فيه . ومهما كان قدر إعجابه بالأميرة ، فلا شك أنه سيسيء إلى كرامتها ، ويخدش كبرياءه اعتباره ساموراي ، إذا ما حاول الوصول إليها ، بالتسلل عبر هذا الطريق الجانبي المشين . وحتى بفرض قبول المتسلل لهذه العراقيل ، فكيف يصل إلى الأميرة كيكيو ، دون أن يثير الفزع في نفسها ؟ ولو أنه جعلها تصرخ من هول المفاجأة ، أو يغشى عليها ، لانتهت هذه الفرصة الفريدة بالفشل التام . لكن تيروكاتسو شجّعه تخمينه أن القناص ، بدوره ، قد استخدم هذا الممرّ القابع تحت الأرض . ولئن كان الأمر كذلك ، فإن الأميرة كيكيو قد اعتادت أن يثب الناس من مرحاضها ، ولن تعتبر ذلك بالضرورة أمراً غير لائق ، وعلى الأقل فإنها لن تكون من الاندفاع بحيث تصرخ طالبة النجدة ، لمجرد أن رجلاً قد ظهر لها على غير انتظار . وقد أجّج هذا الإدراك ، على وجه السرعة ، فضوله وحسّ المغامر القابع في أعماقه .

انتظر بعض الوقت دنوّ السيدة النبيلة في الأعالي ، ولكن لم

يستطع المكوث طويلاً ، عند حافة الثغرة ، واضطر للانسحاب سريعاً ، وقد خاب أمله . وفي حوالي الوقت ذاته من الأيام الثلاثة التالية ، تسلّل إلى قاعدة السور ، ودخل الممر القابع تحت الأرض ، وانتظر صابراً حوالي الساعة ، عند حافة النفق الرأسي . وفي نهاية المطاف ، كوفىء على جهوده الدائبة ، التي تحاكي إلى حد كبير الجولة الجهنمية في معبد زنكو ، وذلك في أصيل اليوم الثالث ، عندما تردد وقع خطى لينة على الأرضية ، في الأعالي ، واخترق شعاع واهن الظلام في الممر ، فأصدر صوتاً خفيفاً ليجتذب انتباهها .

هتف بأقصى قدر يستطيعه من الهدوء والليونة :

ـ مولاتي ، لطفاً منك ، فلديّ ما أقوله لك . أتسمحين لي بالمثول بين يديك ؟

توقّف في التو حفيف الحرير . خمّن أنها تجمدت في موضعها ، وراحت تصيخ السمع ، إلى جوار حافة الحفرة المطلية بالـلك الأسود ، حيث صدر صوته . اجتذب رسالة زوشو السرية من صدره .

قال ، ممسكاً بالرسالة حيث تستطيع أن تراها :

ـ الأمر خاص بهذه الرسالة ، ليس هناك ما تخشينه مني . أرجوك اسمحي لي !

أحدثت خطته التأثير المطلوب ، فقد ردّت بنعومة :

ـ لك أن تصعد .

كان النفق ، الذي استخدم غالباً لهذا الغرض ، مزوداً بمقابض مناسبة ، بحيث يستطيع المرء التسلّق ، دون أن تلطخه الفضلات ،

وبأقل مجهود ممكن ، ليصل إلى الغرفة ، وهكذا استطاع تيروكاتسو النهوض بنعومة عبر الحافة المطلية باللك الأسود ، والانحناء على الأرض أمامها ، دون اللجوء إلى أوضاع قد تمسّ شرفه أو تسيء إلى كرامتها . كان المشهد قريباً ، إلى حد كبير ، من ذلك المشهد في مسرحية « أشجار الكرز الألف »، حيث يظهر الثعلب في هيئة تادانوبو ، من أسفل دهليز في القصر ، وينحني أمام الأميرة شيزوكا .
وفي حقيقة الأمر ؛ أن الغرفة رغم كونها مرحاضاً (أحيطت بالأسوار والأبواب المزدوجة) إلا أنها كانت من السعة بحيث تستطيع الأميرة ، التي بدت مثل زهرة ضخمة في أرديتها الفضفاضة ، أن تتحرك فيها بحرية . وقد كسيت أرضيتها بالحصر المصنوعة من القشّ ، وأعطت الانطباع بالامتداد الصامت ، الذي يتوقعه المرء من غرفة في قصر . مذهولاً ، راح تيروكاتسو يلصق جبينه بالأرضية المكسوة بالحصر . أوحت له باقة البخور البديع ذات الرائحة الهفهافة بمزيد من الذهول والرهبة ، والهواء يضوع بها حوله ، فأحنى رأسه ، حتى لامس صدره . ربما كانت ملابس الأميرة مضمخة بعبق نوع نادر من البخور ، أو لعلها كانت رائحة صبّار يحترق وئيداً ، فقد كانت هناك نافذة صغيرة قرب رأسه ، وإن لم يستطع رؤيتها ، وعلى الرف القريب من النافذة كانت هناك مبخرة ذات لون أخضر شاهب .

ـ من أنت ؟

ـ إنني تيروكاتسو ، نائب حاكم كاواتشي ، الابن الأكبر لكيريو تيروكوني ، أمير موساشي .

لدى حديثه ، أصدر النسيج السميك ، الذي حيكت منه ملابسها ، التي كان أسفلها يمتدّ ويعلو في طيّات ثقيلة ، على بعد

قدمين أو ثلاثة من وجهه ، حفيفاً ليناً ، فيما الأميرة تتراجع خطوة إلى الوراء ، وقد استبدّت بها الدهشة .

ـ أتقول إنك تيروكاتسو ؟

ـ أجل ، يا مولاتي !

ـ ارفع وجهك !

رفع الساموراي الشاب رأسه ، في إجلال ، وحدق للمرة الأولى في المرأة ، التي كانت مناط أشواقه . وفي أفضل الأحوال ، فإن من الطبيعي ألا يستطيع المرء التحديق في وجه شخصية بارزة ، دع جانباً أن يتمكن ذلك الشاب، الذي لم تحنكه التجارب من القيام بذلك ، عندما يجد نفسه وجهاً لوجه مع المرأة ، التي عشقها حد التبتل من بعيد . لا تخترق أشعة الشمس طريقها أبداً إلى الغرف المعتمة الموجودة خلف القصور ، ولم يكن يضيء غرفة المرحاض إلا ضوء واهن ينسل إلى الداخل ، في ذلك الأصيل الخريفي ، عبر النافذة الورقية ، بدا محيا الأميرة ، فيما هو يمعن النظر فيه ، عبر عتمة الشفق ، غائماً ، ربما كالشبح الذي رسم صورته في ذهنه . أما فيما يتعلق بباقي التفاصيل فلسوف يتعين عليه أن يتخيل مدى رشاقتها وليونتها ، على أساس محياها الأبيض دونما توهج . كان كل ما استطاع تبيّنه بوضوح هو الزخارف المطرزة على أثوابها بخيوط الذهب ورقائقه ، التي تتألق كأفضل ما تكون في الأماكن المعتمة . وإذ رآها تقف وإحدى يديها ممسكة في خدر بمقبض خنجرها ، أحنى رأسه من جديد ، بمزيد من التوقير .

ـ إنك تيروكاتسو حقاً .

قالتها ، كأنما تحدّث نفسها . لم يكن تيروكاتسو قد رآها من قبل ، لكنها شاهدته كثيراً ، فقد كانت نساء الطبقة العليا ، في ذلك

العهد ، ينطلقن محمولات في هوادج ، عندما يمضين إلى خارج دورهن ، أو يحكمن إسدال نقاب كثيف على وجوههن . وفي دورهن كن يحتجبن على الدوام وراء ستائر ومصاريع خيزرانية ، من هنا لم تكن هناك إمكانية لأن يرى الأتباع محياها ، ولكنها كانت حرة في التطلع إلى وجوههم .

في مآدب استهلال الفصول والعروض المسرحية والجولات والحفلات الغنائية ، من المحقق أن الأميرة كيكيو قد لاحظت كثيراً طلعة وقوام الشاب الواعد ، في صفوف الاتباع . ولا بد أن وصيفاتها قد همسن لها ، فيما هي تتطلع عبر مصاريعها الخيزرانية : « ذلك هو تيروكاتسو ، الذي طارت شهرته محدّثة عن شجاعته » . وقد توقع تيروكاتسو ذلك مسبقاً ، لكن ما قالته أشعره بالاعتداد البالغ بنفسه ، وزادت معرفته بأنها تذكّرته من شعوره العميق بالامتنان لهذا اللقاء الأول .

ـ إذا سمحت لي ، فقد جئت إلى هنا حليفاً لك !

حينما لمح التساؤل الصامت في عينيها ، كان همه الأول هو اكتساب ثقتها . فواصل حديثه ، في لهفة وانفعال :

ـ حليفك . . . إني حليفك . أرجوك أن تعهدي لي بالمهمة المتضمنة في هذه الرسالة ، بواجبات ماتوبا زوشو !

عندما أتى على ذكر ماتوبا زوشو ندّت « آه » مرتجفة من شفتيها ، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها .

ـ أرني الرسالة !

قالتها بأقصى ما في وسعها من الرقة والليونة . فرفعها إليها تيروكاتسو ، كأنه يقدم لها التماساً ، حولت الرسالة إلى الضوء

الواهن المتناهي من النافذة ، وفحصتها على عجل ، ودسّتها في صدرها .

ـ من أين حصلت عليها ؟

ـ كنت أنا من قتل ماتوبا زوشو ، في خريف العام الماضي ، في معركة قلعة تسوكيجاتا ؛ فقد ظننت أنه يحاول قتل الأمير ببندقيته ، وبعد أن احتززت رأسه ، فتّشته ، فعثرت على الرسالة داخل كيس ثمين ، وكانت القوات منهمكة في معركة ضارية ، في ذلك الوقت ، فلم يدر أحد غيري بهذا الأمر .

ـ ولماذا . . .

شرعت في التساؤل ، ولكنها لم تدر ما عساها تقول ، فكفّت عن الحديث ، وحدقت في تيروكاتسو للحظة . إن من شأنه أن يكون عدواً لا يستهان به ، ولكن هوذا يعفّر جبينه بالتراب عند قدميها ، متوسلاً لها أن تقبله حليفاً . لا يمكن أن يكون هناك حظ أفضل من هذا ، ولكنها لم تستطع فهم ما يدفع هذا الشاب لنسيان التزاماته حيال آل تسوكوما ، وأن يكرس نفسه لخدمتها ، هي التي لا تربطه بها أي روابط على الإطلاق . بيد أنها لم يكن بمقدورها التشكك في حسن نواياه ، حينما أمعنت التفكير في الحقيقة القائلة بأنه لم يكشف أمر الرسالة السرية قط . كان ذلك العصر زمناً لجأ فيه الناس إلى أشد المخططات يأساً للإيقاع بأعدائهم ، فعليها بالتزام الحذر ، ولكن لو أنه كان يعتزم فضح جرمها فلماذا يتخلى عن حذره بحيث يسلم لها هذا الدليل الذي لا سبيل إلى تفنيده ؟ لقد تركها تفعل ما يحلو لها بالرسالة ، وبدا بالغ الذهول ، وذلك ليس بموقف الرجل الذي يتآمر ضدها .

ـ أرجوك ، ألقي نظرة على هذا !

قالها تيروكاتسو ، بعد أن أدرك أن حـذرها منـه لا يوشـك على التقلص ، واستخـرج من صدره كيسـاً صغيـراً مقصبـاً ، ورفعـه في إجلال إلى رأسه .

ـ هذه أيقونة كان زوشو يحملها مع الرسالة ، تحت درعه ، وقد حفظتها معي ، منذ ذلك الحين كإيماء إلى أنني ، رغم عدم جدارتي بذلك ، سوف أضطلع بهذه المهمة .

قالها تيروكاتسو ، وفي غمار حماسته فتح الكيس ، خلال حديثه وأوشك على إخراج الأيقونة .

ـ ها هنا !

قالتها محتدّة ، ولتذكره بأنهما ليسا في مـوضع طـاهر ، راحت توجه إليه بعينها سهام اللوم ، وأومأت مانعة إياه من القيام بأي عمل يدنس الأيقونة ، ولكن لا بد أن حماسه قد أثّر فيها .

ـ ولِمَ ترغب في أن تغدو حليفي ؟

قالتها متجهّمة ، وإن وشّت الرقة صوتها .

ـ لديّ ، يا مولاتي ، شيء آخر أقدّمه لك .

ودون أن يـردّ على سؤالها ، دسّ يـده في صدره من جـديـد ، واستخرج كيساً مطرّزاً بالذهب ، يضم حُـقّاً صغيراً ، ودفعه بإجـلال إلى الأميرة . أضاف :

ـ داخل هذا الكيس تذكار من أبيك ، الأمير ماساتاكا ، أرجو أن تتقبّليه !

سألته ، كأنما هي عاجزة عن تصديق ما تسمعه أذناها :

ـ ماذا ؟ تذكار من أبي ؟

ـ نعم ، يا مولاتي !

رد تيروكاتسو تواً ، رافعاً الكيس عالياً بكلتا يديه ، وأحنى رأسه بعمق ، مستطرداً :

ـ أعتقد أن شيئاً ثميناً قد فُقد ، على نحو يثير أشد الاستنكار ، من جثمان الأمير ماساتاكا .

ـ أترمي إلى القول بأن هذا الشيء موجود في هذا الكيس ؟

ـ أجل ، يا مولاتي !

وقفت أمام تيروكاتسو في أثواب يفوق حجمها ثلاثة أمثال حجم أثوابه ، متّمايلة في رشاقة ، كأنها نبات الفاوانيا ، الذي يميل ويتساقط ، ثم تردّد حفيف حادّ للحرير ، كأنه زفيف الريح ، خلال أشجار الصنوبر ، على قمة جبلية . عندما سمعت رد تيروكاتسو ، ضمت كفيها ضاغطة في إجلال أمام الجسم ، الذي كان يمسك به ، وجثت على ركبتيها .

شرعت في الحديث ، بعد لحظة سادها الصمت ، متخلّية عن تحفظها السابق ، وبأرق ما في صوتها من رنين أنثوي :

ـ تيروكاتسو من أين حصلت على تذكار والدي هذا ؟

ـ عندما حاصر الأمير ماساتاكا هذه القلعة ، شدد الهجوم حتى بلغ الحصن الثالث ثم الثاني ، وكانت القلعة توشك على السقوط حينما استدعى السيد الراحل إيكانساي جاسوساً في السر ، وأمره بأن يصرع ماساتاكا تحت جنح الليل ، ولم يسمع ذلك أحد سواي .

ندّت عنها تنهيدة حرّى ، وهي تقول :

ـ إذن ، فقد كان الأمر على نحو ما ظننت تماماً .

قالت ، فجأة ، مهتاجة ، وهي تنحني إلى الأمام :

ـ قلت إنك كنت الوحيد الذي سمعه ؟

ـ ذلك صحيح . كنت في الثانية عشرة من عمري ، في ذلك الوقت ، وخلال اجتيازي الدهليز قرب مكتب السيد الراحل ، سمعته قائلاً : «إذا لم يتح لك الوقت لتحتزّ رأسه ، ففي الأنف الكفاية » . كنت أعرف أن ذلك خطأ من جانبي ، لكن كلماته كانت بالغة الغرابة ، فوقفت في موضعي ، ثم سمعته يقول : «اتفقنا ؟ الأنف فقط ، إذا اقتضت الضرورة . فحتى إن لم تقتله ، فإن ذلك الغندور سيسحب قواته يقيناً ، وينطلق هارباً ، إذا ما فقد أنفه »، ثم ضحك بصوت خافت « ها ، ها » . كان يمكن للقلعة أن تسقط في أي لحظة ، وربما لم يكن أمامه خيار ، لكن إرسال جاسوس لاحتزاز رأس قائد الأعداء ، فيما هو غافٍ ، دع جانباً إصدار تعليمات له ببتر أنف ذلك القائد ، لم يبد لي عملاً يليق بالسيد ، الذي كنا نعرفه جميعاً ، ولا بد أنه كان يشعر بالعار من سماع أحد له ، وهو يقول ذلك ، حيث أنه بمجرد تنفيذ الخطة وعودة الجاسوس إلى القلعة ، قتله الأمير إيكانساي ، وألقى بجثته في العراء ، دون أن يبلّغ أحداً بالسبب . وقد كان هذا التذكار في صدر ذلك الرجل .

فيما هو يتحدث ، رأى قطرات ندية تتجمع بين أهداب الأميرة الطويلة ، التي لم تكن تبعد الآن عنه إلا مقدار قدم أو قدمين فحسب ، وتتحدر على خديها الأبيضين ، الاسيلين . وبوجود هذا الحسن الجدير بالإشفاق أمامه استجمع تدريجياً رباطة جأشه لإعمال خياله وبلاغته إلى أقصى حدودهما ، ذلك أنه كان قد عكف طوال يومين أو ثلاثة أيام جاهداً على وضع الخطوط العريضة لقصةٍ يمكن أن تقتنع بها ، بل لقد بلغ الاقناع حداً تأثر هو نفسه معه من السياق المحتمل لتفسيره للأمر .

ـ وعلى الرغم من أنني لم أكن إلا طفلاً ، فقد استبد بي الحنق ،

حينما اختلست السمع إلى الخطة السرية التي أعدهـا السيد ، لم يكن ذلك هو السلوك الذي أتوقعه من ساموراي . ومن ناحية أخرى ، فقد أشفقت على الجاسوس الذي لقي حتفه ، وأحسب أنني في اليوم التالي مضيت إلى الوادي الواقع بين التلال خلف حرم القلعة لأشاهد جثمانه . وأخيراً ، عثرت عليه بين أكوام القتلى . رحت أحدث نفسي بأنه ربما يحمل برهاناً ما على فعلته ، وهكذا ، فقد قمت بتفتيش ثيابه . وهذا التذكار هو ما عثرت عليه ، وربما كان السيد قد قرر أنه لا جدوى منه ، وتخلص منه مع الجثة . ولكني اعتقدت أنه من الخطأ معاملة تذكار من قائد عام دون الإجلال الذي يستحقه ، حتى ولو كان قائداً للعدو . ومن حسن طالعي باعتباري ساموراي أنه من خلال قدر عجائبي وصل هذا التذكار إلى يدي . وكائناً ما كان ما يعتقده السيد الراحل ، فإنني يتعين علي القيام بما ينبغي لساموراي ؛ وهكذا فقد عدت به إلى مخدعي ، وحفظته في حبر أحمر ، وحرصت عليه حتى الآن ، على أمل أن يأتي يوم تتاح فيه الفرصة لإعادته إلى عائلة ياكوشيجي . هكذا ، يا مولاتي ، وصل إليّ هذا التذكار .

ـ إنك شديد الرقة والعطف يا تيروكاتسو !

قالتها الأميرة بامتنان غير متكلف ، ووضعت يديها على أرضية غرفة المرحاض ، وتهدل شعرها الفاحم المسترسل منساباً على محياها النيّر ، وانحنت للشاب . أضافت :

ـ لقد سمعت عن شجاعتك الخارقة ، لكني لم اعتقد أبداً أن شاباً مثلك يمكن أن يكون على مثل هذا القدر من التعقل والحكمة . وقد أحسنت بتفهمك لموقفنا ، وبوسعك ، إذن ، أن تدرك طبيعة مشاعري .

ـ نعم ، يا مولاتي ، بتواضع شديد أستطيع إدراكها .

ـ لقد ولدت لعائلة من الساموراي . وأعلم أني قد أفقد أفراد عائلتي ، في أية لحظة ، وعلى الرغم من أني لست إلا امرأة ، فقد وطنت النفس على احتمال هذا . ولو أن أبي لقي حتفه في ميدان القتال ، لكان بمقدوري تقبل هذه الخسارة باستسلام . ولكني باعتباري ابنته كيف يسعني نسيان الطريقة التي صُرع بها ـ كأنها عمل لص خسيس ـ والتمثيل الصارخ الذي لحق به؟ إنك تعرف أن ليس بمقدوري ذلك . لقد قالوا لي إنه مات حتف أنفه ، وصدقتهم ، ولكن لما حظر أخي وأمي عليّ أن أرى وجهه ، توسلت سراً لمربّيتي لتجعلني أراه ، وفي نهاية الأمر ضاقت ذرعاً بتوسلي ، واستسلمت لإلحافي . قالت : « ليكن ! لسوف أدعك ترينه ، ولكن أباك لم يمت من جراء المرض ، ولسوف يبدو مظهره مختلفاً ، فتجلّدي ! » . كررت هذا التحذير مرات عديدة ، ومضت بي خلسة لأراه . بل إنك لتشعر بالانزعاج لمجرد سماعك بالأمر ، على الرغم من أن صلة الدم لا تربطك به . لشد ما كان الأمر مريراً بالنسبة لي ! مضت بي مربيتي ، في عماء الليل ، وكنا وحيدتين داخل المصاريع الخيزرانية لقاعة الاستقبال ، حيث سجي جثمانه . رأيت وجه أبي المسكين ، تحت ضوء المصباح ، الذي أمسكته مربيتي لي ، فارتج عليّ ، ما كان بوسعي إلا أن أدفع بوجهي إلى صدرها ، وجسمي يرتعش .

وإذا اكتسبها تعاطف تيروكاتسو وإخلاصه ، راحت تصب مشاعرها الدفينة صباً .

تواصل كشفها عن مشاعرها طويلاً ، ولكنها ربما لم ترفع النقاب عنها جميعها في لقائهما الأول ، ويبدو من المحتمل أنهما التقيا في الموضع ذاته بصورة دورية على امتداد اليومين أو الأيام الثلاثة التي

أعقبت ذلك، وأن قصتها تكاملت في بروزها ، فيما هما يتبادلان الحديث . وبحسب ما جاء في الصورة التي رسمها كتاب : « اعترافات دوامي » ، فقد كانت هناك غرفة أمامية بين غرفة المرحاض والدهليز ، وباب خشب عند كل فاصل ، بحيث لا يُسمع في الخارج الحوار الذي يدور داخل الغرفة . وبالطبع ، كانت وصيفة تقف في الغرفة الأمامية أو الدهليز الذي يليها ، وكانت على الدوام هارو ، الأخت الصغرى لماتوبا زوشين ، هي التي ترافق الأميرة في ذهابها إلى المرحاض ، ولربما تذكرون أن مربية الأميرة ، كانت أم ماتوبا زوشين ، وعندما تزوجت الأميرة من سليل آل تسوكوما ، أحضرت معها مربيتها وهارو .

ومع اطّراد مسيرة القصة ، ستتعرفون إحدى خصائص الأمير موساشي ، فأيا كان مدى استثارته وانغماسه البادي في شهوته الشاذة ، إلا أن ميلاً غريباً وغريزياً للحفاظ على الذات يمور على الدوام في قرارة ضميره ، وعلاوة على ذلك ، فإنه إذ واكب حسن الحظ وقاد خطاه ، على نحو متواصل ، فإنه في بعض الأحيان يستخدم كل شيء ، بما في ذلك نقطة ضعفه ، كوسيلة للقضاء على أعدائه . وفي نهاية المطاف، فإن اللذة المازوكية هي شكل من أشكال اللذة ، وبالتالي فإنها تتضمن بوضوح عنصراً من عناصر الاهتمام بالذات ، ولكن هناك على الدوام الخطر المتمثل في أن شخصاً مصاباً بهذا الارتكاس سيمضي إلى أبعد مما ينبغي ، فيحل الدمار بساحته . غير أن أمير موساشي ، حتى وهو ينطلق وراء لذته المكنونة الفريدة ، كان قادراً على التوغل على نحو مباشر في الأراضي المحيطة به وتوسيع نطاق الأراضي التي يحكمها ، وفي بعض الأحيان ، ينغمس حتى الأذان ، فيجتذب حتى حافة الكارثة ، لكنه لا ينسى أبداً أن يجتذب نفسه بعيداً ، قبل أن يخطو الخطوة

الأخيـرة ، التي تقوده إلى دمـاره . والعمليـة التي من خـلالهـا فـاز بالحظوة لدى الأميرة كيكيو ، بنسيج بليغ من الحقائق والأكـاذيب ، هي تجسيـد لهذه الخـاصّية . ويبـدو من المشكوك فيـه ، إلى حـد بعيد ، أن الجسم الذي قدمه لها هو « تذكار من الأمير ماساتاكا » في لقائهما الأول كان بالفعل أنف ياكـو شيجي دانجو مـاساتـاكا ، على الإطـلاق ، فحتى لـو أن الصبي هـو شيمـارو ذا الاثني عشـر ربيعـاً استطاع الحفاظ على أنف ماساتاكا ، فإنه مـا كان بمقـدوره أن يتنبأ مسبقاً بما يقـع الآن ، وهكذا فـإنه من غيـر المتصور أنـه قد احتفظ بقـطعة اللحم تلك لمـدة ست سنوات . ولـربما حـذا تيروكـا تسـو الحـاذق حذو مـونجاكـو ، ذلك الكـاهن المنتمي إلى القرن الثـاني عشر ، الذي التقط بصـورة عشوائيـة جمجمة ، وقـدمها ليـوريتومـو باعتبارها جمجمة أبيه يو سيتومو . وربما قام تيـروكاتسـو بقطع أنف إحـدى الجثث المتناثـرة غير بعيـد عن القلعة ، واستخـدمهـا كـأداة لتأجيج كراهية وعداء الأميرة كيكيو لزوجهـا وعشيرتـه . وفيما يتعلق بجمجمة ، فإنـه لا فارق بين جمجمـة أحد غمـار الناس وجمجمـة يو شيتومو . وبالمثل ، فما من أحد يمكنه القول بما إذا كانت قطعة من أنف قـد اجتثت من جنرال أو من جنـدي عـادي . وفي حقيقـة الأمر ، فبما أنه حفظ قطعـة اللحم في الحبر الأحمـر ، فإنهـا قد لا تكون أنفاً على الإطلاق ، فكل كتلة لينة لها الشكل الخارجي ذاته ، على وجه التقريب ، ستؤدي الغرض منها . ولكنه سيكون من قبيـل الفجاجة أن ندلي بالمزيد من التكهنات عما يمكن أن تكون عليه تلك القطعة المحفوظة في الحُقّ . فلنكتف إذن بالقول بأنه حتى رجل في مكانة يو ريتومو قد خال عليه الأمر، حينما قُدّم له تذكارٌ من أبيه. فالأمر يعود إلى الطبيعة البشرية وحدها، وهكذا فليس من العجيب أن الأميرة كيكيو خضعت لرقية سحرية ، عندما رأت الكيس الغامض المقصب بالذهب .

ويختلف كتابا « اعترافات دوامي » و « حلم ليلة » في آرائهما في الأميرة كيكيو ، على نحو ما قلت ، ولكن فيما يتعلق بدوافعها للإعداد للتمثيل بزوجها فإن الصورة الواردة في « حلم ليلة » تبدو طبيعية وعميقة الغور . وبحسب ما جاء في هذه الصورة ، فإن الأميرة بعد اصطحاب مربيتها لها لرؤية ماساتاكا ، تألق وجهه مبتور الأنف أمام عينيها ، ليلة بعد الأخرى ، وعذبتها رؤية استحواذية قاسية لأبيها ، ولما يدركه الموت كل الإدراك في العالم الآخر . وبتعبير آخر ، فقد اعتقدت أن أباها الصريع يهيم في الفراغ ، عاجزاً عن تحقيق رغبته في رحيل سلس إلى عالم الخلود ؛ لأنه فقد أنفه . وبالنسبة لها كان هذا مصدراً لحزن لا يطاق على وجه التقريب ، فبعد موته المأساوي ينبغي ، على الأقل ، أن يولد من جديد في « الأرض الغربية الطاهرة » ، ولكنه بعيد كل البعد عن هذا ؛ لأنه لا يزال يشعر بارتباط متأجج بهذا العالم ، حيث خلف شيئاً ثميناً وراءه ؛ ومن هنا فلا سبيل أمامه لأن يرقد في سلام . ولم يهدأ لها بال حيال فكرة أن أباها المسكين لم يقتل غيلة فحسب ، وإنما أرغم على احتمال هذا العذاب . وفي كل ليلة راح يتراءى لها في أحلامها إلى جوار وسادتها ، ضاغطاً بكفه على منتصف وجهه . وكان بمقدورها سماعه يصرخ مراراً وتكراراً : « أريد أنفي . . . أعيدي إليّ أنفي رجاءً ! » . وخلاصة القول إنها ما كانت لتغفو هادئة ، إلا بعد أن تعثر بشكل ما على أنف أبيها ، وتمحو وجه الموت الرهيب هذا من ذاكرتها . قالت لتيروكاتسو :

ـ ألقيت باللوم على مربيتي ؛ فمهما كان مدى إلحاحي عليها ، إلا أنها لم يكن ينبغي لها أبداً أن تدعني أراه ، في الوقت الذي بذل فيه أخي وأمي قصارى جهدهما للحيلولة دون ذلك ، لربما كانت وفّرت عليّ كل هذا العذاب .

حقاً ، كان من قبيل الحمق من المربية أن تدع فتاة في الثالثة عشرة من عمرها تقع عيناها على مثل هذا الشيء . ويبدو حزن الأميرة منطقياً ومؤثراً في آن . لكنها رأته ، ولا مهرب من هذه الحقيقة ؛ ولذا فإنها ستعثر له على أنفه ، لكن تلك كانت مهمة مستحيلة ، ثم أتاحت لها المصالحة بين عشيرتي ياكو شيجي وتسوكوما وزواجها من نوريشيجي ، على صورة غير متوقعة ، فرصة منح العزاء لروح أبيها ، والتخفيف مما تشعر به هي من عذاب .

كان أخوها ماساهايد قد استحثها على القبول بالزواج ، قائلاً : « لقد مات أبي من جراء المرض ، كما تعلمين ؛ ومن هنا فليس هناك سبب يدعونا لأن نكنّ الضغائن لعائلة تسوكوما . دعينا لا نسيء فهم هذه النقطة ! » . وفي ضوء وضع المرأة ، في ذلك العهد ، لم يكن لها الحق في الاعتراض على زواج سياسي رتّبه كبير العائلة ، وخاصة في ضوء تأييد الحكومة العسكرية لهذا الزواج . وهكذا ، من أجل عائلتها ووطنها ما كان يمكن إلا أن تضحي بنفسها ، وتخضع بصورة عمياء للقرارات ، التي أمليت عليها . ورغم ذلك ، فقد كانت تعتقد أن أخاها قد افتقر للروح الحقيقية ، بإظهاره هذا القدر الضئيل من الغضب والرفض حيال مصرع أبيهما . وكان ما ساهايد يميل إلى تسوية الأمور ، على نحو ودي ، ففي نهاية المطاف لم يكن هناك أحد على يقين من هوية قاتل ماساتاكا ، ومن شأن الإعلان عن الأمر ألا يكون شيئاً مشرفاً لذكرى أبيهما ، لكنها لم تكن تؤمن بصحة تقدير أخيها . وفي حقيقة الأمر أن ماساهايد كان أكثر وهناً وتخاذلاً مما كان أبوه ماساتاكا ، ولم ينقض وقت طويل إلا وقام أحد رجال الحاشية ، ويدعى بابا ، بالسيطرة على منطقته ، فعاش ماساهايد مكللاً بالعار ، بعد فقده السيطرة على عشيرته وأملاكه ، وراح يضرب

ضائعاً في طول البلاد وعرضها . وعلى الرغم من أن الأميرة كيكيو تظاهرت بأنها لا علم لها بملابسات مصرع أبيها ، إلا أنها كانت لها أفكارها حول هذا الموضوع ، التي تختلف تماماً عن أفكار أخيها ، وكانت على يقين منذ اللحظة التي رأت فيها وجه أبيها ، الذي وسمه الموت بميسمه ، أنه لقي مصرعه في إطار مكيدة كادها الأعداء ، فقد قتل ، في نهاية المطاف ، في معسكر خلال حرب ، وتدل حقيقة أن قاتله انتزع أنفه بدلاً من رأسه ببلاغة ، تفوق أي شيء آخر ، على أن العمل كان من تنفيذ عميل للعدو ، أما النظر إليه باعتباره من عمل لص أو نتيجة لضغينة شخصية فلا يعدو أن يكون رفضاً متخاذلاً لمواجهة الحقائق . وكانت على يقين من أنها على صواب ، لكنها عندما أدركت أن باقي العشيرة وأمها وأخاها وكبار رجال الحاشية لم يأخذوا الأمر بجدية ، اعتقدت أن أباها لن يعرف السلام أبداً ، فازدادت غماً على غم . ولبعض الوقت ، عذبها البحث عن سبل لإبعاد ذهنها عن هذا الشعور الشديد بالحزن ، ثم خطر ببالها فجأة أن تستغل زواجها من سليل عشيرة تسوكوما ، وأن تدفع بايكانساي وولده إلى المصير ذاته الذي حاق بأبيها .

قالت إن مرأى الأنوف المقبولة على وجهي حميها إيكانساي وزوجها نوريشيجي ملأ نفسها بالإشفاق على أبيها ، وربما أغضبها أن ترى أنفاً في وجه أي شخص ، ولا بد أن حقيقة كونها تحظى بوجود أنف في وجهها قد قرّعت ضميرها ، وربما اعتقدت أنه لا سبيل إلى تخليص أبيها من بؤسه تماماً إلا إذا فقد البشر كافة في الدنيا بأسرها أنوفهم . كانت عروساً في الخامسة عشرة من عمرها ، في ذلك الوقت ، ليس لها من العمر ولا من التجربة ما يجعلها تتطلع إلى شيء طموح ، كالقضاء على عشيرة تسوكوما ، ومن هنا فإن

الخطة التي وضعتها كانت بسيطة وصبيانية ، إلى حد كبير . وخلاصة القول إنها قد هيمنت عليها فكرة أن شبح أبيها سينسى غضبه ، وإنها ستتخلص من حزنها إذا أطاحت بأنف حميها أو زوجها ، بدلاً من كل البشر في الدنيا ؛ وبناء على ذلك فإن هدفها المباشر تمثل في أنفيهما ، وليس في حياتيهما ، أما إذا فقد ضحيتها حياته ، جنباً إلى جنب مع أنفه ، فليكن ما يكون ، لكنها تؤثر أن تدعه يحيا لبعض الوقت دون أنفه ؛ ليكون بمقدورها تأكيد بؤسه وتملّيه وعرضه على الملأ ، يسخر الناس منه . ذلك هو أساس التصور الذي تم التعبير عنه في كتاب « اعترافات دوامي » ، والقائل بأنها كانت سادية بفطرتها . ولكن كتاب « حلم ليلة » يقول إنها أدلت بالاعتراف التالي لتيروكاتسو :

« قالت الأميرة كيكيو ، والدمع يتخلل حديثها : أهناك في الدنيا من ساء طالعه مثلي ؛ فعلى الرغم من أنني ابنة عدوّه ، إلا أنه زوجي ، ولست أحمل كراهية له . أيّ رابطة بحياة سابقة تلك التي دفعتني إلى التخطيط لهذا الانتقام الرهيب ؟! على أي حال ، فإنني على يقين من أنني سأبعث في الجحيم ، ذلك أنني سمعت أن النساء مخلوقات خاطئة . ولكن فلتكن الآلهة وبوذا شهودي على أن هذا الانتقام يمضي قدماً ، خلافاً لما أكنه في قرارة قلبي ، ويستمد إلهامه من ذلك الوهم المتعلق بأبي القابع في صدري ، والذي لا يفتأ يوسوس لي » .

ما كان يمكن إلا بتثبيت وجه إيكانساي أو نوريشيجي المجرد من الأنف أمام عينيها ، حتى تشعر بالرضا تماماً ، وليس بمجرد قتله ، أن تستطيع إزاحة الكابوس الرهيب ، الذي راح يطاردها في رقادها كل ليلة . ويوضح سلوكها بعد سقوط عشيرة تسوكوما أنها ليست

المرأة التي تستمتع بتشويه زوجها ، دونما سبب . لقد قالت لنفسها : « على الرغم من أنني ابنة عدوّه ،إلا أنه زوجي » ويبدو أنه صحيح أنها في أعماق قلبها كانت تحب زوجها ، الذي مثلت به ، وتشفق عليه ؛ من هنا فإن حياتها يمكن النظر إليها باعتبارها صراعاً لا ينتهي لمحو ذكرى وجه أبيها الميت ، وهي الغاية التي ضحت على مذبحها بزوجها وطفليها وبنفسها .

كانت مربية الأميرة كيكيو ، زوجة ماتوبا سايمون ، وتدعى كايدي ، هي أول من علم بخطتها . ولا شك أن كايدي صعقت ، عندما كشفت لها الأميرة عن مخططها ، لكنها كانت مسؤولة عن عرض وجه أبيها الميت عليها ، في المقام الأول ، ولم تستطع الاحتجاج بحدة بالغة على هذا التطور الجديد . ومع مرور الوقت ، أصبحت تتعاطف مع سيدتها ، واجتذبت إلى المؤامرة . ويبدو أن زوجها ماتوبا سايمون لم يكن ضالعاً في الأمر ، وقد توفي لأسباب طبيعية ، في وقت زفاف الأميرة كيكيو . وهكذا فإن الأرملة كايدي صحبت ابنتها هارو ، ومضت إلى جبل أوجيكا ، لتكون وصيفة العروس ، ثم تدريجياً دفعت بأبنائها إلى المشاركة في المؤامرة . والتفاصيل ليست معروفة ، ولكن من المؤكد أن كايدي وابنتها هارو في الداخل وابنها ماتوبا زوشو في الخارج تآمروا معاً للمساعدة في تحقيق انتقام الأميرة كيكيو . وفي البداية ، عكف زوشو على محاولة الإطاحة بأنف إيكانساي ، ثم حينما لم يوفق في هذا ، سعى للإطاحة بأنف نوريشيجي ، في معركة قلعة تسوكيجاتا ، حيث قضى عليه تيروكاتسو ، في نهاية المطاف ، دون أن يتحقق أي من الهدفين . من الذي شرم شفة نوريشيجي في حديقة القلعة وأطاح بأذنه ؟ يسجل كتاب « اعترافات دوامي » و « حلم ليلة » أن زوشو له أخ أصغر يدعى

ماتوبا دايسوكي حذا حذوه . وبالتواطؤ مع أمه كايدي ، تم حمله ، مع حفار متخصص في حفر الخنادق ، إلى داخل القصر ، في صندوق ضخم . ومن غير الواضح ما الذي حل بهما. وقد نفترض أن الحفار ، بعد أن فرغ من النفق ، الذي اكتشفه تيروكاتسو ، قد قتل ، وألقيت جثته في قاع النفق الرأسي ، فامتصته الأرض إلى الأبد مع فضلات الأميرة . ما الذي جرى لدايسوكي ؟ ربما استحال عليه ، بالنظر إلى المراقبة الصارمة بعد حادثة حفل مشاهدة تفتح الكرز ، أن يختبىء من جديد في الصندوق الضخم ويلوذ بالهرب دون لفت الأنظار . والأمر على العكس من ذلك ؛ إذ يقال لنا إنه منذ الحادثة الأولى وحتى الحادثة الثانية ، وخلال الأشهر الأربعة التي انقضت بين شرم شفة نوريشيجي وبترأذنه، كان دايسوكي يرقد ملتفاً حول نفسه داخل تجويف يشبه الكهف ، حفر خصيصاً قرب قمة النفق الرأسي . ولم يضع قدمه قط خارج عالمه المظلم ذاك ، الذي عاش فيه على كرات الأرز ، التي قدمتها له الأميرة وأمه . ومنذ أقدم العصور ، كانت هناك أمثلة عديدة لرجال ضحوا بأنفسهم من أجل سادتهم أو آبائهم أو إخوتهم ، ولكن من المستحيل وجود كثيرين تحملوا الشدائد التي اجتازها دايسوكي ، وهو معزول طوال أربعة أشهر تحت مرحاض . ويتعين على القارىء ألا يخلط بين سلوك دايسوكي وبين السلوك المخزي لشخص منحرف أو مجنون جنسياً ، فقد كان دافعه هو الولاء الصريح للأميرة والوفاء لأمه . ولربما عندما أدرك هذا الشاب المخلص الشجاع أنه قد حقق مهمته بقدر ما يستطيع ، ارتمى على سيفه ، ودفع بجسمه إلى رحاب الظلام ذاته ، الذي تلقى الحفار ، وغاص في قبره . وبما أن تيروكاتسو لم يلتق به ، حينما عبر النفق ، فلا بدأنه كان قد انتحر بالفعل .

ولكن ما الذي فعلته الأميرة كيكيو مع تيروكاتسو ، ذلك

المحارب الشاب ، غريب الأطوار ، الذي عرض عليها أن يخدمها بدلاً من دايسوكي ؟ إن الساموراي لا يشارك فرسان الغرب في مفهومهم عن الفروسية ، الذي يحترم الرجل بمقتضاه امرأة أرستقراطية ، ويعتبر أنه شرف له أن يضحي بحياته من أجلها . وهكذا ، فإنه بينما كان من الطبيعي بالنسبة للأميرة كيكيو أن تتآمر للانتقام من حميها وزوجها ، لم يكن هناك سبب يدفع تيروكاتسو لمشاركتها فيما هي عاكفة عليه . وقد يعزى إلى طيبة القلب والأريحية تعاطفه مع أبيها ، وحنقه حيال حيلة إيكانساي الخسيسة ، التي لا تليق بساموراي ، مما دفعه إلى المحافظة على الأنف وتسليمه لها . وكان بمقدورها أن تتقبل هذا القدر بامتنان . ولكن عرضه القيام بمساعدتها ، في تحقيق انتقامها ، الذي لم يكتمل ، كان يتجاوز بوضوح حدود الأريحية وطيبة القلب ، وما كان بمقدور الأميرة كيكيو أن تعلم بأن ما يحركه لا يعدو أن يكون رغبات مرتكسة يضطرم بها صدره ، ولا بد أنها اقتنعت بوجود اعتبار آخر ، من قبيل حمله لضغينة شخصية ضد عشيرة تسوكوما ، أو أنه يشعر بالتزام قوي نحوها ، بحيث يدير ظهره لما هو مدين به من امتنان لهذه العشيرة . وقد أفضى بها هذا التفكير إلى استخلاص أنه لا يتعين عليها أن تثق به تواً ، وأنه رغم أن تعاطفه اجتذبها ، لبعض الوقت ، عندما دفع إليها بذلك « التذكار » المغشوش من أبيها ، فإن تطوراً ممتداً لا بد قد أفضى بها إلى قرار الثقة به ، وأن تعهد إليه بشيء هام كالأخذ بثأرها . ويلمح كتاب « حوليات حرب تسوكوما » إلى اتصال سري بين الأميرة كيكيو وتيروكاتسو ، ويذهب ضمناً إلى أن حبهما قد نما ، فغدا تآمراً . لكن تيروكاتسو لم يكن ، الرجل الذي يظهر عشقاً زائفاً لامرأة ليحظى بثقتها ، كما أنه ليس هناك أي سبب يدعو إلى افتراض أنه كان بارعاً على نحو خاص في فن الإغواء . وربما كان صحيحاً

أن هناك اتصالاً بينهما ، إلا أنه يبدو من المحتمل أنه تطور فيما بعد ، حينما أصبحت علاقتهما حميمة تدريجياً في غمار مناقشتهما لكيفية الإيقاع بعشيرة تسوكوما والقضاء عليها . وبتعبير آخر ، فقد جاءت المؤامرة أولاً ، ثم أعقبتها العلاقة الجسدية ، وبوسعنا أن نفترض أنهما لم يمارسا هذه العلاقة على نحو متواتر .

وأغلب الظن أن الأميرة كيكيو خلصت إلى القول بأن عرض تيروكاتسو البالغ الكرم وقفت وراءه مخططات لاقتناص مقاطعة تسوكوما . وكان نوريشيجي رجلاً متواضع القدرات من منظور تيروكاتسو ، الذي لم يكن تابعاً للتسوكو بالوراثة ، وكان تطلعه إلى مثل هذا الطموح أمراً يتفق مع ما هو طبيعي بالنسبة لبطل من أبطال عصر الحروب الأهلية ذاك ، وليس بالأمر المثير للدهشة أن يسعى لاستغلال استثارة حفيظة الأميرة لدعم طموحه . ولا بد أنها قد أدركت أن زوجها سيعاني صعوبات جمة في إحكام قبضته على مقاطعته ومقارعة تلك الأزمان الحبلى بالخطوب . وربما قررت أن أسلم سبيل ، لضمان استمرار عشيرة تسوكوما ، هو تأييد مخططات تيروكاتسو وتسخيره في الأخذ بثأرها ، حتى ولو قام باستغلالها ، وبإثارة تعاطف تيروكاتسو لضمان سلامة طفليها ، بعد موت نوريشيجي . وليس من الواضح بأي قدرٍ من الصراحة ناقشت مع تيروكاتسو مصالحهما المشتركة ، ولكنها ربما فسرت رغبته في أن يكون « حليفها » في ضوء هذا ، بينما أخفى هو دوافعه ، وتركها تعتقد ما ترغب في الاعتقاد به ، وهكذا توصلا إلى تفاهم صريح . ولئن صح هذا لكان طموح تيروكاتسو هو الذي دفع بالأميرة كيكيو إلى التآمر للإطاحة بعشيرة تسوكوما ، ذلك أنها كانت ستكتفي بمجرد بتر أنف نوريشيجي ، وبالمقابل ، فإنه بعد قيام تيروكاتسو بإشباع رغبته

الجنسية الغريبة ، نما طموحه المصطنع ، فغدا شيئاً حقيقياً . وقبل أن يدرك حقيقة الأمر كان اهتمامه بذاته وحصافته وشجاعته ، كل ذلك يتحرك بهدوء بالغ لاقتناص الفرصة لسحق آل تسوكوما .

وفيه يفقد نوريشيجي أنفه، وحديث حول قصيدة «قرية البراعم المتساقطة» من كتاب جينجي

لم يدرك نوريشيجي أن اتفاقاً سرياً قد أبرم بين زوجته الحبيبة وأحد أتباعه ، فواصل زياراته الليليّة إلى مخدع الأميرة ، حيث يغمغم بمداهناته غير المفهومة عبر شرمه ، وإذ كان شخصاً مدللاً ومتفائلاً ، فإنه لم يستطع ، فيما يبدو ، الحيلولة دون شعوره بالكرب حيال شفته المشقوقة وأذنه المبتورة ، ذلك أن كتاب « حوليات حرب تسوكوما » يسجل أنه : « شعر بأنه ليس على ما يرام ، فمال منذ ذلك الوقت إلى الاعتكاف في غرفته الخاصة » . غير أنه كلما طال اعتكافه بقي أكثر إلى جوار زوجته . ففي حضور الأتباع والوصيفات كان واعياً بذاته ، فيما يتعلق بوجهه ، ومن الطبيعي أنه تردّى إلى وهدة الفكاهة السوداء . لكن حينما كان يلج الغرفة المكنونة ، المضاءة بنور خافت ينبعث من مصباح ، ويرى ابتسامة الأميرة الفاتنة ، فإنه يغدو قادراً على نسيان الأذن المفقودة والشفة المشرومة ، في غمار نشوته . وبما أن الرجال من أمثاله ليسوا مؤهلين من الناحية المزاجيّة لأن يكونوا من سادة الحرب بحال ، فقد أحب بمزيد من الارتياح ، عندما ترك إدارة المقاطعة لكبار الأتباع ، وهكذا اعتكف في القصر الداخلي ، مستغلاً جروحه كذريعة للقيام بذلك . ولربما بدا مكتئباً ، ولكن لعله لم يأخذ النكبات التي حلت به مأخذ الجد تماماً ، في نهاية المطاف .

وعلى هذا النحو انقضى الشهر الثامن . وكان الشهر التاسع ، عادة ، هو المناسبة التي يقام خلالها حفل مشاهدة القمر ، مهرجان الأقحوان ، ومشاهدة أوراق الأشجار ، ولكن في هذا العام أحجم القائمون على أمر المقاطعة عن إقامة حفلات ترفيهية ممتدة ، سواء أُفتحت للجمهور أو تمت في خلوات للخاصة ، وذلك بسبب عدم ميل الأمير إلى ذلك ، فأقيمت الاحتفالات في أبسط شكل ممكن لها . وعلى أي حال ، فقد كان آخر الخريف على جبل أوجيكا وقتاً مؤثراً في النفس ، إلى أعمق حد ، حيث تتردد خشخشة الأوراق المتساقطة ، وزفيف هبات الريح ، التي تجلب زخات المطر الخريفي المنهمرة . لف الصمت القصر الداخلي . وفي الليل ، راحت الريح تدمدم عبر نجيل الحديقة ، على نحو ينذر بالشؤم . وفي البعيد ، تردد بين الفينة والأخرى صدى صيحة غزال أو ثعلب في الوادي . وكان نوريشيجي من قبل مولعاً بجمع الوصيفات الشابات للرقص والعزف على الكوتو، وكان حرياً به أن يقوم بذلك الآن ليبعث المرح في نفسه ، ولكن مؤخراً كان أفضل ما يستطيع القيام به هو الجلوس في هدوء مع زوجته وهما يتبادلان أقداح الساكي ، وتجنب ألوان الترفيه ذات الطابع الاحتفالي كلية . ويرجع ذلك ، في أحد جوانبه ، إلى تجربته المريرة في حفل مشاهدة ازدهار الكرز ، في ذلك الربيع ، ولكن كان هناك سبب آخر كذلك . فقد كان فخوراً بصوته ، وأبدى على الدوام استعداده لغناء قصيدة بطولية ، أما الآن وقد اختل نطقه ، وراح نفسه يصفر بين شفتيه ، فقد كان شعور بالغيرة والأسى يجتاحه عندما يغنّي أي شخص آخر ؛ وهكذا لم يعد له اهتمام بإقامة الحفلات الموسيقية .

أرخى مساء أحد أيام منتصف الشهر التاسع سدوله . كان مطر

خريفي قد شرع في التساقط في أواخر الأصيل ، واستمر موغلاً في الليل ، فيما القطرات الرقيقة تنساب هادئة في أحضان الأرض . كان وقع قطرات المطر المنسابة على الطنف كافياً لدفع المرء إلى رحاب أحلام يقظة سوداوية . وكان نوريشيجي في مخدع زوجته ، منذ صدر المساء ، يبادلها أقداح الساكي في ودّ ، بينما أوهارو تقف في خدمتهما . وارتشاف الخمر مع المحبوب ، فيما صوت المطر يتناهى ، أمر من شأنه أن يدفع الحبور في نفس أي إنسان ، ولكن في هذا المساء احتسى نوريشيجي من الساكي أكثر بكثير مما يتناوله عادة وكان في حالة استثنائية من المرح . وبين الفينة والأخرى كان يناول القدح لزوجته ويقول : « هاكِ ، ألا تشربين المزيد ؟ » . وفيما هو يبتسم على استحياء متطلعاً إلى الملمح الجانبيّ لوجهها ، راحت عيناه الباسمتان تشفّان عن رجل سمح بطبيعته ، يمتزج بجانب يسير من طفل مدلّل . ومع ذلك ، فقد تناهت الكلمات بحسب نطقه لها على هذا النحو : « هاك ، ألا تشربين المزيد ؟ » . لكنه لم يعد يكترث بهذا . حقاً إنه كان في السابق قد اعتاد الحديث ، على نحو جليل ، في المناسبات الرسمية ، للحفاظ على هيبته باعتباره ديميو ، ولكن منذ شقت شفته أصبح يتحدث مستحياً ، وهكذا فإنه حتى فيما هو مسترخ الآن تماماً ، فإن صوته يمكن أن يتردد حيناً واهناً ، كأنه طنين بعوضة . وربما كان السبب في أنه غدا حيياً لدى تطلعه إلى محيّا زوجته هو أنه في قرارة نفسه استشعر حرجاً من أن يكون واقعاً في هواها بمثل هذا اليأس ، ولكن ربما تمثّل سبب آخر في أنه كان مدركاً لكونه « معوقاً » ، وقد انعكس هذا الإدراك في تصرفاته . وعلى أي حال ، فقد كان قبل تشوّهه من النوع المختال ، اللامبالي ، الذي لا يعرف التهيّب ولا الوجل .

بدت الأميرة كيكيو ، وهي ترتشف الساكي من قدحها ، وكأنها تصغي إلى المطر المنساب في الحديقة .

قالت ، متجهمة :

- اصغ إلى هذا ! يبدو أن المطر لا يزال يهطل .

- إنه كذلك ، لكنه ينساب برقة ، مطر بهيج . أليس كذلك ؟

- بلى، وعلى ذكر ما أشرت إليه ، فإن هذا المساء يبدو خريفياً حقاً . ولكني أحس بالوحدة والاكتئاب في الأمسيات التي تنتمي إلى هذا النوع .

- لسبب ما ، يبدو مذاق الساكي لطيفاً هذا المساء ، وصوت المطر يدعو للاسترخاء .

- إنني سعيدة ، فلا شيء يدخل السرور على قلبي قدر رؤيتك في مزاج رائق .

- لم لا تكتبين قصيدة عن المزاج السائد في هذا المساء الخريفي ؟

لم يكن مثل هذا الطلب المفاجىء من طبع نوريشيجي ، ولكنه كان قد بدأ مؤخراً في الاستعانة بوسائل لقضاء الوقت تجنباً للضجر ، وعكف على تعلم نظم الشعر من زوجته . وكانت بطبيعتها بارعة في نظم الشعر الياباني ، وغيره من فنون البلاط ، حيث أن أمها كانت ابنة سيدة من سيدات البلاط ، كما أنها نشأت في رحاب العاصمة . وبمساعدتها تعلم نوريشيجي نظم واحد وثلاثين مقطعاً ، في إطار ما يشبه القصيدة ، وسرعان ما يصيح : « لم لا تنظم قصيدة ؟ » إذا ما أتى أحد شيئاً حتى ولو كان إسقاط عصا من عصي تناول الطعام .

ويبدو أن الأميرة كانت قد توقعت هذا الطلب مسبقاً ، فأمرت أوهارو بإحضار ورقة وصندوق كتابة . تصاعدت رائحة طيبة من الحبر ، فيما أوهارو تضعه على الأرض . أمسكت الأميرة بورقة ثقيلة

مستطيلة في إحدى يديها ، ودنت من المصباح ، وكتبت مسرعة قصيدة بخط جميل . ولئن شئنا ذكر الحقيقة ، لقلنا إن نوريشيجي لم يكن مهتماً بمستوى القصائد ، وإنما كان يحب أن يرى التعبير المرتسم على محيا زوجته ، عندما تنحني إلى الأمام ، في ضوء المصباح ، غارقة في التفكير ، فيما هي تنظم المقاطع التي تنساب صامتة إلى شفتيها ، ذلك أنه بدا له أنها تغدو في أجمل هيئة لها وأكثرها نبلاً ، عندما تنشغل على هذا النحو . وفيما هو يحدق بشغف بأنفها الدقيق وشفتيها ، وقد اكتسى جانبهما بالظلال والآخر بنور المصباح ، على نحو يموج بالحياة ، اعتاد أن يحدث نفسه قائلاً : لقد عرفت نساء كثيرات ، ولكن السيدة ذات التربية الرفيعة شيء له خصوصيته ، ويتنهد في إعجاب ، أو يبتسم ، كأنما دفق من البهجة يندفع عبر أعماقه . والليلة ، بصفة خاصة ، أضاف توهج خدي الأميرة كيكيو ، اللذين عادة ما يكسوهما بياض يحاكي بياض الورقة الرسمية التي تمسك بها ، بهجة لا توصف إلى ملامحها الكلاسيكية الدقيقة . ولو أن تيروكاتسو اختلس النظر إلى هذا المشهد فأي انطباع سيتركه في نفسه ؟ في منتصف الغرفة الباردة ، الرحبة ، ذات السقف المرتفع ، كانت هناك ستارة من النوع الذي يطوى . وطرد لهب مصباح واحد ظلمة الليل ، التي أطبقت من كل جانب ، وداخل حلقة الضوء تلك ، التي كانت بمثابة قطرة زيت في بركة ماء ، جلس ثلاثة أشخاص ، وقد تمايزت أشكالهم ، فقد راحت الأميرة تمسد بريشتها الورقة في صمت ، فيما تابعتها تمسك بالحبر ، وبين الحين والآخر يرتشف الأمير ، وقد أفعمته البهجة ، الساكي من حافة قدحه . وممسكاً بالورقة التي أرته إياها زوجته ، راح يقرأ قصيدتها ، ولكن صوته ابتلعته أركان الغرفة المظلمة ، وكان من المستحيل تبيّن ما قاله . ارتمى ظل رأسه ، وقد عُقص شعره إلى

الخلف على هيئة مخفقة شاي، وغابت إحدى أذنيه ، على الستـارة مكبراً . وفي هذا الضوء بدا شرمه هوة صغيرة كأنها الكهف ، فأفعم صدر الأميرة بنسمة رهيبة ، فيما لاح جمالها الشيطاني ، على نحـو منذر بالويلات ، وكأنه ينتمي إلى عـالم آخر . وفي الخـارج ، راح المطر الذي ساقته الرياح يهمي ، على صورة تنذر بالشر ، في الليل الموغل مسرعاً في مسيرته ، ومن المؤكد أن تأثير هذا المشهد ما كان ليقل غرابة عن تأثير تمشيط شعر الرؤوس في العلية .

بعد قيام الأميرة كيكيو بنظم قصيدتين أو ثلاث، أفلح نوريشيجي في نظم إحدى قصائده ببعض الصعوبة ، مفصحـاً بذلـك عن مدى التقدّم الذي أحرزه . وفيما كل منهما يشيد بمهارة الآخـر ، وصلت ألوان الترفيه التي تخللت ذلك المساء إلى خاتمة رائعة . وتجاوزت الساعة العاشرة ، فيمـا هما يدلفـان إلى الفـراش . راح نوريشيجي لبعض الوقت يتحسّس زوجته برقة مداعباً ، على نحو ما يفعل في كل ليلة ، لكنه أحس بآثار معاقـرة الساكي دون تنـاول شيء ، اللهم إلا الشعـر ، وتفاقم إزعـاجه وتلهفـه ، فيما هـو يسلم نفسـه لمـوجـات النشوة . وفي نهايـة المطاف ، كـان يغرق في النـوم دائماً ، كـأنما فارقت روحه جسده ، ولكنه يفيق بعد عدة ساعات ، فيمضي لقضاء حاجته . وقد نهض الليلة كذلك لدى انتصاف الليل ، حريصاً على عدم إقلاق زوجتـه ، ومضى في هدوء إلى الغـرفة الأمـامية ، حيث كانت أوهارو في خدمتهما . أشعلت له مصباحاً يدوياً ، ومضت أمامه إلى الدهليز . كـان مرحـاضه في الاتجـاه المضاد لاتجـاه مرحـاض الأميرة ، على بعد حوالى ثلاثين قدماً ، تقطع عبر ممر طويـل ، ثم انعـطافـة إلى اليســار ، وأخـرى إلى اليمين ، تفضي إلى ممشى ، كسيت أرضيته بالحصير ، يمتد حوالي عشرة أو خمسة عشر قـدماً .

وكانت تلك هي أشد البقاع ظلاماً ، حيث يوجد سور على أحد الجانبين وأبواب منزلقة تواجه الحديقة على الجانب الآخر . عندما سار توريشيجي حتى بلغ هذا الحد مترنحاً ، وهو لا يزال يحس بالدوار والخمار ، الذي أحدثه الساكي واللذة الأخرى ، استطاع سماع الانهمار المتواصل للمطر ، على الألواح الخشبية في الشرفة ، وراء الأبواب مباشرة .

غمغم ، محدثاً نفسه ، كأنما هو يتحدث في نومه :

ـ لم تقلع السماء بعد ، لا تزال تهمي .

ـ نعم يا مولاي ، إنه مطر يبعث الكآبة في النفس .

قالتها أوهارو ، ثم تجمدت في موضعها ، أضافت :

ـ خذ حذرك يا مولاي ، وانظر ، رجاء ، لقدمك موضعها !

حولت الضوء نحو قدميه المتقلقلتين . وعندئذ ، على وجه الدقة ، في غمار الظلمة التي عمت كل ما خلفها ، اندفعت هبة ريح عاتية ، كأنها رفرفة جناح . وبشهقة حادة ، أسقطت هارو المصباح .

ـ من هناك ؟

هتف بها توريشيجي ، فقد ظن أنه رأى شبحاً أسود ، يتحرك تحت جنح الظلام . رجل ؟ هولة ؟ تخيل ؟ الآن لفه الظلام ؛ فقد انطفأ المصباح ، لدى سقوطه ، لم يستطع القول ما إذا كانت الصورة المتأرجحة في قرنيتيه كانت شيئاً حقيقياً ، أم كابوساً توهمته عيناه الغائمتان الزائغتان . بدا غريباً أن أوهارو لم تقل شيئاً آخر .

نادى ، في الظلام :

ـ هارو ، ماذا جرى ؟ ماذا جرى ؟ هل هناك أحد ؟

ـ م . . . م . . . مولاي . . . أسرع . . . أسرع !

كـان ذلك صـوت أوهارو يقيناً ، ولكنه تـردد كما لـو أن فمهـا مكمم ، وهي تحـاول التملص ممن يخنقها . ومستجمعـة قواهـا ، راحت تهتف ، مع آخر نفس لها :

ـ أسرع يا مولاي ، أسرع بالهرب !

انقطع صوتهـا ، فأنّت ، وسقـطت على الأرض ، محدثـة دوياً مكتـومـاً . حبس نـوريشيجي أنفـاسـه ، وتنحى قليـلاً إلى جـانب الممشى ، ومنتشراً كأنـه العنكبوت ، ألصق ظهـره بالجـدار ، لكن مقتحم القصـر أطبق عليه ، ولف ذراعـه قويـة حول عنقـه ، ولطمـه بالسور ، في عنفـوان رهيب . أحس نوريشيجي بـأن جسده يضغط حتى ليغدو مسطحاً كالرقائق ، فحاول مرات عديدة أن يهتف « أيهـا الوغد » ! ، ولكن كلما أوغل في المحاولة غاصت ذراع خصمه غائرة في عنقه . وفيما هو يختنق ببطء ، راح يحدث نفسـه : « هلكت ، لسوف يقتلني » ، وذلك فيما جمود خدر يوشـك أن يطمس ذهنـه . وحينئذ ، على وجه الدقة ، أحس براحة يد خصمه تتلمس وجهـه . وطّن نفسـه على أنـه سيـطعن عنـد قـاعـدة زوره بخنجـر ، ولكن مهاجمه ، الـذي لا يزال يحكم إحـدى ذراعيه على عنقـه ، واصل تمرير اليد الأخرى على وجهه بأسره ، كأنـه يلمسه بلسـانه ، وبعـد التيقن من أن إحـدى الأذنين مفقـودة ، انتقلت اليـد إلى الشـرم ، واستكشفت الأنف بـدقـة من القـاعـدة إلى القمـة مـروراً بـالقصبـة والخيشومين . وبينما هو يفقد وعيه تدريجياً ، وجد نوريشيجي ذلك أمراً مهيناً إلى أبعد الحدود ، وحـدث نفسه بـأن الرجـل يجعل منـه ألعوبة ، أراد أن يهتف صارخاً : « أيها الوضيع ! ما الذي تقوم به ! » ولكنه قبل أن يتمكن من ذلك سمع صوت طحن كئيب ، وعرف أن أنفـه يفـارق وجهـه . أرخى المهـاجم قبضتـه قليـلاً ؛ ممـا سمح

لنوريشيجي بالتنفس بسهولة أكبر ، وفي الوقت نفسه ، وشأن جرّاحٍ يزيل زائدة بمشرط ، اجتث بانتظام من القاعدة ، دون أن يترك أثراً لأي شيء يقارب الأنف .

عندما استردّ نوريشيجي وعيه أخيراً ، كان مثل رجل يفيق من تأثير المخدر ، بعد عملية جراحية . تذكر ما وقع حتى بتر أنفه ، لكن ذاكرته لم تستوعب أي شيء وقع عقب ذلك . ولا شك أن مهاجمه إما لطمه بالأرض ، عندما فرغ من « العملية الجراحية » ، أو أحكم قبضته على عنقه من جديد ، ففقد نوريشيجي الوعي ، وعندما أفاق كان قد تم حمله بالفعل إلى مخدع زوجته ، ومُدّد في فراشه . ولأن أوهارو قد سبقته إلى السقوط ، فإنها لم تدر ما الذي وقع تماماً ، وما أن التقطت أنفاسها ، حتى قالت إنها عندما توقفت في الممشى ، وحولت الضوء باتجاه قدمي مولاها ، أحست فجأة بخور أليم في ذراعها اليمنى فسقط منها المصباح ، وفي الظلام وثب أحدهم عليها من الخلف ، أو بالأحرى بدا الأمر كما لو أن شيطاناً مسّها ، دونما صوت ، وقيد جسدها بأسره ، في إحكام ، مستخدماً رقية سحرية ، أو كما لو أن دباً عملاقاً قد سحق صدرها . وعلى الرغم من أن رأسها وفمها قُبض عليهما بإحكام ، إلا أنها أفلحت في تحذير مولاها ، ولكن عندئذ تلقّت لطمة حادّة في ضلوعها فأغمي عليها . هكذا ، فإنه لولا استيقاظ الأميرة كيكيو وافتقادها لزوجها ووصيفتها ، لظل الاثنان ممددين في الممشى . وفي الوقت الذي ارتفع صوت الأميرة ووصيفاتها بالصراخ ، كان المهاجم قد أفلح في الاختفاء ، دون أن يخلف وراءه أثراً ، اللهم إلا العلامات المتوهجة الدالة على العملية الجراحية التي قام بها في وجه نوريشيجي . وعلى نحو لا سبيل إلى فهم غموضه أوقف نزيف الدم من الجرح ، بل ووضع لصوقاً على

القلب المسطح للوجه ، قبل أن يلوذ بالفرار . وسواء أكان يريد لعب دور الجراح من جميع جوانبه ، أم كان لديه سبب آخر يدعوه لاتخاذ هذه الخطوات ، فقد كانت شديدة الرقة وعظيمة الجدوى ؛ لأنه دونها ربما ظل المريض المسكين ينزف حتى الموت .

وكما لعلكم خمنتم ، فإن هذه الحادثة الغريبة لم يقم بها إلا تيروكاتسو . وبالطبع يرجع الفضل إلى توجيه الأميرة كيكيو في تحقيق هجومه لهذا النجاح المدوي . وقد تبادل الرسائل مع الأميرة بانتظام ، عن طريق الممر الممتد تحت الأرض ، مستخدمين كايدي وابنتها أوهارو كمبعوثتين . ولا شك أن إحدى المبعوثتين كانت تزحف عبر النفق ، وتترك رسالة مغروسة بين أحجار السور الكبير ، فيلتقطها تيروكاتسو خلال جولاته ، ويترك الرد في الوضع نفسه . ومع استمرار الاتصال بهذه الطريقة تم ترتيب زمان ومكان الهجوم مسبقاً ، بحيث يستطيع تيروكاتسو إنجاز العمل بسرعة والعودة آمناً إلى قاعدة السور الحجري ، دون أن يثير الاشتباه .

إضافة إلى اللصوق الذي وضعه على جرح نوريشيجي ، حمل معه رسالة ، وضعها على وجه الأخير :

« لأسباب قاهرة ، سعيت وراء أنفك منذ العام الماضي . والليلة حققت رغبتي بنجاح ، وإني لراضٍ تماماً ، ولن أنتزع حياتك ، فبوسعك الآن أن تبقى خليّ البال » .

ليس من الجليّ على أيّ نحو فسّر كبار أعضاء الحاشية هذه الرسالة ، ولكنها كانت من إبداع بصيرة تيروكاتسو . فبعد أن حقق المهمة التي كلفته الأميرة بإنجازها ، كان يأمل في أن الأمن سيتراخى في القصر الداخلي ، بصورة عاجلة ، وسيتمكن ، دونما صعوبة ،

من الاتصال بالأميرة ؛ ولذا سعى عن طريق الرسالة إلى تهدئة روع الجميع .

غير أنه على الرغم من هذه الحيلة الحاذقة ، فقد تلقى الساموراي أوامر بتشديد الانتباه واليقظة من جديد ، وزيد عدد نيران المراقبة التي توقد كل ليلة بين الأشجار في الحديقة . وبما أن الحادث قد وقع خلال شهر كان تيروكاتسو فيه مسؤولاً عن الحراسة ؛ فقد استدعي للمساءلة ، بالطبع ، ولكن كبار رجال الحاشية ألفوا أنفسهم في ورطة ، فيما يتعلق بعقابه ؛ ففي نهاية المطاف عهد إليه بحراسة المحيط الخارجي للقصر ، ولم يكن أحد على يقين مما إذا كان المهاجم قد دخل القصر من الخارج ، أم أنه كمن في الداخل ، ولو أنه كان هناك إهمال فهو إذن إهمال من الجميع ، وبالتالي فليس هناك أساس لإلقاء العبء على تيروكاتسو وحده ، ولو أن الأمير كان قد لقي حتفه ، لما كان هناك مهرب من إعلان انتحاره رسمياً ، ولكن كل ما جرى هو فَقْد قطعة من اللحم ، وما من أمير ، مهما عظم شأنه يرغب في التضحية بتابع موالٍ ، لقاء مجرّد أنف . وإضافة إلى ذلك ، فإن حقيقة بتر أنف نوريشيجي قد أبقيت في طي الكتمان بقدر الإمكان ـ فلم يعلم بأمرها إلا قلة من خادمات القصر وكبار أعضاء الحاشية ـ ومن هنا فلم يكن بوسعهم إلقاء اللوم على أحد علناً . وكان عليهم الالتزام بأكبر قدر ممكن من الحرص والحذر ، حيث أنهم يتعاملون مع تيروكاتسو ، الذي يحترمه الجميع ، باعتباره محارباً شاباً متميزاً ، ووريث تيروكوني ، أمير موساشي . وبعد بحث هذه العناصر كافة ، أمروه بعدم مغادرة مقرّه الخاص ، لبعض الوقت ، وكان ذلك كل ما في الأمر ، ولكن لا بد أنه قد عانى أشدّ مشاعر الحنق والغضب ، ومنفرداً بنفسه في غرفة موصدة ، راحت

أفكاره تتسابق مسرعة إلى ذلك المشهد في القصر الداخلي . لم يكن هدفه النهائي هو تحقيق انتقام الأميرة ، وإنما تلك اللوحة التي ستنجم عن ذلك الانتقام . كانت رغبته المكنونة هي أن يرى الزوج المجرد من الأنف إلى جوار زوجته الجميلة على نحو لا مثيل له . الآن هو ذا العالم الذي طالما تراءى له في أحلامه يتفتح في مخدع الأميرة . وقد زاد هذا التوقّع من حنينه وتوقه .

بعد وقت قصير ، أطلق سراحه وسمح له بالعودة إلى أداء واجباته، ولكن عذابه استمرّ. لو أنه عهد إليه من جديد بتولي النوبة الشهرية الدورية في الإشراف على الحرس، لتمكن من أن يزور مجدداً نفق الهوى الكامن عند قاعدة السور الكبير ، لكنه لم يعد موضع ثقة بحيث يعهد إليه بهذا الواجب موضوع الترحيب، وتفاقم الوضع سوءاً إزاء قيام كبار رجال الحاشية بالإشراف على ما بدا أنه حرس حديدي ، بحيث أن تبادل الرسائل لاح أمراً لا موضع له على الإطلاق ، ولم يتلق همسة من الأخبار ، التي كان يتوقعها ، ولا حتى مجرد إشاعة ، عن الوضع في القصر الداخلي ، وأقلقه كذلك أنه كان منوباً كل يوم ، إلا أنه لم ير نوريشيجي قط . وعندما استفسر عن الأمر قيل له إن رجال الحاشية لم يروا أميرهم منذ الحادث ، صحيح أنه في بعض الأحيان كان نوريشيجي يحادث رجال معيّته من وراء مصراع خيزراني في قاعة الاستقبال ، ولكن حديثه كان أكثر وهناً وأصعب في تفهمه عن ذي قبل ، وبدا صوته مختلفاً ، الأمر الذي جعل البعض يتشكك في أنه ليس إلا بديلاً ويتوقّع ، على نحو طبيعي ، أسوأ الاحتمالات . بدأ تيروكاتسو يحس بالقلق حيال نتيجة العملية الجراحية التي قام بها ، وكان قد حرص على الاهتمام بمعالجة الجرح ، وحدّث نفسه قائلاً إن نوريشيجي بالتأكيد على ما

يرام . ولكن باستثناء خمسة أو ستة من كبار مديري المقاطعة وقلة من الوصيفات كانوا يعرفون الحقيقة لم يتوافر لدى أحد دليل على أن الأمير لا يزال حياً . راح يحدث نفسه بأنه لو كان بمقدوره أن يرى وجه نوريشيجي فحسب ، إذن لتمكن من إرواء غلته الصادية قليلاً بتخيّر رضا الأميرة والابتسامة الشريرة في عينيها . وهكذا وصل إلى حد الحنين إلى رؤية وجه نوريشيجي ، المجرد من الأنف ، بقدر توقه إلى مشاهدة محيّا الأميرة .

في الشهر العاشر من العام ١٥٥٥ ـ الشهر الذي حلت فيه بساحة نوريشيجي مصيبة إثر الأخرى ـ تغير اسم المرحلة الزمنية ، من تيمون إلى كوجي ، ثم أقبل العام الجديد ، وكان ينبغي على جميع الساموراي أن يلتقوا بالأمير ؛ ليرفعوا إليه تحياتهم ، غير أن الأمير ، دون أن ينطق بكلمة واحدة ، تحمل طابع التحية ، مرّر رسالة تهنئة بالمناسبة من وراء المصراع الخيزراني ، وانتقلت كآبة العام المنصرم إلى العام الجديد . تشاور كبار رجال الحاشية سوياً ، وأجمعوا رأيهم على أن المعنويات ستتردى ، طالما ظل أميرهم معتكفاً في قصره ، أما ما هو أكثر مدعاة للشعور بالقلق فقد تمثّل في انطلاق شائعات شديدة البشاعة . ومن شأن حفل طيّب ، مفعم بالحياة ، أن يصفّي الجو ، ولكن الأمير سيتعين إقناعه بإظهار « طلعته النبيلة » للساموراي المجتمعين في الحفل . ففي نهاية المطاف ، اعتاد الاتباع رؤية وجهه الأشرم وأذنه المفقودة ، وبالتأكيد فإنهم لن يكترثوا لرؤية أنفه المفقود . وليس هناك داع لكل هذا التركيز على الذات . والروح بالنسبة للمحارب أهم من المظهر الخارجي . وما ضرّ لو تغيرت سحنته قليلاً ؟ ما من أحد من الأتباع على قدر من التواء الذهن وانحرافه بحيث يزدري سيده لذلك السبب . وهكذا راحوا يتلمسون

في حذر ردّ فعله على هذه الفكرة ، ولكنه كانت قد سيطرت عليه نزعة سوداوية بالفعل ، وتفاقم عجزه عن الحسم وتهيّبه ، منذ الحادث الأخير ، ولم يبد ميلاً إلى الظهور أمام أحد . وعندما ألحوا عليه قال ضجراً : « دعووي وهي ! إذا أرته إقاهة حل ، فأقيهوه . اهعتوا قُهها ، وأقيهوا الحل ، ولا تخفروني فيما حهث » ومضى لطيته .

يسمع المرء في بعض الأحيان بالأصوات المتلعثمة أو مفككة المقاطع ، ولكن صوت نوريشيجي لم يكن متغيراً على هذا النحو فحسب ومفكك المقاطع ، وإنما كان من الممكن أن يحسب المرء أنه صيحات حيوان ما . ولن يكون من اليسير إقناع الأتباع بأنه لا يزال على قيد الحياة . ولكن لا بد من التوصل إلى سبيل للتفريج عن كربة أميرهم ، وفي نهاية المطاف ، قرر كبار رجال الحاشية جمع كل الساموراي ، ممن لهم معرفة بالشعر ، لحضور حفل لتناشد الأشعار . فمنذ بعض الوقت ، كان نوريشيجي يعقد مثل هذه اللقاءات ، في مجالس خاصة مع الوصيفات ، ولكن هذا الحفل سيقام على نحو فخيم في مكتب القصر الخارجي . وكانت الأميرة كيكيو هي مصدر هذه الفكرة ، ووافق عليها نوريشيجي دونما تردد ، ويرجع ذلك في أحد جوانبه إلى أن الاقتراح جاء في وقت كان قد ازدهاه فيه ما بلغه من شأو في نظم الشعر ، وبشكل خاص لأن الأميرة هي التي طرحته ، ولم يستطع كبار الاتباع طرح اقتراح آخر ، ونظراً لشعورهم بأنهم غرباء في مجال التنافس الشعري ، فقد تخوفوا من أن اختيارهم هذا سيكون مصدر ضيق عظيم ، ولكنهم سيسعدهم أن ترتفع معنويات الأمير ، وهكذا أبلغوا الساموراي برغباته ، وأعلنوا أن كل من له معرفة بهذا الفن ، بغض النظر عن مرتبته ، سيسمح له

بشهود الحفل . ويسجل كتاب « اعترافات دوامي » أنهم : « اختاروا اليوم الخامس من الشهر الخامس ، يوم مهرجان إيرليس ، لجمع شمل الساموراي والأمير نوريشيجي والأميرة كيكيو لحضور حفل تناشد للأشعار . وقد أعلنوا الأمر قبل حلول الموعد بوقت طويل ، وتوقعوا أن كل من لهم إلمام بفن الشعر سينظمون قصائد بديعة ، ويتنافسون على الجوائز . ولكن محاربي قلعة أوجيكا على الرغم من ثقتهم بمهارتهم في رماية السهام ، لم يعتادوا شهود لقاءات فخيمة من هذا النوع ، وترددوا في المشاركة . فمن شأنهم أن يبادروا إلى المشاركة في الوقائع العسكرية ، فيما قالوه ، ولكنهم لم تساورهم أي رغبة في إحراز مرتبة الشرف في نظم الشعر . وقد شهد الحفل قليلون منهم ، ولم ترق الفكرة لأحد ، وكانت مناسبة خالية من المرح والبهجة ».

حتى في ذلك العصر المتقلب ، كان عدد من القادة العسكريين متضلعين في نظم الشعر ، وهذا أمر حقيقي ، ولكنهم كانوا من أبناء الديميوهات الذين تلقوا تعليماً رفيعاً ، أما الساموراي العاديون فكانوا بالكاد يجيدون القراءة والكتابة ، وقلة منهم هي التي تستمتع بوسيلة ترفيه من نوعية نظم الشعر . وعلى أية حال ، فإن تيروكاتسو كان واحداً من قلائل ، في قلعة أوجيكا ، لديهم ما يؤهلهم لشهود هذا اللقاء . والقصائد التي خلفها لنا بعد رحيله عن عالمنا ، تبدو لنا حينما ننظر إليها باعتبارها نتاجاً لقريحة رجل عسكري متمسكة بالتقاليد الصحيحة ، وتوضح أنه كان ضليعاً في فن الشعر . لكن هذه القصائد كانت ثمار الممارسة المتقنة في أواخر أيامه ، بعد أن أوحى إليه هذا الحفل بإدراك أن الشعر ليس بالشيء الذي يستهان به . وكان في ذلك الوقت شاباً في التاسعة عشرة من عمره ، وربما

لم يكن ماهراً على نحو خاص في قرض الشعر . مع ذلك ، فإنه كان قد درس منذ نعومة أظفاره الفنون الأدبية والحربية ، بينما كان من يحيطون به أناساً أميين ، لم يتلقوا من التعليم شيئاً . ومن الواضح أنه قد وقع على كاهله ، أكثر من أي شخص آخر ، التزام بحضور الحفل . ولا بد أن لدى سماعه بأن هذا اللقاء من بنات أفكار الأميرة قد علق آمالاً كباراً على أنها ستتيح له الفرصة لتجديد مراسلتها التي توقفت طويلاً . وهكذا كبح جماح انفعاله ، وقبل الدعوة .

وكما يمكن للمرء أن يتنبأ ، فقد استتر نوريشيجي وزوجته وراء مصراع خيزراني يحجب المنصة التي احتلاها ، بينما جلس الاتباع في صفوف ، على جانبي القاعة كليهما ، وتباروا في نظم القصائد عن الوقواق ، وهو موضوع اختارته الأميرة . كان الفضول قد اجتذب معظم الأتباع ، فلربما يتاح لهم أن يروا مولاهم رأى العين ، ولكن نوريشيجي قام بتمرير مقطوعته من وراء المصراع الخيزراني ، وراح يصغي في هدوء فيما هي تتلى بصوت عال وتعقبها قصائد الأتباع . ولو أن تيروكاتسو كان من نبلاء البلاط الهايني لربما استطاع استخدام « الوقواق » (حيث كان موضوعاً مثالياً) لنقل مشاعره بصورة غير مباشرة إلى الأميرة المحبوبة وراء المصراع الخيزراني ، ولكنه كان يفتقر إلى المهارة اللازمة للقيام بذلك ، فنظم بلا حماسة قصيدة من واحد وثلاثين مقطعاً ابتذلها تكرار الاستخدام . ومن سوء الحظ أن القصائد التي نظمت في هذه المناسبة لم يكتب لها البقاء ، لكن المرء يمكنه الافتراض ، دون أن يغامر كثيراً ، بأن أياً منها لم تكن من القصائد المتميزة . وقد حفظ لنا كتاب « اعترافات دوامي » إحدى قصائد الأميرة كيكيو » .

يذكرك بالماضي

عرف براعم البرتقال ،
فأقبل أيها الوقواق
إلى قرية البراعم المتهاوية !

وبتغيير طفيف في البيتين الأخيرين ، تقوم قصيدتها على أساس قصيدة من نظم الأمير جنجي ، في الفصل الذي يحمل عنوان « قرية البراعم المتهاوية » من « حكاية جنجي » :

يذكره بالماضي
عرف براعم البرتقال ،
فيهل الوقواق ليصدح
في قرية البراعم المتهاوية .

وقد نظم جنجي قصيدته تلك عندما زار الأميرة رايكايدين :

« مضى أولاً إلى غرف الأميرة ، حيث غرقا سويا في الذكريات ، فيما الليل يوغل في مسيرته ، وعندما اعتلى القمر الذي استكمل ثلاثة أرباع دائرته كبد السماء ، ألقت الأشجار السامقة بكلامها على نحو أشد قتامة ، ورفت الرائحة المترعة بالحنين من براعم برتقال دانية ، كانت الأميرة قد تقدمت في العمر ، ولكنها كانت على تواضعها السابق ، رقيقة ، وعذبة ، ورغم الألم لم تكن أثيرة على نحو خاص لدى الأمبراطور الراحل ، إلا أنه كان مولعاً بها ووجد أن صحبتها تبعث الراحة في النفس » .

وقد ردت رايكايدين على قصائد جنجي بقصيدة من نظمها :

ما من أحد يزور
مسكني المتهالك .
وها هي براعم البرتقال قرب الطنف
قد اجتذبتك إلى هنا .

ولكن قصيدة الأميرة كيكيو لا علاقة لها بهذه الموضوعات العتيقة . وإنما هي ببساطة تشبّه تيروكاتسو بالوقواق ، وتتلاعب بكلمة « هانا » اليابانية ، التي تعني في آن « برعماً » و « أنفاً » ، بحيث أن « قرية البراعم المتهاوية » هي كذلك « قرية الأنوف المتهاوية » ، وهكذا أمكن لتيروكاتسو أن يدرك الرسالة الخفية ، على الرغم من أنه ربما لم يقدر له أن يقرأ « حكاية جنجي » .

ليس من الواضح ، على وجه الدقة ، متى بلغ من تأثر الأميرة كيكيو بإخلاص تيروكاتسو وقوة شخصيته أنها شرعت تبادله حباً بحب . ولكن من المؤكد أن قصيدتها تنقل ما هو أكثر من : « أريد أن أراك ، فلديّ أمر لا بدّ أن نناقشه » . وربما أحبت ، دون أن تدرك ذلك على وجه التقريب ، في الوقت الذي عجزا فيه عن الاتصال أحدهما بالآخر . وربما كانت هذه القصيدة هي أول تعبير عن حبها .

« بسبب الرقابة الصارمة ، ظننت أنه لا مجال للأمل حتى في التسلل إلى مقربة منها ، ولكن بمرور الوقت تراخت الحراسة ، وغدا بمقدوري زيارتها في يسر . انقضى عام ، دون المزيد من المتاعب ، على نحو ما توقعت في الرسالة ، التي خلفتها ورائي في تلك الليلة الخريفية ، وهكذا تخلى كبار رجال الحاشية في نهاية المطاف عن الشكوك التي ساورتهم » .

ولربما تخلوا عن هذه الشكوك ، ولكنهم لم يتمكنوا أبداً من تخمين ما الذي أراده المهاجم من أنف سيدهم .




الكتاب الخامس



وفيه يعود تيروكاتسو إلى قلعة أبيه ،

ويزف إلى سليلة عشير تشيريفو

تقدم العمر بتيروكوني ، والد تيروكاتسو ، وراحت حالته الصحية تتراجع ، وشغله لبعض الوقت أمر العثور على زوجة مناسبة لولده ، والتنحي له عن رئاسة العشيرة ، فألح مراراً وتكراراً على آل تسوكوماني أن يبعثوا له بابنه، إلى قلعة جبل تامون. ولكن شائعات تدعو للانزعاج أخذت في الانتشار ؛ فقد تفاقم تشكك كبار رجال الحاشية في قلعة أوجيكا وخاصة منذ تمرد قلعة تسوكيجاتا ، وتباطأوا في الموافقة على هذا الطلب . ومع ذلك ، فرغم أن تيروكاتسو كان من الناحية الاعتبارية رهينة ، فإنه قدم إلى القلعة طفلاً ، وعاش بين ظهراني أهلها أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً ، وقد خدمها مخلصاً ، وتميز على أقرانه ، بصورة متكررة ، في ساحة القتال ، وبدا أنه لا موضع للتساؤل ، فيما يتعلق بمدى ولاء أبيه لعشيرة تسوكوما ؛ وبناء على هذا فقد سمح لتيروكاتسو في نهاية المطاف بالعودة إلى قصر تيروكوني في خريف ١٥٥٧ .

وعلى الرغم من أن تيروكاتسو قد سعد ، بالطبع ، لعودته إلى أبيه ، فقد أمضى وقتاً طويلاً ليتعافى من أساه ، حيال افتراقه عن الأميرة كيكيو . كانت روح المحارب الكامنة في أعماقه تؤكد نفسها في وجه الضرورة ، ولكن الحب الأول شيء خاص ، حتى بالنسبة لرجل حديدي الإرادة ، وكان قد انتهك كل الأعراف والقواعد الأخلاقية ، وواجبه في الشعور بالامتنان ، في غمار تمسكه بها في

إخلاصه الولهان لها ، ومع ذلك فقد أجبرا على الانفصال ، بمجرد شروعهما في التلاقي ، على وجه التقريب ، ففي خريف العام السابق ، تراخت الحراسة بما يكفي لعودته إلى استخدام النفق من جديد ، وهكذا فقد أمضيا أقل من عام سوياً ، يلتقيان سراً ، ويختلسان سويعات من النشوة ، ربما دون أن تتاح لهما فرصة واحدة لقضاء الليل في حوار حميم . وقد فاقم من هوة أسفه أن حبه كان أقل انصرافاً إلى الأميرة كيكيو منه إلى الدور الفريد الذي تؤديه . فقد يجد في المستقبل أخريات في مثل جمالها ، ولكن خشبة المسرح الغريبة والرائعة ، التي وقفت عليها ، وخاصة الدراما التي تضم ممثلاً فكاهياً مساعداً دون أنف ، كانت عالماً أعد خصيصاً ليوافق مزاجياته . وما كان له أن يتوقع العثور على سيدة نبيلة أخرى، يحيط بها هذا المشهد وذاك الطاقم من الممثلين . وهكذا ، فقد تردد ، في حميا شهوته المرتكسة ، في مفارقة الأميرة ، وكره إلى حد المقت الانسحاب من هذه البيئة . وكان عزاؤهما الوحيد هو الاعتقاد بأن سقوط آل تسوكوما بات وشيكاً ، وهكذا أرسيا دعائم خطط المستقبل ، وتعاهدا على اللقاء ثانية ، وافترقا .

تزوجت الأميرة أويتسو سليلة آل تشيريفو، التي عرفت فيما بعد باسم شو سيتسوين ، من سليل آل كيريو في الشهر الثالث من ١٥٥٨ ، أي بعد مرور أقل من ستة أشهر على عودة تيروكاتسو إلى قلعة جبل تامون . وكان تيروكاتسو في الحادية والعشرين من عمره ، أما شو سيتسوين فلم تتجاوز الرابعة عشرة من العمر . وعلى الرغم من أنها كتب عليها أن تمضي أيامها في رحاب الحزن والوحدة، ضارعة إلى الأرباب وبوذا أن تصلح حياة زوجها الجنسية المكللة بالعار ، فقد كانت فتاة تضج عروقها بنبض الحياة، في وقت زفافها.

ولئن كان جسدها قد استشعر التقلقلات الأولى للنشاط الجنسي ، فإنها لم تكن على وعي بعد بهذا ، ولم يبذل زوجها جهداً لإنارة بصيرتها ، فقد كان ذهنه مشغولاً بأفكار عن القصر الداخلي في جبل أوجيكا ، ولم ير في عروسه ، التي لم يتزوجها إلا بناء على إلحاح أبيه ، إلا فتاة ذكية ، بريئة ، تصغره بسبع سنوات . ولكنه ربما كان محظوظاً ، في نهاية المطاف ، لزواجه من عروس أصغر سناً من فهم الواقع الرهيب ، الذي يحيط بها .

ذات مساء صيفي ، بعد شهر أو شهرين من الزفاف ، انضم تيروكاتسو، على نحو غير متوقع، إلى شو سيتسوين في الشرفة، فيما هي تستمتع بالنسيم العليل مع وصيفاتها .

قال بابتسامة ليست من سماته المميزة :

ـ لنقم بما يسلينا معاً !

تساءلت زوجته :

ـ ولكن كيف حال أبيك ؟

ـ ليس هناك ما يدعو إلى القلق ، فقد تحسنت حالته كثيراً ، في الأيام القليلة الماضية . أما ما يثير ضيقي فهو إهمالي لك ، وليس لديّ ما يشغلني اليوم ؛ وبالتالي فسوف أشاركك في كل ما تريدين القيام به .

حدقت شوسيتسوين سعيدة في زوجها المرح :

ـ ما الذي سنقوم به إذن ؟

ـ أي شيء ، ما الذي تفضلين ؟

ـ هل نطارد الحُباحب ؟ في الحديقة ؟

أفعمت عيناها الجميلتان المتألقتان بالبهجة المفاجئة ، التي

يستشعرها طفل فكّر بقوة في شيء رائع ، وتألق خداها المكتنزان بالوهج .

تحدثت ، كما لو كانت مجرد طفلة :

ـ هناك الكثير من الحُباحب في الحديقة ، هناك بعيداً حيث تزدهر السوسنات ، فيما وراء التل .

صحب الزوجان الشابان الوصيفات ، وانطلقا يطاردان في شغف الحباحب ، في أرجاء الحديقة .

ـ ها هنا ، ها هنا ، ليأت الجميع إلى هنا !

هكذا تردد صوت شوسيتسوين المرح ، وسط صيحات وصيفاتها ، فيما هي تندفع في أرجاء الحديقة ، إلى نحو النجيل المتكاثف ، وبعد قليل إلى حافة الماء . وباعتبارها ابنة أمير إقطاعي ، فقد نشّئت لتكون أميرة شابة ، بالمعنى الصحيح ، ولكنها في الرابعة عشرة من عمرها كانت ممتدة الساقين والذراعين ، وجسمها في ريعان الصحة والفتوة . ورغم أن أثوابها العديدة كانت مصدر ضيق لها ، إلا أنها كانت تعدو كأنها ريم ينطلق في الحديقة . وبالنسبة للوصيفات القائمات على رعايتها ، بدا أمراً مضحكاً أن ينادينها قائلات : « سيدتي » ، فقد كانت فتاة صغيرة ، حتى أطراف أصابعها .

صاح تيروكاتسو ، منفعلاً :

ـ أمسكت بعشر منها !

ـ آه ، لم أمسك إلا بخمس فقط !

ـ هناك واحدة ! هناك واحدة !

راحت تعدو وراء تيروكاتسو ، فيما هو ينطلق مطارداً الحباحب .

راحا يعدوان حول البحيرة ، وعلى امتـداد الغديـر ، يتسابقـان على الإمساك بحباحبة واحدة ، وبدا أنهما أقرب إلى أن يكونا أخاً وأخته يلهوان منهما إلى عروسين تزوجا حديثاً .

في تلك الليلة ، وضع الزوجان الشابان الحباحب التي أمسكـا بها ، حوالي ثلاثين أو أربعين منها ، في سلال مغلقة من الأغصـان المجدولة ، وضعت في صف واحد ، وراحا يتطلعان إليهـا ، وهما يحتفلان بهذه المناسبة بتبادل أنخاب الساكي . كان كل منهما لا يزال في حالة مزاجية عابثة ، وشرع تيروكـاتسو يلقي بـالنكات والقصص الطريفة ، التي جعلت شوسيتسويـن تغرق في الضحك ، حتى لتعجز عن تناول الطعام ، وأدخل هذا الإفصاح النادر عن العفوية من جانب تيروكاتسو شعوراً بالأنس والبهجة ، في نفوس الوصيفات ، أكثر من النوادر في حد ذاتها ، فاستجبن بفيض من الضحكات ، في كل مرة يفتح فيها فمه .

قال تيروكاتسو :

ـ مهلاً ! مهلاً ! سأريكن شيئاً طريفاً الآن .

قالها ، وأومأ إلى إحدى الوصيفات ، وهمس في أذنها .

التفتت شـو سيتسـوين والأخـريـات إلى رجـل منحنٍ خضـوعـاً وتزلفاً ، صحبته الوصيفة إلى دهليز مكسوّ الأرضية بالحصُر ، خارج الغرفة ، ورحن يحدقن في رأسه الحليق بالموسى ، وهو يمس الحصر في انحناءة ذليلة ، وقمة الرأس الحليق تلتمع .

قال تيروكاتسو :

ـ آه ، ها قد جئت !

رد الرجل حليق الرأس ، بصوت حزين :

ـ نعم ، يا مولاي !

تساءلت شوسيتسوين :

ـ من هذا ؟

ـ اسمه دوامي ، لسوف نجعله يقوم لنا بأداء شيء طريف الليلة .

قالها تيروكاتسو ، ثم التفت إلى دوامي ، وقال بحدة :

ـ هلم ! ارفع رأسك !

ـ نعم ، يا مولاي !

رد الرجل ، بالصوت السابق عينه .

ـ أيها الأبله ، لا تقل : « نعم يا مولاي ! » فحسب ، قلت لك ارفع رأسك !

ـ نعم ، يا مولاي !

وفي هذه المرة رفع دوامي رأسه ، كان في حوالي الثلاثين من عمره ، يرتدي ملابس تشبه أردية كهنة بوذا ، كما جرى العرف فيما يرتديه « مشرف الشاي » . كان رجلاً لحيماً ، له وجه أبيض مستدير ، راح يحدق فيهم بعينيه المفتوحتين على اتساعهما ، كأنما فوجىء بهم بغتة . كان ثمة أمر مضحك في التعبير الجاد ، على نحو غريب ، الذي رسمه على ملامحه ، وعندما ضحكت إحدى الوصيفات حيال منظره ، أغرقت بقيتهن في الضحك .

ـ طيب ، الآن هناك فرصة متاحة لتظهر لنا ما يمكنك القيام به ، فعليك بالمحاولة !

ـ محاولة ، يا مولاي ؟ ما الذي تعنيه بالمحاولة ؟

شأن كلب حراسة ينتظر إشارة من سيده ، راح دوامي يتطلع إلى تيروكاتسو طارفاً بعينيه ، في إيقاع سريع .

ـ ها ، ها ، أيها المغفل ، إنك ماهر في التقليد . أليس كذلك ؟ الطيور ، الحشرات ، الحيوانات ، الناس . بمقدورك تقليد أصواتهم وحركاتهم وكل شيء ، إنك ماهر ، فامضِ قدماً !

قالت شوستيسوين :

ـ أبمقدوري محادثته ؟

ـ مريه بما يحلو لك ، نعم ، هذا أمر طيب ، اصدري إليه التعليمات !

ـ دوامي ، هل تستطيع تقليد أي شيء على الإطلاق ؟

ـ غلبت على أمري ، يا مولاتي ، آه ، ما الذي عساي أقوم به ؟

دامعاً ، والحزن يسم ملامحه ، ألصق رأسه الحليق بالحصير مجدداً ، وأضاف : آه ، يا إلهي ، آه يا إلهي ، أي شيء عجيب ذلك الذي قيل لك ، سامحيني يا مولاتي ، لكني لا أحظى بهذه المهارة .

ـ هلم ، هلم ، لا تكذب عليها ، لقد أديت فنون التقليد أمامي مرات عديدة .

ـ ما أقسى ما تقول يا مولاي ، كيف كان بوسعي القيام بمثل هذه الأمور أمام مولاي وهاته السيدات الأخريات ؟ إنك شديد القسوة يا مولاي ؟

ـ ها ، ها ، ها . من لا يعرف الصقر يشوّه . أليس كذلك ؟

ـ أأأرجوك ، يا مولاي ، لا بد أنك تمزح !

ـ امضِ قدماً ، هلم ، لهذا جئت بك إلى هنا .

قالت شوسيتسوين ، وقد تألقت عيناها ، خبثاً ومكراً :

ـ دوامي ، عليك بتقليد الحباحب لي !

إن دوامي هو ، بالطبع ، مؤلف ذلك العمل السردي الثمين ، عن حياة أمير موساشي الذي يحمل عنوان « اعترافات دوامي » . وقد عمل لبعض الوقت في مكاتب القلعة ، معتمداً على لماحيته وجاذبيته . ولكن تلك كانت المرة الأولى التي استدعي فيها للترفيه عن سيدات القصر . وقد كتب هذه الصورة :

« مضيت في شبابي للخدمة في قلعة جبل تامون . وفي البداية عملت في دوائر الساموراي ، ولقد لفتُّ نظر الأمير تيروكاتسو ، فقال لي إني رجل خفيف الظل . وفي غمار إبدائي للامتنان ، الذي أشعر به ، بذلت قصارى جهدي لإرضائه . وذات يوم استدعاني ليقول لي إنه يرغب في أن أقوم بالترفيه ، في تلك الليلة ، عن السيدات ؛ لأنني بارع في عمليات المحاكاة والتقليد . وتم اصطحابي إلى القصر الداخلي ، وشرفت بالمثول في حضرة الأميرة شوسيتسوين بنفسها » .

كان ما طلبته شوسيتسوين بالغ الصعوبة ، فناح دوامي قائلاً :

ـ ماذا تقولين ؟ أقلد حُباحبة ؟ . . حباحبة ؟

وراح يتحدث ، متخبطاً ، بصوت دامع ، إلى أن ضجر الجميع منه ، وضاق صدرهم به . وكان ذلك هو أسلوبه المعتاد ، فقد راح ، فيما هو يطيل المناقشة لكسب الوقت ، يفكر في حيلة لإدهاش جمهوره وإبهاره . وانتظر إلى أن استحثته الوصيفات ، بصوت عال ، ثم متصنعاً هيئة من يئس من أمره ، نهض وجلب مروحة من مكان ما ، ومضى إلى جانب مظلم من الغرفة ، حيث بدأ في مطاردة رأسه الحليق بالمروحة ، وعندما تهوي المروحة بلطمة ، تنزلق المروحة من تحتها ، وتلوذ بالهرب . وجسدت عيناه الطارفتان والتعبيرات العجيبة المرتسمة على وجهه ، بصورة كاملة ، حباحبة تتألق ،

وتـذوي ، تتوهـج ، وتشحب . وبدت اليـد الممسكة بـالمروحـة ، والتي تطارد الحباحبـة مطاردة محتـدمة ، كمـا لو كـانت يد شخص آخر . وفي نهاية المطاف ، أفلحت اليد في لطم الرأس بالمروحة ، فحـاول الرأس ، في جزع ، أن يلوذ بالهرب ، وبمطاردة المـروحة له ما كان الرأس ليهرب إلا لتلحق به المروحة من جديد، وبلغ توهم وجود شخص يطارد حُباحبـة من الكمال ، بحيث أنـه كان من الصعب تصديق أن ما يجري هو ببساطة لعبة بهلوانية يقوم بها رجل واحد . وهكذا أفلحت خطة تيروكاتسو ، فقـد أغربت شوسيتسوين والوصيفات في الضحك وهن في غاية العجب من الرجل الغريب ، الذي ظهر أمامهن ، وذلك منذ بداية أدائه لهذا المشهد حتى نهايته . وتبـع الحباحبـة عدد من الـطلبات المتبـاينة ، التي استجـاب لها ، واحداً إثـر الآخـر ، بالاستعبار وإبداء القنوط ، وتبين أن ما من شيء يصعب عليه أداؤه . فهو يلتقط الخاصية الطريفة في أصعب طائر أو حيـوان أو حشرة من حيث إمكـانية تقليـده ، وينقلهـا إلى الجمهـور المبتهـج بصـوتـه وإيمـاءاتـه . وكـان متملكـاً لناصيـة فن التعبيـر بـالملامـح ، وبمقدوره ، بـأدنى حركـة من عينه ، أو تكشيـرة ، أو التـواءة فم ، أن يوحي بحـالة مـزاجية أو بشكـل أو بحركـة أو حتى بلون . وشأن اللاعب والمؤدي الجوال ، تعلم أن يجيد قراءة ملامح جمهوره ، بحثاً عن أي بادرة تراخ في الاهتمام ، وحينما تـطل مثل هذه البادرة فإنه يرد عليها بتغيير الإيقاع . وفور شروع السيدات في الظن بأنهن رأين ما فيه الكفاية ، شـرع في تقليد السكـارى والبلهاء والعميان وما إلى ذلك ، مفجراً فيضاً متواصلاً جديداً من الضحك .

لم يكن قد سبق لشوسيتسوين، التي عبرت وقتـذاك السن التي يبدو فيها كل شيء مرحاً ، أن رأت شخصاً فكها وحاذقاً كهذا من قبل

قط . دمعت عيناها لفرط الضحك ، وأمسكت بجانبها ، وشهقت قائلة :

ـ آه ، كم هو مضحك حد الإيلام ، كم هو مضحك حد الإيلام ! لم أضحك في حياتي قط كالليلة .

أعجبها دوامي بشكل فوري ، وقالت لتيروكاتسو ، حينما انتهى الأداء :

ـ يا له من رجل طريف ، لن أحس بالضجر أبداً في وجوده .

ـ ها ، ها ، ها . أكان بارعاً إلى هذا الحد حقاً ؟

ـ أجل ، أجل ، ألا تستدعيه إلى هنا أحياناً ؟

ـ ليكن . إن كان أعجبك ، يمكنك وضعه في خدمتك ، وعلى أي حال ، فهو يناسب القصر الداخلي بصورة أفضل .

وضحك تيروكاتسو ، في سعادة بالغة .

بناء على طلب شوسيتسوين ، نقل دوامي إلى الحاشية الخاصة ، حيث احتل الوضع ذاته ، الذي يحتله عازف أو محترف تدليك ضرير ، وكان عمله الترفيه عن السيدات وتسليتهن ، وقبل انقضاء وقت طويل أكسبه ذكاؤه ومرحه حب الجميع . فساد مرح دائم لا ينقطع أرجاء القصر الداخلي .

أخذ تيروكاتسو يمضي المزيد والمزيد من الوقت في غرفة زوجته ، ويبادرها بقوله : « إنني أفتقد دوامي » ، وإذ تجرفه عجائب دوامي وغرائبه ، يشارك في إشادة ألعاب ركوب الجياد الوهمية تفاهة . وكان بالنسبة لشوسيتسوين على الدوام زوجاً نائياً ، ولكنها أحست الآن أنه ودع تحفظه السابق . وعزت التغيير إلى وجود دوامي خفيف الظل ، فازدادت ميلاً إليه .

فيما كان تيروكاتسو عاكفاً على الشراب ، ذات ليلة ، مع زوجته ، قال لها :

- لا ينبغي لك أن تمضي وقتك كله في الإصغاء إلى ترهات دوامي . الليلة سأحدثك بشيء ذي طابع تعليمي .

- تعليمي ؟

- بالضبط . فأنت تعيشين حياة رخية هنا ، ولكن ماذا عساك تصنعين ، على سبيل المثال ، إذا حاصر عدوّ هذه القلعة ؟ يتعين على النساء أن يقدمن المساعدة بدورهن عندما ينشب قتال . هل أحدثك بما ينبغي لك معرفته ؟

- آه ، نعم . تلك فكرة طيبة . حدثنا بالأمر ، من فضلك !

دونما وعي منها ، جلست مستقيمة الظهر ، وحسبت أنها لمحت نظرة آمرة ترتسم آثارها على محيا زوجها ، الذي اتخذ مظهراً جاداً ، على غير المألوف .

بدأ تيروكاتسو محاضرته بحصار قلعة أوجيكا ، الذي شهده حين كان صبياً ، في الثانية عشرة من عمره في ١٥٤٩، قال :

- لا يتعين على النساء أن يمضين إلى ساحة القتال ، ولكن خلال الحصار فإن لديهن أعمالاً ينبغي أن يقمن بها ، فعلى سبيل المثال هناك ما يسمى بـ « تجميل الرؤوس » .

طرح إيضاحاً تفصيلياً ، وهو يدنو تدريجياً بالصورة التي يرسمها من ذلك المشهد في العلية ، للكيفية التي تغسل بها الرؤوس ، وكيف يصفف الشعر ، وكيف تثبت لافتات التصنيف الصغيرة وما إلى ذلك . أصغت زوجته والوصيفات الأربع أو الخمس القائمات على خدمتها في شغف ، وهن يحدقن في وجه تيروكاتسو ، فيما هو

يتحدث ، وشيئاً فشيئاً ، وبينما جمهوره يستحثه ، اندمج تماماً فيما يقوله . كان أمراً نادراً بالنسبة له أن يستقر في موضعه ، وأن يستغرق وقتاً في الحديث على هذا النحو . وفيما هو يتحدث ، كانت هناك قوة غامضة وجادة في حديثه البليغ ، وصدرت كل كلمة عنه متشحة بقوة واقتدار هائلين. وإلى درجة كبيرة ـ ترى متى تعلم هذا الفن ـ رسم صورة قولية بارعة للرؤوس التي رآها في العلية ، التعبيرات التي تكسوها ، لون بشرتها ، لطخ الدم ، وحتى الرائحة ، إلى أن بدت حاضرة أمام أعين السيدات . في بداية الأمر دهشت شوسيتسوين والوصيفات لقوة ذاكرته والبراعة غير المتوقعة ، التي أظهرها في سرد ما روى ، ثم اجتذبن إلى الشعور بأنهن كن موجودات في العلية . رحن يصغين بأنفاس لاهثة ، وقد تشنجت دونما وعي قبضاتهن العارقة ، وتصلبت أجسامهن . وبمجرد أن بدون كما لو أن بؤبؤي تيروكاتسو المتوهجين ، على نحو غريب ، قد استوعباهن، قال لهن :

ـ لا ، لن تفهمن ما أعني ، إذا ما حدثتكن به فحسب .

وشرع في النظر في أرجاء الغرفة الصامتة الرهيبة ، متفحصاً الأركان المظلمة التي لم يتغلغل فيها نور المصباح . فأصاب الرعب السيدات . كانت الكلمات قد صدرت عن فم تيروكاتسو ، ولكن نغمة الصوت وحدته كانتا مختلفتين . ثمة شيء ما جديد وغريب سرى في هذا الصوت ، ثم علت ابتسامة متقلصة وراعشة وغير مفهومة شفتيه جاهدة . وفجأة عمه الشحوب ، وتضرج وجهه بالحمرة ، كما لو كان الدم قد اندفع مسرعاً إلى رأسه .

ـ هذا صحيح ، لن تفهمن تجميل الرؤوس ما لم تتدربن عليه ، ولكننا نحتاج لهذا الغرض إلى رأس حقيقيّ .

ـ رأس حقيقيّ .
وشى صوت شوسيتسوين بانزعاجها .
ـ أتخشين التطلع إلى رأس ؟
ـ كلا ، ولكن من أين تحصل على شيء كهذا ؟

ـ ها ، ها ، ها . ألست زوجة ساموراي ؟ ليس هناك أمل يرجى منك ، إن كان الشحوب سيكسوك لدى ذكر رأس بشري .

في حقيقة الأمر أخافتها عينا زوجها المحمومتان الممسوستان أكثر مما كان يمكن للنظر إلى الرؤوس أن يخيفيها . استشعرت مفارقة منذرة بالشر بين ابتسامته وبين هاتين العينين .

ـ لا ، لا . لست بالجبانة . والرؤوس لا تخيفني .
ـ أواثقة أنت ؟
ـ بالطبع .
ـ إذن فلديك شجاعة النظر إليها ؟
ـ إذا كان لديك رأس ، فدعني أنظر إليه .
ـ آه ، لدي رأس بالفعل .

ثم التفت إلى الوصيفات ، قائلاً :
ـ أظهرن شجاعتكن ! لسوف أحصل على رأس ، وأعلمكن ما ينبغي عمله . أريدكن أن تتدربن ، ولئن لم تتعلمن الآن ، فلن تكون لكن فائدة ، حينما يحين الأوان .

فجأة كسا الشحوب وجهه، من جديد. فارتج على السيدات .

ـ عليّ بدوامي !

صاح بها ، وأفرغ قدحاً من الساكي في جوفه دفعة واحدة .

« ذات ليلة ، حينما مثلت بحضرة مولاي ومولاتي ، أمرني الأمير تيروكاتسو بالدنو منه . قال : « إنه لأمر سيىء بالنسبة لـك للغايـة ، ولكني أريد رأسك الليلة ». بدا كما لو كان علي وشـك قطع رأسي بسيفـه ، فذهلت ، لأنني لم أكن قـد أتيت أمـراً إدّاً ، وأخذت في النواح والأنين ، لكنه لم يصغ إليّ . حدثت نفسي بـأنه ليس هنـاك مفـر ، وأسلمت نفسي لقدري . ولكن الأميـرة شوسيتسوين، التي عاملتني بلطف على الدوام ، أشفقت عليّ ، وتـوسلت من أجلي . فجأة انفجر ضاحكاً ، وقال : « لقد كنت أعبث به فحسب . لمَ أقتل رجلاً بريئاً ؟ إنك رجل محظوظ ، ولكن مقابل الإبقاء على حياتك ، أريدك أن تؤدي دور رجل ميت ، وأن تقلد رأساً ، ها هنا ، وعندئذ لن يكون من الضروري قتلك ». رحت أحـدث نفسي ، مندهشـاً ، بقـولي : « ما الـذي سيحـل بي الآن ». أزاح حصيـرة من الأرض ، وأحدث فتحة تبلغ القدمين في ألواح الأرضيـة . وقال : « انـزل ها هنا ، وابرز رأسك من خلال هذه الفتحة ! ».

كان على دوامي ، من خلال السماح لوجهه وحده بالظهور فوق الفتحة ، أن يعطي مظهر رأس قـابـع على الأرض . وربمـا لم يكن هذا في حد ذاته بالشيء المتعذر على نحو خاص بالنسبة له ، نظراً لبراعته في التمثيل الصامت ، ولكن تخيل القيام بذلك لوقت طويل للغاية دون أن تطرف له عين ! كان هذا هو الدور الذي أجبر دوامي على القيام به .

ـ أتفهم ؟ عليك بالتصرف كأنما لقيت حتفك تماماً . ينبغي أن تظل بلا حراك بالمرة ، إلى أن آمرك بغيـر ذلك . ولئن أتيت بـأدنى حركة ، فإني مستخدم معك سيفي .

وبعد توجيه هذه العبارة إلى دوامي ، التفت تيروكاتسو إلى السيدات :

ـ عليكن بمعاملته كأنه رأس رجل ميت . لا ينبغي أن تعتقدن أن دوامي رجل حي !

تخير ثلاث نساء . وعهد إلى كل بوظيفتها : غسل الرأس ، وضع أدوات التجميل عليها ، وإلصاق لافتة التصنيف بها .

عندما تم تجميع مخراز وحوض ولوح للرؤوس ومنضدة ومبخرة ، والأدوات الأخرى الضرورية لبعث مشهد العلية ، اختفى دوامي المسكين تحت الأرضية ، من كتفيه فما دون ذلك ، وحوّل نفسه إلى رأس صامت لا يحير حراكاً . كان تعبير الموت الذي رسمه على محياه حاذق التنفيذ ، ولكن كلما كان أفضل ذكّر الجميع بالمحنة التي يعانيها دوامي ، في اصطناعه لهذا التعبير . وكانت النتيجة مضحكة للغاية . عندما فكرت السيدات في أن هذا المهرج ذرب اللسان يطبق ضاغطاً بأضراسه ، خوفاً من إهدار دمه ، شعرت بقدر من الشفقة عليه يقل عن رغبتهن في دفعه إلى العطس . ولكن بالنسبة لدوامي لم تكن هذه المحنة أضحوكة . « مصطنعاً هيئة مترعة بالأسى ، ثبتُّ عيني على بقعة واحدة وأبقيت جفني مغمضين قليلاً . لم يكن بمقدوري ابتلاع ريقي الذي تجمع في فمي أو لوي وجهي ، إذا ما شعرت برغبة في حك خيشومي . ولكن أقسى ما في الأمر أنه لم يكن بمقدوري أن أطرف بعيني . وحدثت نفسي قائلاً بأنه سيكون من الأفضل حقاً للمرء أن يلقى حتفه على احتمال مثل هذا العذاب ». وهذه الشكوى غير مألوفة من دوامي ، ولا بد لنا من الافتراض أن التجربة قد تركت أثراً عميقاً في نفسه . وغدت المحنة أشد قسوة مع الإطالة فيها؛ لأن النسوة رحن يجذبن رأسه في خشونة إلى هذه الجهة وإلى تلك ، وهن يتدربن . لكن دوامي الذي يأخذ الأمور على عواهنها يمكنه أن يكون شخصية مقيتة كذلك ، وحتى في

غمار معاناته حرص على أن يرقب ما يجري في الغرفة .. كانت عيناه ، بالطبع ، ثابتتين على نقطة واحدة ، وظلت الأشياء التي لا تقع في مجال رؤيته معتمة ، عند ركن عينه . ولكنه بقدر الإمكان حرص على الانتباه الشديد إلى سلوك الناس في الغرفة وراقب وأصغى لكل شيء يتجلى للحواس .

كان ما بدا لدوامي أمراً شديد الغرابة متمثلاً في الجدية القاتلة ، التي راح تيروكاتسو ينظر بها إلى ذلك المساق السريع العبثي في تمشيط شعر الرؤوس . وعندما كانت قصبة المشط تطرق رأس دوامي ، كان مما يبعث الضحك بالنسبة إليهن تقليده الجاد لوجه ميت . وشرعن في الضحك رغماً عنهن .

صاح تيروكاتسو ، بصوت باتر :

ـ من هي ؟ من التي ضحكت ؟

توهج الغضب سعيراً مسجوراً في عينيه . وللحفاظ على مناخ وقور تحدث في صوت خفيض ، ومنع النسوة من رفع أصواتهن . وعندما تخفق إحداهن في القيام ، على وجه الدقة ، بما قاله كان غضبه يتفجر مندفعاً . فحدثت النسوة أنفسهن بأن لعبة الليلة غريبة بعض الشيء . في البداية خامرهن الشك في أن الأمير ودوامي أعدا الأمر سلفاً كمزحة لإخافتهن . وكان رأس دوامي حقاً غيرمناسب على الإطلاق للتدرب عليه ، على الرغم من تعبيره الحاذق ، والطريقة المقنعة التي بدا أن رأسه موضوع بها على الأرض ؛ لأنه كان لا يزال ملتصقاً ببدنه ، وما كان بوسع النساء تقليبه أو التحرك به . واستحال مع قمة رأسه الحليق أي تدريب أو تمشيط للشعر . وكان استخدام بطيخة أمراً أسهل وأيسر ، فعلى الأقل ، كن سيوفرن على أنفسهن عناء إحداث فتحة في أرضية الغرفة . ولكن بدا أن

هناك شيئاً ما يقبع خلف تـوتر تيـروكاتسـو الجهم ، ولم تكن النسوة على يقين مما إذا كان يمـزح أم لا . وانطبـق الشيء عينـه على دوامي في دور الرأس الذي يقوم به . فـربما كـان الأمير والسيـدات يرفهون عن أنفسهم على حسابه ، فيما راح يحدث نفسه به ، ولكنه حينما لمح وجه تيروكـاتسو ، لم يكن هنـاك فيه ظـل للعبث ، وبدا التعبيـر الذي تخيله دوامي مـرتسماً على محيـاه مخيفاً ، على نحـو خاص ، حيث لم يكن بمقدوره رؤية الوجه بوضوح ، وإنما استشعر بوجوده على نحو ما . وحرك صوت تيروكاتسو كذلك خيال دوامي ، فخلال المحاضـرة التي همس بها للسيـدات ، كان صـوته حـاداً ، ويوحي بأن صاحبه جف حلقه ، كأنما هو صـوت مريض محمـوم . تردد متوتراً ، بل وحتى محاكياً لصوت النساء . ولم يسبق لدوامي أن سمعـه يتحدث على هـذا النحو من قبـل قط ، فـلـه عـادة صـوت المحارب، الذي يتـردد عميقاً ، فخيمـاً ، بعد أن صـاغته سـاحات المعارك . أما الليلة فقد كان يتحدث برعشة غير عادية كأنه يكافح من أجل السيطرة على نفسه .

وعلى أية حال ، سرعان مـا توافـر لدوامي سبب وجيـه للشعور بـالقلق ، ففيما كـان تيروكـاتسـو يـواصـل محـاضـرتـه عن تجميـل الرؤوس ، وصلت مسيرة حديثه إلى موضوع « الـرؤوس ـ النساء » ، وقال مشيراً إلى دوامي :

ـ إن هذا الرأس لهأنف ، وذلك ليس بالأمر الواقعي تماماً ، فلا أستطيع تدريبكن على النحو السليم ، دونما رأس ـ امرأة .

وقد أفعمت هذه الكلمات نفس دوامي بالخوف، فالمحاضرة تنحو منحى خـطراً ، وفي نهايـة المطاف فـإن وجهه الغـالي قـد يتعـرض للتشويه . لقـد أفلت من براثن المـوت ، ولكن بدا أن أنفـه ربما لا

يمكن إنقاذه ، ثم وكأنما في معرض تأكيد مخاوف دوامي ، دفع تيروكاتسو بأنف دوامي ، ضاغطاً إياه على شكل كماشة .

قال :

ـ هلم ! هلم ! أحضرن لي تلك الموسى ، فقد أبتر ذلك الشيء الآن ؛ ومن هنا يتسطح هذا الجزء ، ويغدو جميلاً ها هنا ، يصبح رأساً ـ امرأة حتماً ، أريد أن يكون كل شيء أصيلاً بحق الليلة .

حدّث دوامي نفسه ، قائلاً بأن الأمر قد قضي ، وأسقط في يده، لكن شوسيتسوين والوصيفات ذهلن لهذه الخطوة ، بحيث لم يحرن حراكاً ، فحدق تيروكاتسو في السيدات ، واحدة إثر الأخرى ، كأنه يتفقدهن بعينين متسعتي الحدقتين ، يخالط الدم بياضهما وتتوهجان حد السطوع .

ـ ماذا دهاكن ؟ قلت لكن عليّ بتلك الموسى !

استقرت عيناه على أجمل التابعات ، وكانت فتاة في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها ، تدعى أوهيسا . انكمشت أمام نظرته الحادة ، وأخفت وجهها الريان البريء ، كأنما تبتهل أن ينقضي هذا الرعب وشيكاً . ولكن فيما كان تيروكاتسو يحملق في شعرها الأسود المتألق ، الذي ينسدل على كتفيها ، وفي الأصابع البيضاء الرقيقة ، التي استقرت في حجرها ، زحفت ابتسامة مرتجفة إلى شفتيه مجدداً .

ناداها قائلاً :

ـ أوهيسا ، أوهيسا ، هاتي الموسى !

ـ لبيك ، يا مولاي !

كان ردها مسموعاً بالكاد ، نهضت وهي لا تزال منكسة الرأس ،

وفيما الهواء الصامت يرتجف في مسار نسيم رقيق ، ألقى ضوء المصباح ظلاً مراوحاً بين البروز والتراجع على وجه دوامي .

ـ اجلسي ها هنا !

قالها تيروكاتسو ، ناقلاً الفتاة بإشارته لتجلس أمام الرأس ، وأضاف :

ـ اقطعي ! امسكي بالموسى هكذا ، أجل على هذا النحو ، ثم اقطعي الأنف ها هنا ، أبقيه مسطحاً ونظيفاً !

ـ نعم ، يا مولاي !

ـ استمري ! هذا رأس رجل ميت ، ليس هناك ما تخشينه .

ـ عفوك يا مولاي !

ـ كفاك ! اقطعي ! اقطعي ، أقول لك !

ارتجفت يد أوهيسا ، فيما هي تمسك بالموسى متشنجة الأصابع . أدخل الأمر الذي أصدره تيروكاتسو الرعب في قلبها ، لكن وجه دوامي أخافها على نحو أكبر ، فحتى في ذلك الوقت كانت العينان مستقرتين على بقعة واحدة ، وظل التعبير المرتسم على وجهه على حاله كذي قبل . كان ساكناً ، على نحو مفزع ، فراحت تحدث نفسها بأنه ربما كان ميتاً حقاً ، حاولت الضغط على قصبة أنفه والطرق عليها ، فابتعدت أصابعها الرشيقة ، وقد غزاها البرد ، وكستها الرطوبة . أمعنت النظر فيه ، فرأت عرقاً بارداً يتحدر من جبينه على صدغه . ثم حينما التمع نصل الموسى أمام وجه الميت غدا الوجه شاحباً ، على حين غرة .

الآن ، حل الدور على شوسيتسوين لتتحدث :

ـ مولاي ، أتوسل إليك ، أرجوك أن تبقي عليه !

ـ لا ، ليس هناك شيء في غمار قطع أنف ميت ، لن تكون أوهيسا ذات جدوى لي أبداً ، إذا أخافها مرأى الدم ، إنني أريد تعليمها !

ـ ولكن عليك بالتفكير في دوامي المسكين . ألا تؤثر في نفسك الطريقة التي يطيع بها أوامرك ؟ أرجوك ، أرجوك ، ضع في الاعتبار إخلاصه وأبق عليه !

فجأة بدا تيروكاتسو واعياً بذاته ، فصدرت عنه ضحكة واهنة :

ـ ها ، ها ، ها . ليكن ، ليكن ! ما دمت ترغبين في ذلك . سأتجاوز عن هذه الفكرة .

ـ آه ، أحقاً ستفعل ذلك ؟

غدت ضحكة تيروكاتسو أكثر مرحاً الآن .

ـ ها . ها . ها . هوني عليك ! إنما كنت أمزح فحسب ، عندما قلت إننا سنبتر أنفه . لقد كان تقليده متقناً للغاية ، حتى دفعني إلى محاولة إخافته .

ثم التفت إلى دوامي :

ـ أحسنت ، إنك تنفذ أوامري على وجه الدقة . وأخذاً في الاعتبار بموقفك الطيب ، سأدعك تحتفظ بأنفك ، لكني سأطليه باللون الأحمر ، ها ، ها ، ها ، ها ، ما رأيك ؟ أأنت ممتنّ لي ، إن كنت ممتناً فقل ذلك !

ظلّ الرأس صامتاً ، كأنه حجر .

ـ أجبني ! فقد أذنت لك بالحديث .

ـ أجل ، يا مولاي !

قالها دوامي أخيراً ، لكنه ظل مبقياً على التعبير الميت ذاته ، وتلاعب بصوته كما لو كان يتناهى من مكان آخر .

ـ أتحس بعدم الارتياح في وقفتك ؟
ـ أجل يا مولاي !
ـ ولكن عدم ارتياحك أفضل من بتر أنفك . أليس كذلك ؟
ـ بلى ، يا مولاي !
ـ آه ، ها ، ها ، ها . إنه طريف حقاً .

سرعان ما جلبت أوهيسا ، مكان الموسى ، طلاء أحمر وفرشاة . وبعد أن طلت أنف دوامي باللون الأحمر المتألق ، نسيت الشابات خوفهن ، الذي ساورهن قبل لحظة ، وشرعن في الضحك الطفولي . وكالمعتاد ارتفع رنين صوت شوسيتسوين المرح . وتدريجياً ، تم إقناعهن بأن تيروكاتسو قد خدعهن بخدعة مقيتة ، وفي نهاية المطاف ، غدا دوامي ألعوبة لهن .

صحن ، وهن يلطمنه على رأسه :
ـ دوامي ، دوامي ، هاك ! يفترض أن تكون ميتاً !

ورحن يوسعنه إيلاماً بالمخرز في شحمتي أذنيه وخديه ، مضيفات :
ـ إن تحركت أخبرنا سموّه ، فقتلك !

وبعد أن أفرغن طاقة خبثهن كاملة ، وغادرن الغرفة ، سمح له في نهاية المطاف بالزحف إلى خارج الفتحة الموجودة في الأرضية ، والعودة إلى الحياة من جديد .

وفيه يسفح دوامي دمع الامتنان وتحزن شوسيتسوين

لم تنته الأهواء المتقلبة التي اعتملت في صدر تيروكاتسو بانتهاء تلك الليلة . ففي الليلة التالية ، كذلك كان في حالة مزاجية معابثة .

ومتصنعاً أنه طاغية صغير ، راح يستحث شوسيتسوين والوصيفات على مشاركته في التلاعب برأس دوامي . وأمر باللون الأحمر ، فطلى به الأنف ، وقال :

ـ الليلة دعونا ننظر إليه من الفراش !

وفي التو أمر بإحضار فراش إلى الغرفة واضطجع مع زوجته ليستمتعا بمنظر أنف دوامي الأحمر .

بالنسبة لدوامي ، كانت تلك محنة تفوق محنة الليلة السابقة ؛ ففي تلك الليلة كان عليه أن يواظب على وضعه ذاك ، خلال ساعات المساء ، ولكنه استعاد حريته مجدداً ، في وقت متأخر من الليلة . أما هذه المرة فقد اضطر للوقوف تحت الأرضية ، طوال الليل ، ورأسه ناتىء من الفتحة . وتعطي مذكراته الانطباع بأن الغرفة كانت فسيحة ، والفتحة التي يطل برأسه منها في منتصفها ، على وجه التقريب . وأمر تيروكاتسو بنصب فراش شوسيتسوين على بعد عشرة أقدام أو اثني عشر قدماً من الفتحة ، أي من رأس دوامي ، فيما امتد فراشه هو على بعد أقدام قليلة إلى الوراء من فراشها . كان الصيف ينشر على الدنيا غلالته الحارة ، فعلقت كلة رقيقة فوق فراشي الديميو الشاب وزوجته . ووضع مصباح على كل من جانبي رأس دوامي وستارة تطوى وراءها ، بحيث يمكن رؤية الرأس بوضوح من تحت الكلة . وعلى الرغم من أن دوامي كان بمقدوره أن يتبين على نحو معتم السطح اللين للكلة في الظلام ، إلا أنه لم يكن باستطاعته رؤية شيء من الزوجين المضطجعين داخلها .

ولكن كان هناك المزيد مما يمكن أن يضاف إلى معاناة دوامي ، فوق هذا كله . فبعد أن صرفا الوصيفات ، شرعا في معاقرة الشراب من جديد .

ـ أعلى هذه الشاكلة يتبدى الرأس ـ المرأة يا مولاي !؟

قالتها شوسيتسوين متسائلة ، ولم تكن طويلة الباع في عالم الشراب ، لكنها عندما سكرت ، بدا لها كل شيء طريفاً ومسلياً . والليلة بصفة خاصة كانت تبدو شديدة المرح ؛ ربما لأن زوجها دفعها إلى تناول العديد من أقداح الساكي .

ـ كلا ، بالمرة . فهناك تجويف في وجه الرأس ـ المرأة بدلاً من أنف أحمر . إنه أشد فظاعة .

أغربت شوسيتسوين في الضحك .

ـ الآن ، ونحن وحدنا ، ألا يخيفك هذا الرأس قليلاً ؟

ـ إطلاقاً .

ـ وماذا لو لم أكن معك ؟

ـ سأكون على ما يرام ، حتى ولو لم تكوني هنا . ما الذي يبعث على الخوف في رأس أحمر الأنف ؟ إنه تدفعني إلى الضحك فقط .

ـ ومن تلك التي شحب وجهها عندما دعوت بالموسى البارحة ؟

ـ تلك أكذوبة ، أكذوبة . كيف أمكنك قول شيء كهذا !

ـ لكنه صحيح . بل كنت أكثر شحوباً من أوهيسا .

ـ طيب ، ساورني شعور بالأسى على دوامي ؛ ولذا طلبت منك التوقف . لم أكن خائفة .

ـ أتساءل إن كان هذا صحيحاً .

ـ ما أقبح هذا ! أتظنني خائرة العزم على هذا النحو ؟

ـ إذا كان ذلك الرأس يعود إلى جثة حقيقية ، ترى أكانت تواتيك الشجاعة لبتر الأنف بنفسك ؟

ـ بالطبع . إنني أقوى من أوهيسا ، أتمنى أن تفكر في شيء مخيف أكثر من ذلك ، شيء أكثر امتلاء بالتحدي .

قادهما تضاحكهما ، على نحو ما ، إلى موضوع رؤوس الكهنة العاديين .

قال تيروكاتسو :

ـ بالمناسبة ، أين تعتقدين أن لافتة التصنيف تثبت على رأس أصلع ؟

ـ أين تضعها ؟

ـ تحدثين ثقباً في الأذن ، وتثبتين لافتة التصنيف هناك .

ـ ثقب في الأذن !

قالتها ، ومن جديد انفجرت ضاحكة . أضافت :

ـ لكني أحسب أنه ليست هناك طريقة أخرى . أهناك غيرها ؟

ـ ما رأيك ؟ لو كانت لديك الشجاعة فعليك بتجريب المسألة . شيء بسيط كهذا لن يؤذي أحداً .

ـ بم أحدث الثقب ؟

ـ يكفي مخراز أو طرف سكين . طعنة صغيرة ، لن تؤذي على الإطلاق .

ـ نعم . طيب . الأمر قاس قليلاً ، لكني أحسب أنني سأجربه .

ـ هلمي ! هلمي !

وتتردد الضحكات .

ـ لا تحاولي التنصل من الأمر بالضحك !

ـ لست أحاول التنصل منه ! فكلما تطلعت إلى هذا التعبير ، ازددت رغبة في القيام بالأمر .

ـ يبدو كأنه يقول : أرجوك قومي به ! أرجوك قومي به !
ويتردد المزيد من الضحكات .

ـ أواثق أنت أن كل شيء على ما يرام ؟
ـ أجل ، بالطبع .

تطلعت شوسيتسوين خارج الكلة قائلة :

ـ دوامي ، أتستطيع سماعنا ؟ أبمقدورك الاستماع لحوارنا ؟ سمحت لك بالحديث .

رد رأس دوامي :

ـ أجل ، يا سيدتي !
ـ إنها طعنة صغيرة ، بمقدورك احتمالها .
ـ نعم ، يا سيدتي !
ـ يقول إن الأمر ليس مؤلماً ، على الإطلاق .
ـ نعم ، يا سيدتي !

ـ عندما أفكر فيك وهذا التعبير مرتسم على وجهك ، ولافتة دالة تتدلى من أذنك ، لا أستطيع مقاومة الأمر .

ـ نعم ، يا سيدتي ! هذا أمر طبيعي فحسب .
ـ الآن عليك بالصمت من جديد !

كان الساكي ، الذي يفوق استيعابها ، قد دفعها إلى التخلي عن تحفظها المعتاد ، وراحت تتحدث كأنها ولد شقي .

ـ أرجوك ، تعال وانظر يا مولاي !
ـ علينا أن نصنع لافتة . أحضري ورقة وسكيناً !
ـ نعم ، نعم . ها هما لديّ ، هنا !

خرجت بالفعل من الكلة ، مستخرجة سكيناً وورقة من صندوق

أدوات كتابتها ، وهي تضحك في ابتهاج . وعلى النحو التالي يصف دوامي ما وقع :

« أمـر سمـوّه بـاستخـدام أذني اليمنى . فـأمسكت الأميـرة شوسيتسوين بشحمة أذني اليمنى في يدها ناصعة البياض ، وتفحصت رأسي للحظة ، وندت عنها ضحكة خفيضة ، لا تفوت الأذن . راح الأميـر تيروكـاتسو يـرقب من الجانب . تسـاءل : « هل استبـد بـك الخوف ؟ ». فردت قائلة بابتسامة مشرقة : « ولِمَ ينبغي أن أخـاف ؟ انـظر إلى هذا التعبيـر عن الموت المـرتسم على محياه ! إنـه مسلٍّ للغاية . لا بـد أن الخوف أخـذ منه كـل مأخـذ . لكن هذا التقليـد رائع . لا يبدو عليه أنه يدرك أي شيء مما يجري حوله ». أمسكت السكين بيدها اليمنى ، ودفعت بها في شحمة أذني اليمنى ، فلوّث مسيل الدم يدها ، التي تحاكي الكتّان الأبيض في لونه . وحتى عند ذاك ، واصلت جمودي ، كأنني ميت . قالت ضاحكة : « يا لـه من كائن صبور ! » ولكن ربما كانت روحهـا المعنويـة قد تـداعت ، في نهاية المطاف ، ذلك أنها دون أن تتلفظ بشيء ألصقت اللافتة مسرعة بـأذني ، وهرعت عـائدة إلى داخـل الكلة مع زوجهـا . ومضيـا في حـديثهمـا حتى وقت متـأخـر من الليـل بـأعــظم قـدر من الــدفء والحميمية ».

ويواصل دوامي ، اعترافاته ، قائلاً :

« لم يحدث بعد ذلك أبداً أن استـدعيت لتمثيل دور الـرأس ، وأمر سموّه بتغطية الفتحة الموجودة في الأرضية . وعنـدما مثلت في حضرة الأميرة شوسيتسوين، بعد ذلك بفتـرة قصيرة ، حـدقت دونما ارتيــاح في جــرح أذني ، وقــالت : « احتسيت في تلك الليلة من الســاكي أكثر ممـا ينبغي لامرأة ، وقـد سلبني رشـدي ، فعـاملتـك

بقسوة ، وإنني لأرجو أن تسامحني !». رددت قائلاً : « لكنني مفعم بالامتنان ، فلم يكن هناك ما يحول دون قيامك بقتل رجل لا شأن له يذكر مثلي ، لكنك بدلاً من ذلك أبقيت على حياتي . وهذا الخدش اليسير ليس بالأمر الذي يكترث له على الإطلاق . وفي حقيقة الأمر ، فإنني لن أنسى قط ، لا في هذه الحياة ولا في الحياة التي ستليها ، أنك قد لمستني بيدك ». انخرطت في البكاء عرفاناً وامتناناً ، ولا يزال هناك ندب في أذني اليمنى ، ولكنني حينما أفكر فيه باعتباره تذكاراً من الأميرة النبيلة في لهوها ، فإن أذني هذه لا تبدو منتمية إليّ على الإطلاق ».

أيمكن أن ترتكب امرأة رقيقة وورعة من نوع شوسيتسوين مثل هذا الخطأ ؟ إن من الصعب الاعتقاد بهذا ، والمرء لا يود أن يقول به . لأن هذا الخطأ سيكون الشائبة الوحيدة في حياتها ، التي امتدت ما يزيد على الثلاثين عاماً ؛ ذلك أن قيام زوجة ديميو ، استجابة لخاطرة سكرى ، بإحداث ثقب في أذن إنسان حيّ هو أمر كافٍ ، ما لم يضعه المرء في ضوء ما سبقه من أحداث ، للقضاء على سمعتها ، وإلقاء ظل على شخصية بديعة . ولكني أود أن أطلب من القارىء أن يضع موضع الاعتبار أنها كانت يافعة في عامها الرابع عشر ، وأن تلك كانت حيلة زوجها ، التي أعدّ لها مسبقاً ، وأنها هي التي دفعتها خطوة فأخرى للوقوع في غلطتها تلك .

وربما كان تيروكاتسو قد بدأ في وضع خطته ، عندما تعرف على دوامي لأول مرة . وقد غيّر موقفه المتسم بالبرود نحو شوسيتسوين ، واجتذبها إليه ، ثم جلب دوامي إلى القصر الداخلي ، وحرص على أن يكتسب هذا الأخير قلوب شوسيتسوين ووصيفاتها . ولكن يبدو من المحتمل أن نيته الوحيدة كانت تنفيذ مشهد « التدرب على تجميل

الـرؤوس ». ولا بد أن هـدفه منـذ البـدايـة كـان جعـل دوامي يقلد الرأس ـ المرأة ، لتحريض شوسيتسوين على إحداث ثقب في أذنه ، ثم التحديق في الرأس ، بينما يتبادل مع زوجته الملاحظات ، تحت الكلة . وخـلاصة القـول ، إنه أعـاد بعث المشهد الـذي صوّره في أخيلته الجامحة ، منذ مغادرته لقلعة جبل أوجيكا . وبإحلال دوامي محل نوريشيجي وشوسيتسوين مكان الأميرة كيكيو ، راح يخفف من وقر العذاب الذي استشعره ، منذ افترق عن محبوبته الأولى .

ورغم ذلـك ، فـإن الحقيقـة القـائلة بـأن شـوستسـوين قـد استمتعـت ، ولو للحظات ، بتعذيب دوامي ، وأنها قد انغمست في هذه اللعبة التي تقشعر لها الأبدان ، والبعيدة كل البعد عن سلوكهـا العادي ، يبدو أنها تقف شاهداً على وجود استعداد مسبق ، عند كل النساء ، إذا ما تم توجيههن بالشكـل المناسب ، للتمتـع بالقسـوة ، وبتعبيـر آخر على وجـود ميل بغيض إلى الـوحشيـة . وعنـد معظم النساء ، وبخاصة في حالة امرأة ذات ذهن سام ، مثل شوسيتسوين ، فإن هذا السلوك لا يستمر طويلاً . والصورة الواردة عن اعتذارهـا ، المشوب بالانزعاج ، في كتاب « اعترافات دوامي » تفصح عن مدى ندمها على هذا الخطأ المحـزن ، الذي ارتكبتـه . وعلى الرغم من أنها لم يقدر لها أن تستشف حقيقة دوافع زوجها المقيتة ، فلا بد أنها قد أحست بأن هناك شيئاً غـريباً في تصرفات زوجهـا ، واستشعرت بصورة حدسية فزعاً وقلقاً غامضين . ولئن كان الأمر كذلك ، فلا بد أن أهم سبب لذلك هو تجربتها في تلك الليلة ، عندما : « مضيا في حـديثهمـا حتى وقت متـأخـر من الليـل بـأعـظم قـدر من الـدفء والحميمية » . وتقول الكاهنة مايوكاكو في كتابها الموسوم « حلم ليلة » إن شوسيتسوين لم تضطجع قط مع أمير موساشي ، لكن هذا لا يعدو

أن يكون تخميناً من جانبها . فشهادة دوامي ، الذي كان خارج الكلة مباشرة ، لا تدع مجالاً للشك . ومن الواضح أن تيروكاتسو قد نقل الفراشين إلى تلك الغرفة ؛ لأنه كان يعتزم استخدام منظر رأس دوامي كعنصر استثارة . وعلى أية حال ، فإنه من الأمور المألوفة بالنسبة لعروس ساذجة أن تنظر فجأة إلى الرجال باعتبارهم مخلوقات مقززة . وهكذا ، يمكننا أن نتخيل ما هو الانطباع الذي تركه تيروكاتسو في نفس شوسيتسوين ، بهذه الحيلة الخسيسة . صحيح أنها شاركت في اللهو خلال خمارها ، ولكنها حينما عادت إلى وعيها ، أدخلت ذكرى تلك الساعات الكابوسية الرعب في قلبها . ولا شك أنها استشعرت ، وإن يكن ذلك على نحو غامض فحسب ، أن تيروكاتسو يريد أن يلعب اللعبة ذاتها ، في الليلة التالية أيضاً . ولكن رغباته أحبطت بعد تلك الليلة الأولى . فعلى نحو ما يقول دوامي : « لم يحدث بعد ذلك أبداً أن استدعيت لتمثيل دور الرأس ، وأمر سموّه بتغطية الفتحة الموجودة في الأرضية ». إذن ، ففي الفترة ما بين الليلتين تباعدت مشاعر الزوجين الشابين . وأياً كان دأب تيروكاتسو في السعي وراء اللذة ، فقد ألفى نفسه يفتقر إلى الصفاقة اللازمة لامتهان شوسيتسوين من جديد ، في مواجهة حزنها وندمها الممزوجين بالورع .



الكتاب السادس

وفيه تسقط قلعة أوجيكا

ويؤسر نوريشيجي

يتضمن كتاب « حوليات حرب تسوكوما » الصورة التالية :

« طوال سنوات عديدة ، عهد الأمير نـوريشيجي ، متعللاً بسوء حالته الصحية ، بإدارة شؤون مقاطعته إلى كبار الحاشية ، واعتكف في القصر الداخلي ، حيث دفعه تولهه بالأميرة كيكيو إلى نسيان شؤون الحكم كلية . ولم تبد الأيام والليالي بالنسبة له ممتدة بما فيه الكفاية ليترع نفسه باللذة من « الستارة الخضراء والمخدع القرمزي ». وشعر الجميع ، ابتداء من الساموراي حتى العامة ، بالقلق على مصير آل تسوكوما . في الشهر الأول من عام ١٥٥٩ ، أصدر نوريشيجي أمراً مفاجئاً، بالقيام بحملة ضد أتباع معبد هيجاكي ، في مقاطعة أسانوما ، وبعث شيدا تومينوكامي على رأس ثلاثة آلاف فارس لإخضاعهم ، ويمكن رد خلفية هذا التحرك إلى خريف عام ١٥٥٧ ، عندما قام أحد كبار رجال حاشية آل ياكوشيجي ، ويدعى بابا إيزو مينوكامي ، باغتصاب مكانة سيده ، بمساعدة من قوات معبد إيشياما هونجان . وإذ حرم الأمير ماساهايد من المقاطعة ، التي حكمها أسلافه ، على هذا النحو ، سارع بالهرب من ميناء ساكاي إلى الأقاليم الوسطى ، واختفى ، دون أن يترك وراءه أثراً . وقد حزنت الأميرة كيكيو زوجة الأمير نوريشيجي ، والأخت الصغرى للأمير ماساهايد ، أشد الحزن لذلك . وكان آل تسوكوما وآل ياكوشيجي قد ارتبطا ، من خلال المساعي الحميدة

للحكومة العسكرية ، برابطة المصاهرة وبعهود الصداقة المتبادلة لسنوات طويلة ، ومع ذلك فإن الأمير نوريشيجي رغم سقوط آل ياكوشيجي تجاهل الخيانة التي أبداها بابا ، ولم يحرك ساكناً للانتقام لأصهاره . وقد اعتقدت الأميرة كيكيو أن مثل هذا الجمود عار على عائلة المحارب ، ولكن الأمير نوريشيجي كان في حالته الراهنة يفتقر إلى مضاء العزم للقيام بأي شيء ، وكل ما كان بوسعها هو أن تحزن لارتباطها بمثل هذا الزوج العاجز . وذات ليلة ، ورغماً عنها ، انهل دمعها على وجه زوجها خلال نومه ، فاستيقظ ، وسألها دهشاً عما يدعوها إلى البكاء . وفي البداية ، بدا من المستحيل بعث العزاء في نفسها ، ولم تحر رداً ، لكنها في نهاية المطاف رفعت رأسها ، وقالت : « لقد أطاح تابع خائن ببيت أبي وأسلافي ، واختفى أخي الوحيد . ويستبد بي الحزن الآن لأني أوشك على فقد زوجي على يد الخائن نفسه المدعو بابا » . وشرعت في البكاء ، دون أن يرقأ لها دمع . دهش الأمير نوريشيجي إلى أبعد حد ، وألح عليها لتمده بمزيد من المعلومات ، فقالت إن بابا قد اجتذب أتباع معبد هيجاكي إلى صفه ، وراح يتآمر معهم على الإطاحة بآل تسوكوما . وكبرهان على هذا أطلعته على رسالة سرية ، ففتح الوثيقة ، وقرأها . وبدا أنها رسالة من معبد هيجاكي إلى بابا ، تتضمن دعوة صريحة لغزو مقاطعة تسوكوما ، من الشرق والغرب . وعندما سألها عن كيفية حصولها على هذه الرسالة ، قالت إن تابعاً سابقاً لآل ياكوشيجي يدعى ماتوبا شينزابورو (وهو ابن لمربية الأميرة) وقع على الرسالة ، بمحض الصدفة ، فمررها إلى أمه . وسارع الأمير نوريشيجي ، الذي اعتقد أن هذه الرسالة أمر شديد الخطورة ، إلى عقد اجتماع مع كبار أتباعه ومساعديه ، حيث أعرب لهم عن شعوره بالانزعاج . أشار المساعدون إلى أن أتباع معبد هيجاكي قد ظلوا ، على امتداد

سنوات طويلة ، يلتزمون موقفاً ودياً بشكل خاص من آل تسوكوما ، وخدموهم عبر عدة أجيال بإخلاص لا مثيل له ؛ ومن هنا فإنه لا يعقل أن يتحالفوا مع الخائن بابا ، وأن يرفعوا السلاح في مواجهة تسوكوما . وخلصوا إلى أنه لا يتعين الاعتقاد على نحو غير انتقادي بأن الرسالة صحيحة ، كما لا ينبغي شن حملة على أتباع هيجاكي إلا بعد تدبر حريص للأمر . أصغى الأمير نوريشيجي لما يقال ، ثم متسائلاً : « أتشكون في زوجتي ؟» اندفع غاضباً ليعتكف في القصر الداخلي . وعقب ذلك ، واصلت الأميرة كيكيو نواحها ، متوسلة ليلة وراء الأخرى : « حتى إذا كان الشك يداخلك في الرسالة . فمن المؤكد أن أتباع هيجاكي هم أعداؤك . ومعلوم للكافة أن رفاقهم من أتباع مذهب إيكو قد ضموا قواتهم إلى قوات بابا لطرد أخي . أرجو ألا تتردد أكثر من هذا في التنكيل بهم !» . وبشكل ما بلغ أمر هذه المخاوف معبد هيجاكي ، في الوقت نفسه ، على وجه التقريب ، فدهش أتباعه ، ذلك أنهم ، على امتداد سنوات التحالف ، لم يضمروا شراً لأمراء تسوكوما ، وبالتالي كان مثار قلق شديد لهم أن يعتقدوا بأن قوة سترسل ضدهم لمعاقبتهم ، دونما ذنب جنوه ، فقرروا أنه من الخير لهم شن هجومهم الخاص ، وإثبات شجاعتهم ، بدلاً من القعود وانتظار إلحاق الدماء بهم . وفي أخريات عام ١٥٥٨ ، على وجه التقريب ، شرعوا في حشد قوة هائلة .

ربما كان سقوط قلعة أوجيكا قد بدأ بالهجوم على أتباع مذهب إيكو ، على نحو ما يقول التاريخ الرسمي ، ولكن بوسعنا الافتراض بأن أمير موساشي ، في غمار عمله من وراء الستار ، قد دفع الأميرة كيكيو إلى إقناع نوريشيجي ، وفي نهاية المطاف إحداث مواجهة مع أتباع معبد هيجاكي . ذلك أن تيروكوني ، أمير موساشي ، قد توفي

في الشهر العاشر عام ١٥٥٨في قلعة جبل تامون . وتولى تيروكاتسو رئاسة العشيرة مكان أبيه ، وحمل لقب أمير موساشي ، وبما أنـه لم يعد هناك أحد يستطيع كبح جماح طموحه ، غدا بمقدوره إعداد مـا يشاء من الخطط . وبديهي أن هدفه الأول كان الأمير العاجز القابـع فـوق جبـل أوجيكـا ، تسـوكـومـا نـوريشيجي ، المجـرد من الأنف والأذن ، والقـابـع مكتـوف اليـدين ، في انـتـظار حتفـه . راح أميـر موساشي ، في غمار اتقاده بشهـوة امتلاك الأراضي ، يـرمق جيرانـه بعين النمـر الجائـع ، فرأى الـطريدة المثـالية . ولئن تـرك الفرصـة تضيع ، فمن المؤكد أن غيره سينقض عليها . ولم يكن هناك ما يدعو إلى التـردد ، لسوف يسبق الآخـرين ، ويستصفي مقاطعـة تسوكـوما لنفسه . ولكن من المؤكد أن الأميـر موسـاشي كانت تحـركه دوافـع أخرى غير الطموح كذلك . ففي سويداء قلبه تحرك شيء لا علاقة له بتطلعاته باعتباره قائداً عسكريـاً ـ حب هادىء ، رقيق ، لا يـروى له ظمـأ . وعلينا أن نأخـذ بعين الاعتبـار أن مـرحلة شهـر عسله مـع شوسيتسوين قـد انتهت بالإحبـاط ، قبل انقضـاء ثلاثـة أشهـر على زواجه . ويبدو أنه بعد أن فشل في صب عروسـه في القالب الـذي يريده ، اجتذب مجدداً ، وبمزيد من الاندفاع ، إلى محبـوبته التي تقطن جبل أوجيكا . ولكي يروي غلة هواه ، لا شيء يمكن أن يكون أفضـل من إسقـاط معقـل آل تسـوكـومـا ، والاستيـلاء لنفسـه على ممتلكات نوريشيجي كافة ، ومن بينها زوجته . ومن جديد تـوافقت شهوة تملك الأراضي وشهوة الجسـد ، وهذه الأخيـرة ، على الرغم من أن المرء لا ينبغي له أن يصدر أحكامـاً عجلى على دوافع سلوك رجل عظيم ، ربما تكون أكبر حافز لتحركه .

والآن ، فيما يتعلق بمدى صدق الرسالة التي أطلعت الأميـرة

كيكيو نوريشيجي عليها ، والمتضمنة نداء من أتباع هيجاكي إلى باب إيزمينو كامي ، لا نجد إجماعاً في أي مصـدر على القطع بـوجه من الأوجه على صحتها أو كذبها ، لكن الظروف توضح أن الرسالة كانت مزورة . وبوسعنا أن نفترض أيضاً أن ماتوبا شينزابورو ، الوارد ذكره في « الحوليات » هو أخ أصغر لماتوبا زوشو وماتوبا دايسوكي ، وأن الأميرة كيكيو وأمير موساشي قد عهدا ، في غمار التواطؤ الذي اتفقا عليه ، بالرسالة المزورة إليه ، وتآمرا للإيقاع بين جبل أوجيكا ومعبد هيجاكي . وهكذا ، في الشهر الأول من عام ١٥٥٩ ، انطلق جيش شيرا تومينوكامي نحو مقاطعة أسانوما ، بناء على أوامر نوريشيجي . لكن أتباع معبد هيجاكي دفعوا المزارعين المحليين إلى القيام بتمرد شامل ، واشتبكوا مع الجيش المهاجم ، على قاع نهر آسادي ، عند التخوم بين مقاطعتي تسوكوما وهيجاكي . وفي معـركة ضـارية ، تم سحق قوة تسوكوما ، على الـرغم من أنها كـانت تقدر بضعفي العدو الذي ألحق الهزيمة بها ، فلاذت بالهرب عائـدة إلى قلعة أوجيكـا ، التي بعثت بجيش ثان ، لكنه لقي المصيـر نفسه . وانـطلقت قوات هيجاكي التي ازدهاها النصر تاركة لنفسها الحبل على غاربه ، تمعن القتـل والتخريب ، في مقـاطعة تسـوكومـا . وخلال شهـر واحـد ، استولت على عدد من القلاع الثانوية . وكان رجال مذهب إيكو قـد حركهم التهديـد الذي تعـرض له وجـودهم ، فراحـوا يدافعـون عن أنفسهم ، ولكنهم أدركوا في ساحة القتال مدى ضعف عـددهم الآن حقاً ، وشيئاً فشيئاً ازدادت ثقتهم بأنفسهم . ويرجع نجـاحهم ، في أحد جوانبه ، إلى قوتهم وتسليحهم الكبيـرين ، ولكنه كـان كذلـك دليلاً على فقدان عشيرة تسوكوما لسلطانها ، وعلى سوء تصريف أمور الحكم في المقاطعة ، وتدهور الحالة المعنوية للمقـاتلين . وخلال عهد إيكانساي ما كان ليمكن لرهبان مذهب إيكـو لدى تمـردهم أن

يحدثوا كل هذا الدمار . وراح كبار الأتباع في جبل أوجيكا ينظرون إلى هذا الوضع بمزيد من الانزعاج ، فلئن لم يتم إخضاعهم على الفور ، فإن المقاطعة ستندلع فيها النار ، حتى لتغدو كعش الزنابير الغاضبة . بدا واضحاً أن يوكوا بوزين ، الذي كان قد أعلن التمرد في قلعة تسوكيجاتا ، قبل خمس سنوات ، قد اتصل بالرهبان المتمردين وأوشك على التحرك، وسرعان ما سيتورط بابا في الأمر كذلك . وبما أنه لم تكن هناك جدوى إلا من الإخضاع الكامل للتمرد ، فقد عهد إلى تسوكوما شوجين هاروهيسا ، رئيس كبار الأتباع ، بقيادة قوة مؤلفة من أكثر من عشرة آلاف رجل . والتقى في مقاطعات أسانوما وكوريو وشيهارا بجموع الفلاحين المتمردين ، وأطبق على قاعدتهم من ثلاثة جوانب . ورغم أن قوة هيجاكي كانت أكبر من ذي قبل ، إلا أنها كانت في ثلث تعداد جيش تسوكوما ، واضطرت بالفعل إلى التراجع إلى معقلها في أسانوما ، وهنالك لم يكن أمام رجالها إلا أن يدعموا الأسوار ، ويعمقوا غور الخنادق ، ويحاولوا الدفاع عن أنفسهم . واستمر صمودهم لمدة شهر ونصف الشهر ، إلى أن طلب قادتهم رسمياً في الشهر الخامس العون من سيد جبل تامون ، أمير موساشي .

كانت مقاطعة أسانوما ، التي تمترست فيها قوات هيجاكي تقع بين مقاطعتي تسوكوما وموساشي ، حيث يحكم تسوكوما إلى الغرب وأمير موساشي إلى الشرق . ولدى انطلاق تسوكوما شوجين في حملته التأديبية بعث بموفد إلى جبل تامون ، حاملاً أمراً بالهجوم على المتمردين من الخلف . ولكن أمير موساشي تملص بمرونة بالغة ؛ فقد قال في رده : « كانت عشيرتي مدينة لأمير تسوكوما منذ عهد أبي ، تيروكوني ؛ ومن ثم فإني ، في الموقف الراهن ، أرغب في القيام بكل ما في وسعي لتقديم العون لكم . ومن

سوء الحظ أننا كنا من الأتباع المخلصين لمذهب إيكو ، منذ عهد والد جدي ، وتربطنا علاقة وثيقة بالقائمين على أمور معبد هيجاكي . إذن فارتباطنا بآل تسوكوما يمتد إلى جيلين ، وصلتنا بمذهب إيكو تتواصل عبر أربعة أجيال . وبناء على هذا ، فإنه إذا تعين عليّ التحالف مع أي من الجانبين ، لاضطررت إلى الانحياز إلى جانب هيجاكي . ولكن حيث أن تلك ليست رغبتي الحقيقية ، فإنني أرجو السماح لي بأن أظل على الحياد ، لأتمكن من خلال ذلك من الوفاء بالتزاماتي حيال الجانبين » . وربما لم يكن هذا إلا مجرد ذريعة . وكان قادة التسوكوما في جبل أوجيكا يشعرون بالقلق من بابا إيزومينو كامي بسبب الرسالة السرية ، وتشككوا في أنه هو الذي حاك خيوط تمرد هيجاكي ، ولكن ليس هناك برهان على أن بابا كان ضالعاً في الأمر . وهكذا ، فإن شكوكنا تتجه نحو أمير موساشي ، فحياده يبدو مريباً تماماً ، ويوشك المرء على القطع بأنه كان يدعم أتباع معبد هيجاكي .وعندما أهابوا به إلى مساعدتهم، تظاهر بالرفض مرة أو مرتين ، بطريقة مراوغة ، متعللاً بالورطة التي يجد نفسه فيها ، ولكن في وقت لاحق ، وعندما حمل دفق لا ينقطع من الموفدين طلباتهم بالنجدة ، أزاح قناعه في نهاية المطاف ، وكشف عن تصميمه على مساعدة أتباع مذهب إيكو : « حتى الآن ، وإعراباً منا عن امتناننا لإيكانساي ، رفضت توسلات أتباع هيجاكي . ولكن نفد صبري كله حيال جمود وعجز عشيرة تسوكوما ؛ فقد هاجموا قوة مؤلفة من عدة آلاف بجيش يماثلها ثلاث مرات ، ومع ذلك ، فقد انقضى شهر ونصف الشهر ، ولم يحققوا هدفهم . إن الأمير والأتباع على جبل أوجيكا يسيئون إلى ذكرى إيكانساي . ومن الواضح تماماً بالنسبة لي أنهم سرعان ما يفقدون مقاطعتهم ، ويقضون على عشيرتهم بسوء تدبيرهم . لم أعد أستطيع البقاء ساكناً ومراقبة هذا

المشهد ، فقررت مساعدة أتباع هيجاكي ، وإنقاذ الفلاحين من الحكم السيء والاضطراب اللذين يعانون منهما . صحيح أنني مدين بالفضل لإيكانساي ، ولكن لِمَ ينبغي أن أتردد في الحلول محل أناس خائري العزم كهؤلاء؟». استدعى موفداً من تسوكوما ، كان قد وصل لتوه ومعه رسالة من نوريشيجي ، وأبلغه بالبيان السابق الحافل بالخيلاء ، وأضاف قائلاً : « اذهب وقل لنوريشيجي ما قلته » ، وفي التو بعث بالموفد إلى جبل أوجيكا .

كان أمير موساشي آنذاك في الثانية والعشرين من العمر . وقد شارك في الحرب عدة مرات ، لكن تلك كانت فرصته الأولى ، لينطلق على رأس جيش ، أجيد اختيار رجاله قائداً وأميراً على مقاطعة . وقد أتت سنوات عديدة من التخطيط ثمارها المرجوة . وكان الوقت أوان ظهور بطل جديد، في ساحة القتال ، لسوف يطير صيته ، وسيمثل السلطان والهوى أمام عينيه ، في انتظار بسط يده عليهما . ليس من المتعذر تصور الرضا الذي لا بد أنه غمره . انطلق ، في منتصف الشهر السادس ، من جبل تامون ، على رأس ثمانية آلاف فارس ، ولحق بقوات هيجاكي ، في مقاطعة أسانوما ، ولكن تسوكوما نظراً لعدم رغبتهم في مواصلة هجومهم غير المثمر ، طووا معسكرهم ، دونما قتال ، الأمر الذي مكن أمير موساشي وقوات هيجاكي من استرداد كوريو وشيهارا ، على التو . وبينما القوات الحليفة تنطلق مطاردة العدو ، أدرك الكثيرون من أصحاب القلاع على امتداد الطريق الجهة التي تهب منها الريح ، وانضموا إليهم ، وبدورها رفعت قلعة تسوكيجاتا راية التمرد ، وانطلقت تخضع القلاع المجاورة لها . ولكن تفاصيل هذه الحملات مسجلة في كتاب « حوليات حرب تسوكوما » ، وما من حاجة تدعونا إلى التطرق إليها

هنا . وعبر اتصال دائب ، كل فريق مع الآخر ، أطبقت القوات الحليفة من الشرق ويوكو بوزين من الجنوب على مقاطعة تسوكوما ، إلى أن ضموا صفوفهم معاً ، وأحاطوا بقلعة أوجيكا . وكان ذلك في الشهر الثامن لعام ١٥٥٩ ، أي بعد عقد من الزمان تماماً من محاصرة ياكوشيجي دانجو ماساتاكا لها .

بلغ عدد القوات المشتركة ، المؤلفة من رجال أمير موساشي وهيجاكي ويوكو ، حوالي قوام جيش ياكو شيجي ، أي نحو عشرين ألف رجل . وفي البداية ، صمد في القلعة نحو سبعة أو ثمانية آلاف مقاتل ، ولكن مع زيادة عدد اللاجئين وقوام القوات المهاجمة تراجعت القوة إلى ثلاثة أو أربعة آلاف مدافع . وفي عهد إيكانساي صمدت القلعة شهرين ، وتمكنت في النهاية من تجنب الهزيمة . ولكن في هذه المرة بدأ الهجوم في اليوم الخامس عشر ، وفتح الحصن الثالث في اليوم الحادي والعشرين ، وانتزع الحصن الثاني وحرم القلعة نفسه في السابع والعشرين . كل ذلك في أحد عشر يوماً لا غير . وبحسب ما جاء في كتاب « حوليات حرب تسوكوما » ، فإن نوريشيجي ظل معتكفاً في القصر الداخلي ، طوال الحصار ، تاركاً أمر القتال المباشر لكبار رجال الحاشية . ولكنه في منتصف ليل الثاني والعشرين أدرك أن القلعة لا يمكن أن تصمد طويلاً ، فعهد بابنه ، ذي الأعوام الثمانية ، وابنته ، ذات الأعوام الستة إلى مربيتهما ، وبعث بهم جميعاً إلى ملاذ آمن . وفي ضحى اليوم السابع والعشرين ، وعندما قيل له إن العدو قد اقتحم حرم القلعة ، تبادل قدحاً من الساكي مع زوجته ، ونظم مقطوعة شعرية للموت ، ثم حسب رواية كتاب « الحوليات » انهال على زوجته طعناً حتى الموت ، وأشعل النار في القصر ، وأقدم على الانتحار . ولكن إذا

صدقنا كتابي « حلم ليلة » و « اعترافات دوامي » ، فإن هذه الصورة لا يمكن أن تكـون صحيحة ؛ فهي تقـول إن نوريشيجي قـد انتحـر بطريقة السيبوكو ، أي ببقر بطنه ، لكنها لا تحدثنا باسم من استكمل طقـوس السيبـوكـو وقـطع رأســه . وبحسب مـا يقـولــه كتــاب « الحوليات » ، ، فلم يعثر على ما بقي من جثتي الـزوجين ، على الرغم من التفتيش الدقيق لـلأطـلال المتفحمـة . وهـذا النـوع من الأطروحات ليس بـلا سابق . فهنـاك قصة تقـول إن ميتسوهـايد قـد استشعر أشد الضيق ، حينمـا لم يتم العثور على رأس نـوبونـاجا ، وقت وقـوع حادث هـونوجي في ١٥٨٢ . ولكن إذا كـانت الرؤوس والجثث قد غدت رماداً تماماً ، في جبل أوجيكا ، فمنذا الذي روى أشعـار الموت المـدرجـة بجـلاء في كتـاب « الحـوليـات » ؟ وكـان نوريشيجي يمقت أن يرى أحد وجهه ، ولم يكن يسمح لأحد بالدنو منـه ، اللهم إلا امرأتـه . ومن الغريب أيضـاً أن أشعار الـوصيفـات محفوظة في السجلات ، على الرغم من أن نـاظمات هـذه الأشعار يفتـرض أنهن لقين حتفهن في المحـرقــة . ليس من المستبعـد أن أحدهم صاغ هذه الأشعار ، معتقداً أنه بما أن نوريشيجي كان مولعاً بـالشعر إلى حـد الإدمان ، فمن الضـروري أن تكون هنـاك قصيدة للموت . وعلى أي حال ، فلا بد أن مؤلف كتاب « حوليـات حرب تسوكوما » كان أحد أتباع بلاط تسوكوما ، ولنا أن نفترض أنه حتى ولو كان عرف بالحقيقة ، فإنه ما كان ليكتب شيئاً يسيء إلى العشيرة .

وإذ نتبنى نظرة موضوعية إلى الصياغة الرسمية للأحداث ، دعنا إذن ننتقـل إلى الصورة الـواردة في « اعترافـات دوامي » ، فعنـدمـا اقتحم أمير موساشي البوابات ، ودخل حرم القلعة ، في صباح اليوم السابع والعشرين ، رأى ألسنة اللهب تتعالى من القصر الـداخلي ،

ففرق شمل جنود المشاة ، الـذين اندفعـوا نحوه ، وانـدفع إلى نفق الحب القابع أسفل السور الحجري الكبير . تخلص من درعـه عند الفتحة ، وشق طريقه مسرعاً عبر النفق ، وضج بالسعال وسط الدخان المتكاثف وانطلق ، عبر الدهاليز ، إلى غرف نوريشيجي .

ـ معذرة !

قالها ، ورفس الباب بقدمه . كان نوريشيجي يوشك على طعن زوجته في صدرها ، لكن تيروكاتسو قبض بعنف على يده :
ـ داني ! داني ! أهول لاه !

صرخ بها نوريشيجي ، وقد أخـذ على حين غرة ، فلم يتـح له الوقت للنظر إلى الغريب ، الذي تبدى له من قلب الدخان ، وكل ما استطاع القيام به هو التملص في يأس .
ـ لا تكن مندفعاً يا مولاي !

فيما كان تيروكاتسو يصرخ ، على هذا النحو ، في نـوريشيجي اليائس ، حرر طـوق الأميرة من قبضـة زوجها ، ولكي يحميهـا دفع بجسمه ، كأنه ترس بينهما .

ـ هيروهاتسو !

صاح نوريشيجي دهشـاً ، وطرف بعينيـه ، وقد عمـه الحرج ، كأنما تلقى صفعة على وجهه . فاغتنم تيروكاتسو الفـرصة ، وانتـزع السيف من يد نوريشيجي ، ثم باذلاً قصارى جهده حتى لا يتطلع إلى وجـه نوريشيجي ، تـراجع إلى المسـافة الـلائقة ، وانحنى انحنـاءة عميقة .

من منـظور نـوريشيجي ، كـان تيـروكـاتسـو عـدواً ، جـديـراً بالكراهية ، فهو قد خان واجبه والدين الذي يطوقـه به إيكـانساي ،

وزج بنوريشيجي في هذه الورطة ، ولكن هـذا الأخير لم يتـوقع أن يبرز عدوه في مكان كهذا . وعنـدما التقت عينـاهما ، حـدّث نفسه قائلاً: «آه!لقد رأى وجهي» مستشعراً حرجاً يفوق المقت . وحقيقة الأمر أن تيروكاتسو ، حينما كان يزور مخدع الأميرة كل ليلة ، كانت تسمـح له غـالباً بـإطلالات مترعة بـالنشـوة على وجـه نـوريشيجي الغـريب . ولـم يكن يراه للمـرة الأولى ، ولكن نـوريشيجي لـم يكن أمامه سبيـل لمعرفـة هذه الحقيقـة . ظن أنه أفلح في إخفـاء فقدان أنفه ، ولكن الآن ، لشدة الأسف والغضب ، رآه عـدوه ، فيما هـو يوشك على الانتحـار ، ومضى كل حـذره عبثاً . شعـر بالانسحـاق تماماً ، وكـان يخشى في المقام الأول أن يسيء إلى اسم عـائلته . وباعتباره الابن العاجز ، الذي أهدر المنجزات العظيمة التي حققها أسلافه ، كـان على استعداد للتكفيـر عن ضروب فشله بـالانتحار ، ولكن لئن مـات الآن فإن رأسـه سيقـع بين يـدي تيـروكـاتسـو ، ثم سيعرض لتحدق فيـه عيون العامة ، ويتساءل الناس : كيف استطاع مواصلة الحياة بـوجه كهـذا ؟ إن بمقدوره احتمـال فضيحته ، ولكن كيف يستطيع تجنب الإساءة إلى الذكرى التليدة لأسـلافه ؟ لم يـدر ماذا عساه يصنع . لم يكن بمقدوره مواصلة الحياة ، وليس بإمكانـه الموت ، في ظل هذه الظروف . كانت خطته هي أن يقتل زوجته ، ثم يـرتمي على ألسنـة اللهب ، بحيث لا يبـقى شـيء من شـكله القبيح . ولكن لئـن احتـز رأسـه ، لما تمكن من مـواجهة أبيـه في العالم الآخر ، لسوف يصرخ به العجوز ناري الطباع ، قائلاً : « أيها الأحمق ، عد فاسترد أنفك وأذنك ! »

ـ هـ . . . هـ . . . هروهاتسو !

رد تيروكاتسو بانحناءة أشد عمقاً :

ـ لبيك ، يا مولاي !

ـ أنا هه تهاطفه هاموراي . ره هي صيفي ! ولا تاهه راهي !

في غمار انفعالـه ، تفاقمت صعـوبة فهمـه . وبدا أنـه يقول : « أناشد تعاطفك كساموراي . أعد لي سيفي ! ولا تأخذ رأسي ! » .

بعد أن خمن تيروكاتسو هذا القدر ، رد بهدوء قائلاً :

ـ إن تعاطفي كساموراي هو الذي يجبرني على إيقافك .

راح يتحـدث بكل التـوقيـر ، الـذي يستحقـه مـولاه السـابق ، مضيفاً :

ـ آسف لقولي هذا ، ولكن سرعان ما يشق المهاجمون طريقهم إلى هنا . ولئن قتلت نفسك فمن المؤكد أن أحدهم سيجد رأسك ، حتى ولو لم آخـذه . فكّر في العار الذي ستجلبه على أجيال مضت وأخرى ستأتي .

ـ هـ . . هـ . . هيروهاتسو !

ـ لبيك ، يا مولاي !

ـ هلهي الأهير ! هه راهي ! وافها هتى لاراها أهه !

ـ ماذا ؟ ماذا تقول ؟

وإذ رأى أن تيروكاتسو لا يعرف كيف يستجيب لما قالـه ، كرر في اهتياج شديـد : « هلهي الأهير . . . هلهي الأهيـر . . » ضـاق ذرعاً ، فمد عنقه ، وأشار بضربة قاطعة بيده : « راهي ! راهي ! » . أخيـراً أدرك تيروكـاتسو أنـه يقول : « طلبي الأخيـر ! اقطع رأسي ! وادفنـه حتى لا يـراه أحد ! » . ولكن في ذلك الوقت كـان الحريق يندلع ضارياً حولهم ، والريح ، مصدرة أنينها من خلال الصـدوع ، تلقي بـألسنة اللهب الـرهيبة . ولـربما كـان من شأن الأميـرة كيكيـو

ونوريشيجي وأمير موساشي ، الذين ربطهم قدر غريب مشؤوم أن يصبحوا أسعد حالاً ، لو أن دوامة النار الجحيمية تلك قد ابتلعتهم . ولا بد أن نوريشيجي ، على الأقل ، قد رغب في ذلك . ولربما ظنت الأميرة كيكيو أنها يمكن أن تفي بواجبها نحو الرجلين معاً بأن تلقى حتفها إلى جانبيهما في ألسنة اللهب . لقد اكتمل انتقامها ، وأطفئت سخيمة أبيها ، ومن شأن اصطحاب زوجها الأشرم مجدوع الأنف مبتور الأذن معها إلى العالم السفلي أن يكون خير هدية لأبيها . من المؤكد أن ذلك سيكون أفضل من مواصلة الحياة في هذه الدنيا ، مكللة بالعار ، ومراكمة الخطايا . ولكن أمير موساشي ، وحده من بينهم ، كانت لديه الإرادة والقوة لمقاومة النيران . كان قد ترك ثلة من الجنود مع آوكي شوزين ، الذي كان يعرف القلعة حق المعرفة ، وأصدر إليه تعليماته بأن يسرع مباشرة إلى القصر الداخلي . وشاقاً طريقه عبر النار المستعرة ، وصل شوزين في اللحظة المناسبة . وفي وقت واحد حذا خمسة أو ستة أتباع حذو سيدهم ، منطلقين عبر النفق السري ، وأقبلوا مسرعين .

- دع كل شيء لي يا مولاي !

قالها تيروكاتسو ناهضاً ، وعند هذه الإشارة أحاط جنود شوزين ، دونما ضجة ، بنوريشيجي . وأمسك بطل هذا المشهد الكوميدي المثير للرثاء من ذراعيه وقدميه وحمل ، عبر الحديقة ، إلى الممر الجبلي السري .

وبالطبع ، تم إنقاذ الأميرة كيكيو ، مع الآخرين ، ولكن ثلة الجند التي اندفعت إلى القصر الداخلي هي وحدها التي علمت بهذه الحقيقة . بينما اعتقدت قوات هيجاكي ويوكو أو معظم رجال الأمير موساشي أن نوريشيجي وزوجته قد لقيا حتفهما في الحريق . وقد

جاء في كتاب « اعترافات دوامي » أن نوريشيجي والأميرة نقلا سراً إلى قلعة جبل تامون ، وأنزلا في دارة منيفة ، تقع في قلب مكان يدعى « الوادي الثالث » ، كانت معروفة لكل الأتباع باسم « قصر الوادي الثالث » ، ولكن ما من أحد منهم كان يعرف هوية من يقطنه ، ولم يدرك أحد ، اللهم إلا دوامي وقلة من الأتباع ، أن أمير موساشي كان غالباً ما يمضي إلى هناك ، في وقت متأخر من الليل .
وقد يظن أنه من قبيل الخور وسقوط الهمة أن يواصل نوريشيجي الحياة ، في ظل هذه الظروف ، بعد أن أسر سراً ، وراح يمضي الشهور والسنوات الكئيبة في قلعة عدوه . ولكن الحقيقة هي أنه كان تحت مراقبة مشددة ليلاً ونهاراً ، وأبعدت عن متناوله كافة وسائل الانتحار ، فلم تتح له فرصة لبقر بطنه ، ولم تكن أمامه وسيلة لمنع الآخرين من رؤية وجهه بعد موته ، وهكذا ، وعلى نحو لا سبيل إلى تجنبه ، تشبث بالأعوام الباقية من عمره . ولكن على صعيد الحياة العائلية ، ربما كانت السنوات التي أمضاها في قصر الوادي الثالث هي أسعد سنوات عمره التعس . فلم تعد هناك حاجة إلى إزعاج ذهنه بالمسائل العسكرية والحكومية ، التي لم يكن مؤهلاً لها على أية حال ، وقدم له عدوه الرؤوف كل احتياجاته . وبصفة خاصة ، أحضرت إلى الدارة أورا ابنة نوريشيجي ، التي كان قد أبعدها مع أخيها عن القلعة قبيل سقوطها (ويبدو أن الصبي قد عثر عليه ، وقتل سراً) بحيث أن الأب والأم والابنة كان بمقدورهم أن يعزي أحدهم الآخر في وحدتهم ، ويتمتعوا بحياة عائلية هادئة . وفضلاً عن ذلك ، فإن الأميرة كيكيو تعرض فؤادها لتغير كبير ، بعد سقوط القلعة ، فتخلت عن القسوة ، التي مكنتها من الاستمتاع بالقضاء على زوجها ، وعادت إلى طبيعتها الأنثوية الحقة . وفي غمار شعورها بتعاطف وإشفاق حقيقيين على قبح زوجها ، الذي ساهمت فيه ،

راحت تكافح ، كزوجة مخلصة ، وكأم محبة ، للتوبة والتخلص من خبثها السابق ، وهكذا نما بينهما للمرة الأولى حب كامل وعاش نوريشيجي بتحقق عاطفي لم يعرفه من قبل قط ولكن تقلب فؤاد الأميرة كيكيو ، على هذا النحو ، كان معناه أن أخيلة أمير موساشي قد انتهت إلى الإحباط ، فهو ، بتأثير الطموح والهوى ، أوقع الهزيمة بآل تسوكوما ، واستطاع الاستمتاع بأسلابه ، دونما اكتراث برأي الآخرين . ولا بد أن شعوره بخيبة الأمل كان حاداً ، عندما رأى ، بعد إحضار محبوبته إلى قلعته ، أن مشاعرها لم تعد كعهدها قبلاً . ومن الطبيعي تماماً أن الأميرة كيكيو لم تطق مواصلة علاقتهما السابقة ، فبعد أن ثأرت لأبيها لم تعد تكن إلا الود لزوجها ، ولا بد أنها قد ارتجفت فرقاً من هول الخطايا التي اقترفتها . ويقول تصور آخر إن برود الأميرة كيكيو المفاجىء حيال أمير موساشي قد نشأ من نكوله عما وعدها به ، وقيامه بقتل ابنها . وربما كان الأمر كذلك ، ففي المقام الأول كان أحد أهدافها من الاستعانة به هو الحصول على مساندته في تربية طفليها ، وبخاصة الصبي ، ليصبح ساموراياً عظيماً ، وبذا تحافظ على نسل حكام تسوكوما .

وهكذا ، فإن حبل الهوى ، الذي امتد بين أمير موساشي والأميرة كيكيو ، قد انقطع ، حينما نقلت إلى قصر الوادي الثالث . وحتى نهاية عمره ، الذي امتد اثنين وأربعين عاماً ، ظل الأمير ينشد نساء جديدات ، واحدة إثر الأخرى ، ليشاركهن مصدر الإثارة المحير ذاك ورغبته المثيرة للتقزز تلك . لكن تلك قصة أطول مما ينبغي ومن شأنها الإساءة إلى ذكرى الأمير . ولعل أصوب سبيل هو ألا نوغل فيها أكثر من ذلك . وإني لعلى يقين من أنكم ، إذا ما علمتم بالجانب

السـري من حيـاة أميـر مـوسـاشي الجنسيـة ، فـإنكم ستصلون إلى اكتشافات مدهشة ، عندما تطالعون كتاب « حوليات حرب تسوكوما » وغيره من كتب التاريخ الرسمية . وعلى أمل الوصول إلى تحقيق هذا كتبت هذه الصفحات .



المرنطه

أ ـ الملك السماوي

انقضى عقدان من الزمان ، منذ ارتحلت إلىٰ دواخل منطقة يوشينو في ياماتو . كان ذلك في حوالي عام ١٩١٢ ، في نهاية عهد ميجي أو بداية عهد تايشو ، عندما لم تكن وسائل المواصلات المتوافرة اليوم موجودة بعد ؛ ولذا فعليّ أن أبدأ قصتي بإيضاح ما دفعني إلى الانطلاق إلى تلك الأعماق الجبلية التي وصفت مؤخراً بأنها « جبال ألب ياماتو » .

وكما لعل الكثير من قرائي يعرف ، فإنه في المقاطعة الممتدة حول نهر توتسو وكيتا ياما وقرية كاواكامي تواصلت منذ زمن بعيد أساطير تدور حول وارث للبلاط الجنوبي ، لا يزال سكان المنطقة حتى اليوم يدعونه بـ « سيد البلاط الجنوبي » و « الملك السماوي ». ويقال إن حفدة الملك السماوي أو الأمير كيتاياما كان حفيداً لحفيد الأمبراطور جوكامياما . وهو ليس بالشخصية الأسطورية فحسب ، وإنما قد وجد بالفعل ، كما يؤكد المؤرخون المختصون في دراسة هذا العهد . ولكي نقدم موجزاً في هذا الصدد نقول : توضح نصوص مدرسة التاريخ الوسيط في معظمها أنه في عام ١٣٩٢ وخلال عهد الشوجون يوسيمتسو ، أبرمت مصالحة واندمج البلاطان المتنافسان ، الأمر الذي وضع حداً للبلاط الجنوبي ، بلاط يوشينو ، بعد سبعة وخمسين عاماً من إقامته . ولكن في وقت متأخر من ليل الثالث والعشرين من الشهر التاسع لعام ١٤٤٣، شن من يدعى

كوسونوكي جيرو ماساهايد ، والذي كان موالياً للأمير مـانجوجي من السلالة الجنوبية هجوماً مفـاجئاً على قصـر تسوتشيميكـادو ، وسرق الـرموز الأمبـراطوريـة الثلاثـة ، ولاذ مع أتبـاعه بجبـل هاي . وقـد هاجمتهم قوة مـطاردة من العاصمـة ، فأقـدم الأمير مـانوجوجي على الانتحار ، وتم استرداد رمزين من الرموز الأمبراطورية ، هما السيف والمرآة ، لكن الجوهرة ظلت في أيدي أتباع البلاط الجنوبي . وعند ذاك تحولت عشيرتا كوسـونوكي وأوتشي بـولائهما إلى نجلي الأميـر مانجوجي ، وشكلتا جيشاً موالياً لهما ، ولاذتا بالهرب إلى آيسي ، ثم كاي وياماتو ، وأخيراً إلى جبال يوشينو النائية ، بعيداً عن مطال جيش البلاط الشمالي . وهنالك رفعوا آيات التكريم للابن الأكبر باعتبـاره الملك السماوي ولأخيـه باعتباره الشوجـون ، وأطلقوا على العهـد اسم « تنساي » . وطوال ما يزيد على ستين عاماً حرسوا الجوهرة في واد بين الجبال يصعب على العدو العثـور عليه . وفي الشهـر الثاني عشر من عام ١٤٥٧ احتال عليهم من بقي من أتباع عشيرة أكاماتسو ، فقتل الأميران ، وقضي على النسل الجنوبي أخيراً . إذن فعلى مدار مائة واثنين وعشرين عاماً ، أي في الفترة من ١٣٣٦ إلى ١٤٥٧ ظل المنحدرون من ملوك البلاط الجنـوبي في يوشينـو وعارضـوا جنـاح العاصمة .

وبما أن سكان يوشينو قد توارثوا التقليد المتمثل في تأييد البلاط الجنـوبي فمن الطبيعي أن يـردوا عهده من حيث بـدايته إلى الملك السماوي ، وهم يصرون على القـول بأن البلاط الجنوبي قد دام « لا ما يزيد قليلاً على خمسين عاماً ، وإنما استمر ما يزيد على القرن » . وقد اهتممت بدوري بالتاريخ السري للبلاط الجنوبي منـذ مطالعتي لكتاب « تايهيكي» في صباي وأردت أن أكتب رواية تاريخية يقوم صرحها

حول الآثار التي تختفي وتبين والتي خلفها وراءه الملك السماوي.

تقول مجموعة منشورة من المأثورات الشفاهية من قرية كاواكامي إن أتباع البلاط الجنوبي في غمار خشيتهم من هجوم من جانب البلاط الشمالي بادروا إلى الانتقال من شيونوها عند سفح جبل أودايجاهارا إلى واد يدعى سانوكو ، يضرب في أغوار الجبال التي لا يعرف إلا القليل عنها باتجاه مضيق أوسوجي على حدود إقليم آيسي . وهنالك بنوا قصراً لأميرهم ، وأخفوا الجوهرة المقدسة في كهف . ويسجل كتابا « حوليات كوتسوكي » و« حوليات أكاماتسو » أن ثلاثين لاجئاً ينتمون إلى عشيرة أكاماتسو تحت قيادة ماجيما هايكوتارو ، بعد أن شقوا طريقهم بالكذب إلى البلاط الجنوبي قد استغلوا فرصة تساقط الثلج بكثافة في اليوم الثاني من الشهر الثاني عشر لعام ١٤٥٧ لشن هجوم مفاجىء . هاجم فريق منهم قصر أوكوتشي الذي يقيم به الملك السماوي ، فيما انطلق فريق آخر إلى قصر الشوجون في وادي كونو . وقد دافع الملك السماوي عن نفسه مستخدماً سيفاً طويلاً، لكن الخونة، في نهاية المطاف تعامدوه بسيوفهم فمزقوه تمزيقاً، ولاذوا بالهرب حاملين رأسه والجوهرة المقدسة. غير أن هطول الجليد أعاق مسيرتهم، فلم يبلغوا عند المغيب إلا ممر أوباجامين، وهنالك دفنوا الرأس في الجليد، وأمضوا ليلتهم. وفي صباح اليوم التالي هاجمهم قادة القرى الثماني عشرة التي تضمها يوشينو . وفي غمار احتدام القتال انبعث الدم شاخباً من رأس الملك من تحت الجليد ، فتمكن القرويون من استعادته .

وتختلف تفاصيل هذه الحادثة هوناً من مصدر إلى آخر ، ولكن ليس هناك مجال للشك ؛ فهي تظهر كذلك في كتب « التقدم الأمبراطوري نحو التلال الجنوبية » و« سجلات الجنوب » و« حوليات

السحابة المزدهرة » و « حوليات نهر توتسو » . وفضلاً عن ذلك فإن حوليات كوتسوكي وأكاماتسو كتبها مخضرمون شهدوا هذا القتال أو كتّاب انحدروا من صلبهم . وقد ورد في أحد الكتب أن الملك كان في الثامنة عشرة من عمره . وكانت إعادة آل أكاماتسو إلى سابق مجدهم بعد سقوطهم في تمرد كاكيتسو هي المكافأة التي تلقوها على اغتيال الأميرين وإعادة الجوهرة المقدسة إلى العاصمة .

وبسبب تعذر الوصول إلى المنطقة الممتدة من جبال يوشينو حتى كومانو في الجنوب ، فقد بقيت عدة أساطير مقارعة الدهر . وليست العائلات التي حافظت على استمرار أصولها عبر أجيال عديدة من الظواهر غير المألوفة هناك . ويقال ، على سبيل المثال ، إن جانباً من دارة هوري في أنافو ، التي نزل بها الأمبراطور جودياجو ذات مرة ، لا تزال قائمة ، بل ويشغلها الآن أبناء العائلة . وكذلك تزدهر ذرية تاكيهارا هاتشيرو الذي يظهر في كتاب « أمير المعبد العظيم يهرب إلى كومانو » في تايهاكي .وقد مكث الأمير مع هذه العائلة لبعض الوقت وأنجب ولداً من ابنتهم . وهناك مأثورة أقدم ظلت متداولة على الألسن في ضيعة جوكيتسوجو على جبل أودايجهارا . وإذ يؤكد أبناء القرى المجاورة أن سكان جوكيتسوجو هم من سلالة غيلان فإنهم لا يتزوجون فيهم أبداً ، كما أن سكان الضيعة أنفسهم لا يرغبون في الزواج من خارج ضيعتهم ، وهم يقولون إنهم أحفاد الغيلان الذين شقوا الطريق للناسك العظيم إن ـ نو ـ جايوجا . وبما أن تلك هي طبيعة الإقليم ، فهناك عدد من العائلات العريقة التي يقال لها « أبناء الأصول » الذين يذهبون إلى القول بأنهم ينحدرون من أصلاب المحاربين المحليين الذين عملوا في خدمة البلاط الجنوبي . وحتى اليوم فإنهم يحتفلون بذكرى « سيد البلاط

الجنوبي » كل عام في الخامس من فبراير بتجسيد جليل للحفل العتيق الذي يقام للعام الجديد في معبد كونجو قرب كاشيواجي ، وهو الموضع الذي كان مقاماً فيه قصر الأمير الشوجون في وادي كونو . وفي هذه المناسبة ، يسمح لـ « أبناء الأصول» بارتداء أزياء رسمية تحمل الشعار الأمبراطوري المتمثل في زهرة الأقحوان ، ويحظون بالأسبقية على الحاكم والمختار وغيرهما من الموظفين الرسميين .

وما كان يمكن لهذه المواد المختلفة ، بعد اطلاعي عليها، إلا أن تزيدني تحمساً للرواية التاريخية التي كنت أعد لها . وليس بمقدور كاتب أن يتطلع إلى قائمة موضوعات واعدة على نحو يفوق القائمة التالية : البلاط الجنوبي ، براعم يو شينو ، الأماء الجبلية الغامضة ، الملك الشاب ، كوسونوكي جيرو مأساهايد ، الجوهرة المقدسة المخبأة في أغوار الكهف ، والرأس وهو يشخب دماً عبر الجليد . وكان مسرح الأحداث رائعاً ، فهناك جبال ، غدران ، هوات ، قصور وأكواخ ، أزهار كرز في الربيع ، وسقوط أوراق الأشجار في الخريف ، كما أنها لم تكن خيالاً بلا أساس ؛ فقد توافرت بالطبع كتب التاريخ الرسمية وسجلات الأحداث والوثائق ، وكل ما يرغب فيه المرء ، وبمقدور الكاتب أن يؤلف كتاباً مشوقاً بمجرد قيامه بترتيب الحقائق التاريخية الماثلة بين يديه على نحو مناسب . ولو أنه أضاف قليلاً من التجميل وأورد في نسيج العمل مأثورات شفاهية وأساطير مناسبة ، وجعل معالم الطبيعة تتدفق بمن فيها من أبناء المنطقة ـ أحفاد الغيلان ، نساك أوماين ، زوار كومانو ـ وأبدع من خياله بطلة جميلة لتناسب الملك السماوي (ربما أميرة تنحدر من صلب أمير المعبد العظيم) لكان العمل أكثر تشويقاً . ورحت أحدث نفسي بأنه

من الغريب أن مثل هذه المادة شديدة الثراء لم تجتذب انتباه كاتب من قبل قط . صحيح أن باكين ترك عملاً غير مكتمل تحت عنوان « سيرة حياة رجل مقدام » ، لكنني لم أقرأ هذا العمل ؛ حيث أنه فيما يبدو يركز على أميرة خيالية من كوسونوكي تدعى كوما ، وربما لم تكن له علاقة بتاريخ الملك السماوي . وبخلاف ذلك فيبدو أن هناك عملاً أو عملين يعودان إلى عهد توكوجاوا يتناولان أباطرة يوشينو ، ولكن من المشكوك فيه توافقهما مع الحقائق التاريخية . وخلاصة القول ، فإني لم أر هذا الموضوع يعالج في أي من الأشكال المعتادة سواء أكانت روائية أم شعرية أم مسرحية ، وقد عقدت العزم على الاستفادة من هذه المادة قبل أن يجرب أحد حظه في تناولها .

غير أنني عند هذا المنعطف، ومن خلال صلة غير متوقعة، تمكنت من معرفة المزيد عن جغرافية هذه الجبال والعادات السائدة فيها . فقد كان لي صديق من أيام الدراسة يدعى تسومورا ، وعلى الرغم من أنه هو نفسه من أبناء أوساكا ، إلا أن له أقارب يقيمون في كوزو في يوشينو ، وقد تمكنت عن طريقه من الاستفسار عن المنطقة .

كان هناك مكانان يطلق عليهما اسم كوزو على نهر يوشيرو . وكان اسم المكان الواقع في أدنى النهر مكتوباً بالشكل الدال على « المرنطة » ، بينما اسم المكان الواقع قريباً من منبع النهر (حيث يقيم أقارب تسومورا) مكتوب بالشكل الدال على « الوكر الريفي » . والمكان الأخير هو الذي اشتهر من خلال مسرحية النو الموسومة « كوزو » والتي تدور حول الأمبراطور تيمو .

لكن أياً من القريتين اللتين يطلق عليهما اسم كوزو لم تكن تنتج نشا المرنطة ، أو كوزوكو الذي اشتهرت به يوشينو . ويكسب معظم أبناء كوزو العليا رزقهم من صنع الورق ، وما زالوا يستخدمون طريقة

بدائية لم تعد قائمة في أي مكان آخر إلا فيما ندر ، وهي تبييض ألياف أشجار التوت في مياه نهر يوشينو واستخدامها في صنع الورق يدوياً .
وكان أقارب تسومورا من القائمين على صنع الورق ، بل إنهم في حقيقة الأمر أكبر منتجيه في القرية ، وكان لقبهم هو كومبو ، وهو لقب غريب لكنه منتشر تماماً في موطنهم . وقد قال تسومور إن عائلة كومبو هي عائلة عريقة ربما يمكنها أن من بين أسلافها عدداً ممن عملوا في خدمة البلاط الجنوبي ، وقد تعلمت من هذه العائلة القراءات الصحيحة لرموز شيونوها وسانوكو ، وكانت عائلة كومبو هي التي أبلغتني بأن المسافة من كوزو إلى شيونوها تزيد على خمسة عشر ميلا ، عبر ممر جوشا الحافل بالأخطار ، ومن هنالك خمسة أميال حتى مدخل وادي سانوكو وعشرة أميال أخرى إلى أقصى النقاط إيغالاً في الداخل ، حيث يقال إن الملك السماوي كان يقطن ذات يوم .
ولكنهم كانوا يبلغونني بما سمعوه ليس إلا ، ذلك أنه ما من أحد من أبناء كوزو مضى إلى هذا الحد صعداً مع النهر قط . وقال نوتي جاء منحدراً مع النهر إنه في أعماق الوادي ، في حوض يقال له سهل هاتشيمان ضيعة تضم خمسة أو ستة من الفحّامين ، وإنه بعد ذلك بثلاثة أو أربعة أميال ، في السهل المخبوء ، عند رأس الوادي كانت هناك آثار للقصر وكذلك للكهف الذي أخفيت فيه الجوهرة المقدسة غير أنه لم يكن هناك طريق بالنسبة لتلك الأميال العشرة فيما وراء فم الوادي ، وإنما امتداد من الصخور ، ومن هنا فإنه حتى نساك ياما بوشي المنتمون إلى جبل أوماين لم يكن بمقدورهم اللهم إلا بالكاد الوصول إلى هذه المسافة . ولم يكن المقيمون حول كاشيواجي ينطلقون عادة إلى أبعد من النيابيع الحارة الفائرة إلى جوار النهر عند شيونوها . وفي حقيقة الأمر فإنه إذا توغل المرء في الوادي فإن بمقدوره أن يرى عدداً كبيراً من الينابيع الحارة المتفجرة من

منتصف التيار المتدفق وشلالات لا حصر لها ذات ارتفاع شاهق ، مثل شلالات مايوجين . ولكن هذا المشهد الخلاب لم يكن معـروفاً إلا لقاطني الجبال والفحامين .

وزادت قصـة الـنوتي من ثـراء عـالم روايتي . وأضيفت هـذه الجزيئة الكـاملة ، أي الينابيـع الفائـرة المتدفقـة من نبع جبلي إلى المواد الواعـدة ، التي سبق لي بالفعـل تجميعها . لكني استكملت الآن بحثي فيما يتعلق بكل شيء يمكن تمحيصه من بعيد . ولـو أن تسومورا لم يستحثني ، فمن المؤكـد أنني ما كنت لأنـطلق إلى هذه الآماد الجبلية . كان لديّ الكثير من المواد بحيث أن خيـالي يمكنه تدبر أمر الباقي ، حتى دونما زيارة للمكـان . وفي حقيقة الأمـر فإن هناك مزايا معينة في الانطلاق على هذا النحو . ولكن تسومورا كتب لي في نهاية شهر أكتوبر أو أوائل نوفمبر من ذلك العام ، واستحثني بقوله: «لم لا تأتي معي؟ لن تتاح لك فرصة أفضل من هذه الفرصة». قال إن عليه القيام بزيارة أقاربه في كوزو، وقد لا أستطيع المضي حتى سانوكو، ولكني إذا درست التضاريس وعادات الناس حول توزو فمن المؤكد أنني سألم بالكثير ممـا سيفيدني في وقت لاحق . وفي المنطقة ما يفوق تاريخ البلاط الجنوبي ، وبـإمكاني في يسـر العثور على مواد محلية كـافية حـول موضـوعات أخـرى لروايتين أو ثـلاث روايات ، فلم لا أستغل وعيي المهني حتى أقصى طاقته ؟ لن يكون في ذلـك إهدار لـوقتي ، والموسم منـاسب تمامـاً للسفر ، حقـاً إن مـواسم ازدهار الكـرز في يوشينـو سارت بـذكرهـا الركبـان ، ولكن الخريف كان جميلاً كذلك .

لقـد امتد حـديثي هذا ليغـدو مقدمـة ضـافيـة ، لكن تلك هي الـظروف التي قررت في ظلهـا فجأة الانـطلاق في رحلتي . كـانت

لـ « الوعي المهني » الذي تحدث عنه تسومورا علاقة بالأمر ، ولكن في الحقيقة فإن فكرة الانطلاق في رحلة مريحة للأعصاب في الريف أكثر إقناعاً .

٢ . إموسياما

انطلق تسومورا من أوساكا إلى نارا في اليوم المحدد ، وشغل غرفة في فندق يدعى موساشينو ، عند سفح جبل واكاكوسا . غادرت طوكيو بقطار الليل ، وأمضيت ليلة واحدة في كيوتو في الطريق ، ووصلت إلى نارا في صباح اليوم التالي . ولا يزال هناك فندق موساشينو ، ولكن قيل لي إنه تحت إدارة أخرى الآن . وقبل عشرين عاماً كان مبنى الفندق عتيقاً وبالغ الجمال فيما أظن ، ولم تكن وزارة السكك الحديدية قد بنت فندقها بعد ، وكان فندق موساشينو وكايكوسوي هما أفضل فندقين يمكن للمرء النزول بهما في ذلك العهد . بدا تسومورا وكأنما سئم الانتظار ، وكان قد سبق له التجوال في معالم نارا ؛ ولذا قررنا الانطلاق تواً قبل أن تتقلب حالة الجو . نلنا قسطاً من الراحة لمدة ساعة أو ساعتين ، رحنا نحدق خلالهما في جبل واكاكوسا من نافذة غرفتنا ، ثم غادرنا الفندق .

غيرنا القطارات في يوشينو جوتشي، واستقللنا قطاراً متقلقلاً يسير على شريط حديدي ضيق حتى بلغنا محطة يوشينو ، ومن هناك انطلقنا سيراً على الأقدام عبر الطريق الرئيسي الموازي لنهر يوشينو . قرب بحيرة موتسودا ومخاضة شجرة الحور المعروفتين لقراء قصائد مانيوشو تفرع النهر إلى فرعين ، يفضي الفرع الأيمن إلى مواقع مشاهدة ازدهار الكرز الشهيرة في جبل يوشينو ، وإذ يعبر المرء النهر فإنه يصل تواً إلى أجمات الألف الدنيا ثم إلى بساتين كرز سيكايا ، معبد زاوكونجين ، معبد يوسيميزو ، والألف الوسيطة ، وهي أماكن

تعج بمشاهدي تفتح الكرز كل ربيع . وسبق لي أن جئت مرتين لمشاهدة براعم كرز يوشينو ، الأولى حينما كنت طفلاً بصحبة أمي التي قامت بجولة في منطقة كيوتو ، والثانية خلال دراستي الجامعية ؛ ولذا تذكرت الانطلاق إلى اليمين صعوداً في طريق جبلي ضمن مجموعة كبيرة ، ولكنني لم أمض مع الفرع الأيسر من قبل قط . أما الآن وقد أصبحت السيارات والقاطرات المعلقة تمضي الشوط كاملاً حتى الألف الوسيطة ، فلم يعد أحد يتوقف هناك ، ولكن مشاهدي ازدهار الكرز في السابق إذ يسلكون الطريق مع الفرع الأيمن كانوا يتوقفون على الجسر الممتد على بحيرة موتسودا ويتأملون المشاهد المترامية على طول نهر يوشينو .

كان رجل عربة الريكشا يقول مشيراً باتجاه أعلى النهر من حاجز الجسر : «هناك، انظروا ، هناك بمقدوركم أن تروا إموسياما ، التلين العروسين ، إموياما إلى اليسار وسياما إلى اليمين ». وقد جعلت أمي بدورها رجل عربة الريكشا يتوقف في منتصف الجسر ، وممسكة بي في حجرها ، وكنت صغيراً لا أدري بما حولي ، راحت تهمس في أذني : « أتذكر المسرحية التي تدور حول إموسياما ؟ طيب ، ها هنا إموسياما الحقيقية ». كنت صغير السن للغاية ، والصورة ليست جلية في ذهني ، ولكن هواء الجبل كان لا يزال بارداً في منتصف إبريل ، وتحت جنح المساء الضبابي راح نهر يوشينو يتدفق نحونا تحت سماء شاحبة غائمة مقبلاً من هوة في الجبال النائية المتتابعة . كان سطحه المموج يحاكي تجعداً في ممر تعصف به الرياح . وعلى نحو غائم كان بمقدور العين أن ترى في الجبال تلين صغيرين ينهضان دونما انتظار في غبش المساء . لم استطع تبين النهر المتدفق بينهما فيما يواجه أحدهما الآخر ، لكني كنت أعرف من المسرح أن التلين كانا

على جانبي النهر . فعلى خشبة مسرح الكابوكي كان كوجانسوكي ، نجـل دايهـانجي كيـوزومي ، وخـطيبتـه ، وهي عـذراء تـدعى هينا دوري ، يقطنان في دارتين تطلان على الوادي ، فهي تقطن على قمة إمویاما ، وهو يقطن على قمة سياما . وهذا المشهد من بين كل مشاهد مسرحية إموسياما يشبه كأقصى ما يكون الحكاية الخرافيـة ، ولذلك السبب أحـدث انطبـاعاً في نفسي خـلال طفولتي . وعنـدما تحدثت أمي قلت لنفسي : « إذن فهذه إموسياما » وانغمست في رؤية خيـاليـة صبيـانيـة قـوامهـا أنني إذا مضيت إلى هنـاك فسـوف ألتقي بكوجانسوكي والعذراء . ومنذ ذلك الحين ظـل المشهد الـذي رأيته من الجسر ماثلاً في ذاكرتي . وفي لحظات غير متوقعة أستعيد ذكراه والحنين يعتصر فؤادي . ولذا فحينما جئت إلى يوشينو للمرة الثـانية في ربيـع عامي الحـادي والعشرين أو الثـاني والعشـرين ، انحنيت ممـدداً على حاجـز الجسر ، ورحت أفكـر في أمي الـراحلة ، وأنـا أحدق بناظري صعداً مـع التيار . هنـا ، عند سفـح جبل يـوشينو ، يدخل النهر سهلاً فسيحاً ، بحيث أن التيار المتلاطم يبدأ في التحول إلى نهر « يتدفق عبر الريف الجبلي » دونما انـدياح . وكان بمقدوري أن أرى على الجـانب الأيسر بـاتجاه المنبـع دوراً ممتدة مـع الطريق الـرئيسي ، تتميز بقـدمها وبسـاطتها وأسقفهـا المنخفضة وجـدرانها البيضاء المرقشة . هذه هي قـرية كـاميتشي ، الجبال وراءهـا والنهر أمامها .

مررت ، هذه المرة ، بسفح الجسـر عند مـوتسودا ، والتـزمت بالفرع الأيسر ، وانطلقت نحو إموسياما ، وهو اتجاه لم يسبق لي إلا التحديق فيه . كان الطريق الرئيسي يمتد في خط مستقيم على طول ضفة النهر ، بدا أنه طريقٍ مسطح بعيد عن الوعورة، ولكن قيل لي

إنه من كاميتشي يمر عبر مياتاكما وكوزو وأوتاكي وساكو وكاشيواجي ، ثم يوغل في جبال دواخل يوشينو ، ويصل إلى منبع نهر يوشينو ، ويعبر مجمع الأمطار الواقع بين ياموتو وكاي ، وأخيراً يتدفق إلى شاطىء البحر عند كومانو .

بعد أن غادرنا نارا مبكرين ، دخلنا كاميتشي بعد الظهر بقليل . وكما تصورت عند الجسر ، كانت الدور المصطفة على جانبي الطريق الرئيسي بسيطة وعريقة الطراز . وكانت هناك عدة هوات عرضية بين الدور على الجانب المطل على النهر ، ولكن في الغالب كان مشهد الماء محتجباً عن الناظرين . وكانت للدور على الجانبين نوافذ متشابكة سوّدها الدخان وطوابق ثانية منخفضة لا تعلو كثيراً عن مستوى العلية . وخلال سيري ، رحت أتطلع إلى الظلال القابعة وراء النوافذ المتشابكة . وكما هو مألوف في الدور الريفية ، كان هناك طريق ترابي يمتد حتى الباب الخلفي ، وعند مدخل معظم هذه الطرق تدلّت ستارة زرقاء قاتمة تحمل باللون الأبيض اسم المتجر أو العائلة . وبدا أن من المألوف بالنسبة للسكان وللمتاجر أن تكون لها مثل هذه الستائر . وفي كل حالة تدلت الطنف ، كأنما سحقت الواجهة سحقاً ، وكانت الواجهة ضيقة ، ولكن وراء الستائر تألقت الأشجار بالحياة في الأفنية ، وهنا وهناك أقيمت أبنية منفصلة . وربما كانت هذه الدور تعود إلى نصف القرن وبعضها يعود إلى قرن كامل من الزمان أو ربما قرنين . وبالمقابل كان ورق الشوجي على كل دار جديداً ولا تشوبه شائبة ، كأنما تم تغييره لتوه ، وغطيت أصغر الفتحات بدأب بورق على شكل بتلات . بدا الورق أبيض بارداً في هواء الخريف النقي ، وكان من أسباب نظافته عدم وجود غبار ، ولكن ربما كان من الأسباب الأخرى أن هؤلاء الناس كانوا بسبب عدم

استخدامهم للشوجي الزجاجية أكثر حساسية بالنسبة لورقهم من سكان المدن . فإذا لم تكن هناك أبواب زجاجية في الخارج ، على نحو ما توجد هذه الأبواب في طوكيو ، فإنه لا سبيل إلى إهمال الورق ، وإلا فإنه سيتسخ ويتغير لونه فيغدو حائلاً ، وسوف تهب الريح فتلج الدور من الفتحات . وجعلت نصاعة الشوجي النوافذ المتشابكة الجهمة وقطع الأثاث في صفوف الدور تبدو نظيفة وتعكس مزاجاً خاصاً ، شأن امرأة جميلة تحرص ، على الرغم من فقرها ، على مراعاة حسن مظهرها . وقد استشعرت الخريف بعمق ، فيما كنت أتطلع إلى ضوء الشمس المتألق على الورق .

وفي حقيقة الأمر ، فإنه على الرغم من صفاء السماء على نحو مبهر ، فإن النور المنعكس هناك كان ألآقاً ، ولكنه لم يكن وهاجاً ، وجميلاً على نحو عميق . وإذ كانت الشمس تعتلي النهر ، فقد راحت تتألق في مواجهة الشوجي على الجانب الأيسر من الشارع وانعكست غائرة في الدور المصطفة على الجانب الأيمن . وبدت ثمار البرسيمون المعروضة في واجهة متجر خضري لافتة للنظر على وجه خاص . تلاعب النور الخارجي على الأسطح اللدنة الناضجة المرجانية لكل أشكال ثمار البرسيمون ، البرسيمون الحلو ، برسيمون جوشو ، برسيمون مينو ، فتوهجت كالأعين . وحتى كتل معكرونة الدقيق كانت متألقة داخل صندوق زجاجي في متجر متخصص في بيعها . وفي الشارع أمام الدور ترك خبث الأفران للهواء بعد فرشه على حصر من القش وسلال للغربلة . ومن مكان ما تناهى وقع مطرقة حداد وصوت عاكف على ضرب الأرز . سرنا حتى حافة البلدة ، وتناولنا طعام الغداء في مطعم قرب النهر . لدى النظر إلى التلين من فوق الجسر لاحا بعيدين باتجاه المصب ، أما هنا فقد

شمخ كل منهما بإزاء الأخر أمام أعيننا . وإذ يتوسطهما النهر كان إموياما على الضفة التي جلسنا نتناول طعامنا في رحابها ، وسياما على الضفة الأخرى . ولا شك في أن هذا المنظر قد ألهم مؤلف مسرحية « وصايا عائلية لامرأة عند أموسياما » فكرة مسرحيته ، لكن النهر هنا بالغ الاتساع ، وهو ليس بالنهير الذي يراه المرء على خشبة المسرح . وحتى إذا كانت دارتا كوجانو سوكا وهينادوري على التلين ، فليس بوسع الناس أن يتحاوروا فيما بينهم عبر التلين ، كما يحدث على المسرح . ويتصل تل سياما بالجرد الواقع وراءه وشكله غير منتظم ، ولكن تل إموياما قائم بذاته ، مخروطي الشكل ، تغطيه الخضرة على نحو رائع . وتمتد بلدة كاميتشي حتى سفح التل . وحينما يتطلع المرء إلى دور البلدة يجد أن لها طابقاً إضافياً في الخلف ، فتصبح الدور ذات الطابقين دوراً ذات ثلاثة طوابق ، والدور ذات الطابق الواحد من الدور ذات الطابقين . وعلى بعض الدور يمتد سلك سميك من الطابق العلوي إلى قاع النهر ، وقد ربط به دلو لجلب الماء .

قال تسومورا فجأة :

ـ أتعرف ، بعد « إموسياما » هناك « يوسيتسوني وأشجار الكرز الألف » .

ـ أشجار الكرز الألف تتخذ من شيمويتشي مسرحاً لأحداثها . أليس كذلك ؛ سمعت عن متجر دلو بئر سوشي هناك . . .

في مسرحية الدمى تلك يتبنى صاحب متجر سوشي كوريموري بعد أن لاذ الأخير بمتجره . وعلى الرغم من أنني لم أذهب إلى هناك قط ، فقد سمعت أن بعض الناس في شيمويتشي استلهم هذه القصة وزعم أنه من سلالته . وليس هناك جونتا الخبيث المحتال في العائلة

فيما يقولون ، ولكن الفتيات هناك لا يزلن يحملن اسم أوساتو ، كما في المسرحية ، وهم يصنعون السوشي في أوعية تشبه دلاء الآبار . ولكن تسومورا لم يكن يشير إلى هذا الجزء من المسرحية ، وإنما إلى طبل الأميرة شيزوكا . وهناك عائلة تقيم باتجاه منبع النهر في قرية ناتسومي ، تثمن هذا الطبل باعتباره تراثاً عائلياً تتناقله الأجيال ، واقترح تسومورا أن نتوقف في الطريق لرؤيته .

قطعت بأن قرية ناتسومي ستكون على ضفاف نهر ناتسومي الوارد ذكره في مسرحية النو الموسومة « الأميرتان سيزوكا » : « إلى شاطىء نهرنا تسومي ، أقبلت امرأة هائمة على وجهها . . . ». ومع تردد هذه الكلمات يظهر شبح شيزوكي ، تقول : « يثقلني وقر آثامي ، فسطروا صلاة من أجلي ! »، ثم في النص المكتوب للرقصة التي تلي ذلك :

إني لأتوارى خجلاً حقاً ،
وما قلبي بقادر على نسيان الماضي . . .
لا تحسبوا
أنكم ترون الآن
امرأة تلتقط الخضر ،
من نهر ناتسومي ،
في يو شينو .

يبدو ، إذن ، أن هناك أساساً ما تقوم عليه الأساطير التي تربط ناتسومي بشيزوكا . يقول كتاب « مواضع شهيرة مصورة في ياموتو » إن : «لقرية ناتسومي نبعاً رائعاً يطلق عليه اسم نبع سلة الزهور . وهناك كذلك موقع دارة أقامت فيها الأميرة شيزوكا لبعض الوقت » . وهكذا فإن هذه المأثورة ربما كانت بعيدة العهد وقد حملت العائلة

التي تحتفظ بالطبل لقب أوتاني ، ولكنها في السابق كانت تعرف باسم مشرفي يوشيتسوني . وتقول السجلات العائلية القديمة ، فيما روي ، إن يوشيتسوني والأميرة شيزوكا قد مكثا هنالك عندما هربا من يو شينو في ثمانينات القرن الثاني عشر . وهناك في الجوار مواضع شهيرة ـ غدير كيسا ، جسر الإغفاء ، جسر شيبا ـ وفي بعض الأحيان كان الزوار يطلبون رؤية الطبل هاتسوني ، ولكن بما أنه إرث عائلي فلم يكن يتاح للزائرين المارين بالصدفة أن يروه ، بل يتعين على المرء تقديم نفسه مسبقاً بشكل ملائم . ووفقاً لهذا فقد طلب تسومورا من أقاربه في كوزو القيام بإجراء الترتيبات اللازمة ، ولذا فربما كان قدومنا اليوم متوقعاً .

قلت :

ـ عندما تقرع الأميرة شيزوكا الطبل ، يظهر ثعلب متنكراً في هيئة تادانوبا ، لأن جلد أبويه قد استخدم في صنع وجهي الطبل . ذلك هو المقطع . أليس كذلك ؟

ـ بلى ، على هذا النحو يرد في المسرحية .

ـ وتقول العائلة إن الطبل لديها ؟

ـ سمعت بأنهم يقولون ذلك .

ـ أهي مكسوة حقاً بجلدي ثعلبين ؟

ـ لا أستطيع أن أعدك بذلك ، لأنني لم أرها بدوري . ولكن لا شك في أنها عائلة عريقة .

ـ أتساءل عما إذا لم يكن هذا مماثلاً لمتجر سوشي دلو البئر ، فقبل وقت طويل ربما اخترع شخص ثرثار الأمر اختراعاً من وحي مسرحية النو الموسومة « الأميرتان شيزوكا » .

ـ ربما ، لكني مهتم بذاك الطبل ، وأرغب بالتأكيد في زيارة دار

أوتاني ورؤية الطبل هاتسوني ، لقد أردت القيام بذلك منذ زمن بعيد ، وهذا أحد الأسباب التي دفعتني للقيام بهذه الرحلة .

قال تسومورا هذا وبدا أن هناك شيئاً يختفي وراء ما قال ، لكنه أضاف ببساطة : « سأحدثك بجلية الأمر فيما بعد » ولم يفه بكلمة بعد ذلك .

٢ ـ الطبل هاتسوني

تواصل الطريق من كاميتشي إلى مياتاكي على الضفة اليسرى لنهر يوشينو ، وتعددت تجليات الخريف مع الإيغال في الجبال . مراراً وتكراراً عندما نلج أجمة من السنديان كان الحفيف ينبعث من سجاجيد ممتدة تحت أقدامنا من أوراق الأشجار . وتناثرت شجيرات القيقب ، دون أن تلتم في أجمات ، لكن الأوراق الحمراء كانت في أوجها ، ورقشت أشجار اللبلاب والسماق والـلك القمم المكسوة بأشجار الأرز بكل الظلال من أعمق درجات الأحمر القرمزي حتى أشد درجات اللون الأصفر شحوباً . قلت : « أوراق أشجار حمراء »، على نحو ما يقول الناس غالباً ، ولكن في حقيقة الأمر كانت هناك تنويعات مركبة من الأصفر والبني والأحمر . وبين الأوراق الحمراء كانت هناك عشرات من الظلال المختلفة . ويقال إن وجوه الجميع تتحول إلى اللون الأحمر خلال الخريف في شيوهارا بشيموتسوكي . ومشهد الأوراق ذات اللون الواحد هو مشهد جميل ، لكن هذا النوع ذا الألوان العديدة جميل بدوره. هناك تعبيرات صينية بليغة تصف حشد الألوان المتواضعة في ألوان الربيع البرية ، ولكن هنا كذلك ، مع الفارق المتمثل في أن الأصفر الخريفي هو الذي يحدد الإطار العام ، فإن تنوع الألوان كان في ثراء تنوع الألوان في أي حقل خلال الربيع . وعبر الضوء المتسرب إلى الوديان من بين الجرف ، راحت الأوراق تتساقط ، متألقة كالتبر ، إلى الماء .

ويعتقد أن عدداً من المواضع الوارد ذكرها في « مانيوشو »، ومن بينها دارة الإمبراطور تيمو في يوشينو ، و « القصر المنيف على شاطىء منحدرات يوشينو » ، على نحو ما عبر الشاعر كاسا في مسرحية النو الموسومة « كاناموريا » ، وحقول أكيزو التي ورد ذكرها في قصيدة هيتومارو ، وجبل ميغوني ، تقع قرب قرية مياتاكي الحالية . وقبل أن نوغل كثيراً في القرية ، تركنا الطريق الرئيسي وعبرنا إلى الضفة المقابلة . هنا يضيق الوادي تدريجياً ، وتتحول الضفتان إلى صخور ، ويلطم الماء الفوار جلاميد القاع ، ويتدفق إلى البحيرات الزرقاء الصافية . وعبر غدير كيسا ، وهو دفق منساب من الماء ينطلق من أعماق نهر كيسا الغابية ، يمتد جسر الإغفاء ، حيث يصب في بحيرة . وربما كانت المرويات القديمة ، التي تقول إن يوشيتسوني قد أغفى في موقع الجسر ناتجة عن تحليق لاحق في عالم الخيال . وكان الجسر الرشيق الذي يبدو للناظر هشاً يوشك أن يكون محتجباً تماماً وراء حشد من الأشجار ، وربما مست الحاجة إلى السقف الصغير لحماية الجسر من الأوراق المتساقطة أكثر من الماء المنهمر . وبدا أن من شأن جسر غير مسقوف أن يدفن سريعاً تحت أوراق الخريف . وهناك بيتان ريفيان غير بعيدين عن الجسر . وقد استخدمت العائلتان ، فيما يبدو ، الفراغ الموجود تحت السقف ، لأغراض التخزين الخاصة بهما . فاحتشد الجسر بأكوام من حطب الحريق التي لا تترك إلا فراغاً يكفي لمرور شخص واحد . وقد أطلق على المكان اسم هيجويتشي . هنا يتفرع الطريق إلى فرعين ، فرع يسير بحذاء ضفة النهر إلى قرية ناتسومي ، والآخر يعبر جسر الإغفاء ، ويمر بمزار ساكوراجي وقرية كيساداني ويفضي إلى الألف العليا وكوكي ـ نو ـ شيميزو وصومعة الشاعر سايجيو . وربما كان الرجل المشار إليه في قصيدة شيزوكا والذي « شق طريقه

عبر الجليد الأبيض على القمة » قد عبر الجسر ، ومضى من جبال يوشينو الداخلية نحو وادي تشوين .

حينما لاحظنا الأمر ، في نهاية المطاف ، كانت الجبال أمامنا قد أصبحت سامقة ودانية ، فضاقت الساحة التي نلمحها من السماء وبدا نهريوشينو والدور والطريق كما لو كانت جميعها يتحتم أن تصل إلى نهاية لا مناص منها في هذا الوادي الغائر بين الجبال ، ولكن القرى تتناثر ، فيما يبدو ، حيثما وجد مجال ، فعلى منحدر ضفة نهر متداعية ، وفي حوض يشبه جوف غرارة ، محاط من ثلاثة جوانب بعواصف جبلية ، أعدت المدارج المزردعة ، وبنيت الدور ذات الأسقف المغطاة بالأغصان ، وزرعت الحقول . كانت تلك هي قرية ناتسومي . خلع عليها النهر وشكل الجبال ملمح مكان يمكن أن يكون لاجئون من العاصمة قد أقاموا فيه .

لم نلق صعوبة تذكر في العثور على دار أوتاني . وكانت تقع في بستان من أشجار التوت ، غير بعيد عن النهر ، على بعد ثلث الميل من تخوم القرية . كان السقف رائعاً ، وقد استطالت أشجار التوت ، حتى أنه لا يظهر من بعيد إلا السقف المكسو بالقش والذي زود فقاره بنوع من السقف الإضافي وسقف من الحجارة عند الطنف ، وكأنه جزيرة فوق بحر من أوراق الأشجار ، وبدا مغرياً بالقدوم إليه . غير أن الدار ذاتها كانت عادية تماماً بالمقارنة مع السقف . دار ريفيه نموذجية ، بها غرفتان ملحقتان في المقدمة ، تواجهان الحقول . وكان الشوجي مفتوحاً ، وفي الغرفة ذات التجويف جلس رب الدار ، وهو رجل في حوالي الأربعين من العمر . وبمجرد رؤيته لنا خرج للترحيب بنا ، حتى قبل أن نستطيع تقديم أنفسنا له . وبوجهه مشدود الجلد ، الذي لوحته الشمس ، وعينيه المكدودتين الودودتين ،

ورأسه الصغيرة ، وكتفيه العريضتين ، كـان نموذجـاً مجسداً للفلاّح البسيط الصريح . قال :

ـ حـدثني السيـد كـومبـو في كــوزو عنكم ، وكنت في انتـظار مقدمكم .

ولكن حتى تـرحيبه البسيط ذاك تم الإعـراب عنه بلهجـة ريفية يصعب عليّ فهمهـا . ورداً على استفسـاراتنـا ، اكتفى بـالانحنـاء انحناءة رسمية دون أن يطرح رداً واحداً . وقد عنّ لي أن العائلة قد عانت محنة تدهور بالغ ولم يعد لها إلا القليل من تميزهـا القديم ، ولكن بالنسبة لي كان رجلٌ على هذه الشاكلة أكثر سهولة في التواصل معه .

ـ إننـا نـأسف لإزعـاجنـا لكم ، وأنتم على هــذا القـدر من الانشغـال . وقد سمعنـا بأنكم نـادراً ما تعـرضون إرثكم العـائلي ، ونخشى أن مجيئنا ، على هذا النحو ، لرؤيتكم فيـه من الغلاظـة ما فيه .

ـ لا ، لا يـرجـع الأمـر إلى عـدم رغبتنـا في عـرض مقتنيـاتنـا الموروثة . . .

على استحياء ، وبما يوحي بالحرج ، قال لنا إن أعراف العائلة تقتضي أسبوعاً من التطهُّر قبل إخـراج المقتنيات ، لكن العـائلة لا تستطيع الالتزام بمثل هذه القاعدة المتشددة تمـاماً ، وسيسعـدها أن تعرض موروثاتها على كل من يطلب رؤيتها ، وذلك على الرغم من أن أفرادها نظراً لانشغالهم بأعمال المزرعة ليس لديهم الوقت الكافي لتحقيق ما يرغب منه الزوار المفاجئون . وهـم ، في هذا الوقت من العام بصفة خاصة ، مشغولون بديدان قز الخريف ، وبشكل عام فقد نزعت الحصر من الدار كلها . بل إنهم ليست لديهم غرف يستقبلون

فيها الضيوف غير المتوقعين، ولكن إن كان أحد على قدر من اللطف يتيح له أن يعرف بقدومه مسبقاً ، فإنه على الدوام سيقوم بإجراء الترتيبات الضرورية وينتظره . كان حديثه متعثراً ، وأظفار أصابعه سوداء تماماً ، وهي ترتاح ، على نحو رسمي على ركبتيه .

من الواضح ، إذن ، أنه قد أعاد وضع الحصر في هاتين الغرفتين تحسباً لزيارتنا ، وراح ينتظرنا . وكان بمقدوري من خلال شق في الأبواب المنزلقة، الإطلال على الغرفة المجاورة ، التي تستخدم مخزناً ، حيث كان خليط من الأدوات الزراعية قد كوّم على عجل على ألواح الأرضية الخشبية العارية . كانت الموروثات قد وضعت بالفعل في التجويف الخاص بالغرفة . التقطها رب الدار ، وراح يضعها واحدة إثر الأخرى أمامنا في مزيد من التوقير : لفافة من الورق بعنوان « تاريخ قرية ناتسومي » ، العديد من السيوف القصيرة والطويلة المهداة من الأمير يوشيتسوني ، قائمة بالهدايا ، أغماد للسيوف ، جعبة سهام ، إناء خزفي للساكي ، والطبل هاتسويني ، وهو هدية من الأميرة شيزوكا . كانت نهاية لفافة الورق تحمل الكلمات التالية : « كتبت بأمر من حاكم جوجو الزائر نايتو موكوزايمون بيد أوتاني جيمباي ذي الأعوام الستة والسبعين ، تسجيلاً لما سمعه » . وقد أرخت على النحو التالي : « صيف ١٨٥٥ » ، وهناك حكاية متوارثة تقول إنه حينما زار البلدة الحاكم نايتو موكوزايمون في ١٨٥٥ ، انحنى أوتاني جيمباي الجد الأعلى لرب العائلة الحالي محيياً ، ولكن عندما قدم هذه الوثيقة قدم له الحاكم مقعداً ، وانحنى أمامه . غير أن لفافة الورق كانت شديدة الاتساخ بحيث بدت كما لو كانت قد تفحمت ، وبما أنه كان من الصعب قراءة ما فيها ، فقد صحبتها نسخة لما ورد فيه . ولست أدري

بجلية أمر الأصل ، لكن النسخة كانت تحتوي عدداً كبيراً من الأخطاء في الحروف والتراكيب وكانت معان عـديدة ملتبسـة ، ولم يكن من المعقول أن كاتبهـا قد نـال حظاً من التعليم الـرسمي . وبحسب ما يقوله النص ، فإن أسلاف العائلة قد أقاموا في هذا المكان منذ عهد نارا . وفي حرب الوراثة لعام ٦٧٢ قام أويوري ، مفتش موراكـوني بتأييد الأمبراطور تيمو ، وقتل الأمبراطور كوبون . ويشيـر النص إلى أنه في تلك الأيام كان المفتش يحكم ثلاثة أميال ونصف الميـل من هذه القرية حتى كاميتشي ، وهكذا فإن نهر ناتسومي يشير إلى ذلـك الجزء من نهر يو شينو . وفيما يتعلق بالأمير يوشيتسوني جاء في النص مـا يلي : « احتفل الأميـر مينا مـوتو يـو شيتسوني بمهـرجـان الشهـر الخامس بجبل شيرايا في كاواكامي ، ثم هبط الجبل ومكث في دار مفتش موراكوني شهراً أو أربعين يومـاً . وعندمـا رأى جسر شيبـاني ميساتاكي نظم هذه الأبيات» وتلي ذلك قصيـدتان . وحتى اليـوم لا علم لي بـأي قصائـد ليوشيتسوني . وحتى بالنسبـة لعينين تنقصهما الخبرة فإن القصيدتين المسجلتين هناك لم تكونا من الشعر المنتمي إلى أواخر العهد الهايني ، كما أن المقـولة كـانت غليظة ومبتـذلة . وجاء في النص ما يلي خاصاً بـالأميرة شيـزوكا : « في ذلـك الوقت كانت الأميرة شيزوكا ، محبوبة الأمير يو شيتسوني الأثيرة تقيم في دار موراكوني. وبعد هرب الأمير يو شيتسوني إلى موتسو، فقدت كل أمل بقي لها ، وألقت بنفسها في بئر ، ويطلق على هذه البئر اسم « بئـر شيزوكا » . إذن ، فقد لقيت حتفها هنا ، بحسب ما جـاء في لفافـة الورق ، ويمضي النص قائلاً : « ورغم ذلك ، فإن الأميرة شيـزوكا ربما شتتها انفصالها عن الأمير يو شيتسوني ، فانبعثت في هيئة روح نارية من البئر كل ليلة على مدار ثلاثة قرون . وفي ذلك العهد ، كان الناسك رنيو في قرية آيجاي ، يرشد الجميع إلى طريق بوذا ، فتوسل

إليه القرويون أن يعمل على خلاص روح شيزوكا ، ودونما تردد قادها الناسك إلى رحاب بوذا ، ثم كتب قصيدة على ردن ردائها الذي احتفظت به عائلة أوتايني عقب ذلك» وتضمن النص القصيدة . وفيما كنا نقرأ اللفافة ، جلس مضيفنا في هدوء دون تقديم كلمة على سبيل الإيضاح ، لكن التعبير المرتسم على محياه أوحى بأنه يتقبل دونما تساؤل الأمور التي خلفها له أسلافه . سألناه : « ما الذي حدث للرداء الذي كتب الناسك القصيدة عليه ؟ » ، فرد بأن أسلافه قد وهبوه لمعبد إحدى القرى ويدعى سايشوجي ، كتقدمة لبعث روح شيزوكا في الفردوس ، ولكن ما من أحد يعرف إلام صار أمره ، وهو ليس بحوزة المعبد . وبدت السيوف وجعبة السهام عندما التقطناها وتفحصناها بالغة القدم ، وبصفة خاصة الجعبة التي لحقها تلف شديد وبليت ، لكنها لم تكن مما يمكن لنا تقويمه ومعرفة قدره ، أما فيما يتعلق بالطبل هاتسوني ، فلم يكن مكسواً بالجلد ، وإنما جسم الطبل الخشبي وحده وضع في صندوق من شجرة بولفينية . ولم نكن على يقين من أمر الطبل كذلك ، لكن طبقة اللك التي طلي بها بدت حديثة نسبياً ، ولم تكن هناك أية زخارف ، وبقدر ما لاح لنا فقد كان جسم الطبل عادياً ، وصلباً ، وأسود اللون . غير أن الخشب بدا قديماً حقاً ، وهكذا فربما أعيد طلاؤه باللك في وقت ما ، وقد رد مضيفنا على هذه الملاحظة دونما اكتراث بقوله : « نعم ، ربما كان الأمر كذلك » .

كانت هناك لوحتان تذكاريتان مهيبتان ، زودتا بما يشبه الأسقف والأبواب . على باب إحداهما نقش شعار هو وريقة نبات الخبيزة ، وعلى اللوحة نفسها نقشت الكلمات التالية : « لوحة رئيس الوزراء من الطبقة الأولى ، الدرجة الأرفع » ، أما الأخرى فقد نقش على

بـابها شعـار هو زهـرة المشمش ، وعلى اللوحـة بـالـداخـل نقشت الكلمات التالية : « إلى النيرفـانا ، لـوحة شـويو ـ تيجـايوكـو » وهو الاسم الذي كان فيما يبدو اسم ما بعد الوفاة لامرأة ، وعلى الجانب الأيمن كتب « العام الثاني لجيمبون » وهو العام الذي يوافق ١٧٣٧ ، وعلى الجانب الأيسر كتب « الشهر الحادي عشر ، اليوم العاشر » . غير أن مضيفنا لم يكن لديه علم بأمر هاتين اللوحتين ، وقد قيل ، من قديم الزمان ، إنهما تخلدان ذكرى سيد عائلة أوتاني ، وكان من عادة العائلة الاحتفاء بهما في اليوم الأول من كل عام ، وأضاف يقول جاداً إن اللوحة التي تحمل عام جيمبون ربما كانت لوحة الأميرة شيزوكا .

حالت عيناه الهادئتان الوادعتان الكالتان بيننـا وبين التلفظ ببنت شفة . لم يكن هناك طائل من أن نبلغه بالتوقيت الزمني لعهد جيمبون أو في الإشارة إلى كتاب « مرآة الشرق » أو « حكاية الهايكة » اللذين يبحثـان في حياة الأميرة شيزوكـا . فقد كـان رب العائلة يؤمن بكـل شيء بصفـة مـطلقـة . ولم تكن الأمـيرة التي تـداعب خيـالـه هي بـالضرورة الأميـرة شيـزوكـا التي رقصت أمـام يـوريتـومـو في مـزار تسوروجاوكـا . فبالنسبـة له كـانت سيدة نبيلة ، تـرمز لأيـام أسلافـه الغابرين ، ذلك الماضي الأثير . كانت السيدة الأرستقراطية الشجية المسماة بـ « الأميرة شيزوكا » هي محور توقيره وإخلاصه لأسلافـه ، الأمير ، والعهود الخالية . لم يكن ثمة ما يدعو إلى التساؤل عما إذا كانت السيدة النبيلة قـد أقامت حقـاً في هذه الـدار واعتكفت هاهنـا وحيدة . كان الخيار الأفضل هو أن ندعه مع المعتقدات التي كانت بالغة الأهمية بالنسبة له . ولئن نظرنا إلى الأمر بصورة متعاطفة ، لقلنا إنه ربما حينما كانت العائلة في أوجها ، وقعت حادثة كان مناطها ، إن لم تكن الأميـرة شيزوكـا ذاتها ، أميـرة من البلاط الجنـوبي ، أو

لاجئة من هول الحروب الأهلية في القرن السادس عشر ، وغدت هذه الحادثة ممتزجة بأسطورة شيزوكا .

فيما كنا نوشك على الاستئذان للرحيل ، قال رب الدار :

ـ ليس لدينا الكثير مما يمكن أن نقدمه ، لكني أرجوكم أن تجربوا بعض المنضجات .

كان قد أعد الشاي وجلب وعاء يضم ثمار البرسيمون ، مع منفضة رماد نظيفة وخالية . كانت المنفضة لاستخدامها لا للتخلص من الرماد ، وإنما كصحفة تتناول منها ثمار البرسيمون الناعمة الناضجة . وعقب إلحاحه كي نتناول بعضاً منها ، وضعت إحداها في حرص في راحة يدي . بدت كما لو كانت ستنفجر في أي لحظة . كانت ثمرة برسيمون كبيرة مخروطية الشكل ذات طرف مدبب ، وقد نضجت ، فغدت شفافة الحمرة مع ميل إلى القتام ، ورغم انتفاخها كأنها حقيبة مطاطية ، فقد كانت جميلة كاليشب لدى تعريضها للضوء . ولا تصل ثمار البرسيمون المحلاة في البراميل الخشبية التي تباع في المدينة أبداً إلى هذا اللون البديع مهما بلغت درجة نضجها ، وتتداعى قبل أن تبلغ هذه النعومة . قال مضيفنا إن ثمار برسيمون مينو ذات الجلد الغليظ هي وحدها المناسبة لإعداد المنضجات منها ، إذ يتم قطفها فيما هي لا تزال صلبة ، فجة ، وتوضع حيث لا يطالها النسيم في صناديق أو سلال . وفي غضون عشرة أيام ، ودونما تدخل من إنسان فإن دواخلها تستحيل إلى شبه سائل في عذوبة الرحيق . أما أنواع البرسيمون الأخرى فإنها ستغدو طرية كالماء ، وليست دبقة كبرسيمون مينو . وبإزالة العنق والتناول منها عبر الفتحة بملعقة يستطيع المرء أن يلتهمها كالبيض هش السلق ، ولكن طعمها يغدو أفضل إذا ما وضعت في طبق ، وتم

تقشيرها وتناولها باليد ، رغم أن هذه الطريقة مربكة قليلاً . ومن شأن عشرة أيام أن تصل بها إلى أجمل وأشهر مراحلها ، ولكن إبقاءها لمدة أطول من هذا يحولها إلى ماء .

فيما رحت أصغي إلى هذا الحديث حدقت إلى قطرة النوى القابعة في راحتي . بدا الأمر كما لو أن غموض وألق شمس الجبال قد تجسد في كفي . لقد سبق لي أن سمعت بأن القرويين الذين يزورون العاصمة اعتادوا أن يأخذوا ملء دلاء من التربة معهم لدى عودتهم كتذكارات للرحلة ، ولئن سألني أحدهم عن لون الخريف في يو شينو ، فأحسب أنني سأعود معي ببعض ثمار البرسيمون إلى الدار لأريها له .

في نهاية المطاف ، كان ما أثر في نفسي أكثر من غيره في دار أوتايني هو منضجات البرسيمون وليس الطبل ولا الوثائق . وقد التهمت مع تسومورا اثنتين من ثمار البرسيمون الحلوة المليئة بالعصير ، فانتعشنا بالبرودة المنسابة من لثتينا إلى جوفينا . لقد ملأت فمي بخريف يوشينو ، وحتى ثمار المانجو الوارد ذكرها في النصوص البوذية قد لا يكون طعمها طيباً على هذا النحو .

صيحة الثعلب

ـ لا تقول اللفافة التاريخية إلا أن الطبل هاتسوني كان تذكاراً من الأميرة شيزوكا ، ولا يرد فيها شيء عن جلود الثعالب .

ـ أصبت ، لكني أعتقد أن الطبل يسبق في وجوده المسرحية ، ولو أن المسرحية جاءت أولاً ، لكان الطبل قد ورد ليكون أكثر اتصالاً بحبكة المسرحية . وكما أن مؤلف مسرحية «إموسياما» قد استلهم فكرته من رؤية المشهد الفعلي ، فلا بد كذلك أن مؤلف مسرحية

« أشجار الكرز الألف » قد زار دار أوتايني ، أو سمع بها ، وبنى صرح أفكاره انطلاقاً من هذه النقطة . والمشكلة الوحيدة هي أن مؤلف « أشجار الكرز الألف » هو تاكيدا إيزومو ، وهكذا فإن المسرحية يتعين أن تكون قد كتبت قبل خمسينيات القرن الثامن عشر ، ولكن الوثيقة التاريخية كتبت في عام ١٨٥٥ . ومع ذلك فلا بد أن هذه المأثورات تعود إلى عهد أقدم ، لأن اللفافة توضح أنها « كتبت بيد أوتاني جيمباي ، ذي السنوات الست والسبعين ، تسجيلاً لما سمعه » . وحتى إذا لم يكن الطبل أصلياً ، فإني أعتقد أنه من المنطقي الافتراض بأنه كان موجوداً هناك قبل عام ١٨٥٥ . ألا تظن ذلك ؟

ـ ولكن الطبل يبدو جديداً . أليس كذلك ؟

ـ آه ، بلى ، ربما كان جديداً ، ولكني أعتقد أنه كان هناك جيلان أو ثلاثة أجيال من الطبول ، وكل طبل يعاد طلاؤه وتجديده . وقبل الطبل الذي رأيناه لا بد أن كانت هناك طبول أخرى أقدم في صندوق خشب البولفينية ذاك .

كان جسر شيبا يفضي من تاتسومي إلى مياتاكي على الضفة المقابلة . جلسنا على الصخور عند أسفل الجسر ، وانغمسنا في الحديث لبعض الوقت .

في كتاب « جولة في ياماتو » يقول كايبارا إيكايكين : « ليس مياتاكا بالشلال كما يوحي اسمه . وهناك صخور كبيرة على كلا الجانبين ، يتدفق نهر يوشينو فيما بينها . وتتألف الضفتان كلتاهما من صخور هائلة يصل ارتفاعها إلى ثلاثين قدماً ، تنتصب كأنها ستائر تطوى . ويبلغ عرض النهر بين الضفتين حوالي عشرين قدماً . وعند الموضع الضيق يمتد جسر ، ولأن النهر يضيق عندما يبلغ هذا

الموضع فإنه يغدو عميقاً ، ويصبح المشهد بديعاً » . وهـذا المقطع يصف المشهد من الصخور حيث كنا ننال قسطاً من الراحة : « يقفز القرويون ، الذين يطلق عليهم : القافزون من فـوق الصخور ، من الصخور إلى الماء ويسبحون مع التيار ، حيث يخرجون ، ويجمعون النقـود مقابـل هذا العـرض . وعنـدمـا يقفـزون يبقـون أيـديهم إلى جنـوبهم ، ويضمون أقـدامهم معاً ، ويلجـون المـاء إلى عمق يبلغ حـوالي عشرة أقـدام ثم يطفـون فوق السـطح بـإعمـال أيـديهم في الماء » . وهناك صورة للقافزين من فوق الصخور في كتاب « الأماكن الشهيرة المصورة » . ويبدو شكل الضفتين ومجرى النهر تماماً كمـا هو موضح في الصورة . وينعطف النهر بحدة هنا فيما هو يندفع مزبداً بين الجلاميد . وكان السيد أوتاني قد أبلغنا بأنه من الأمور المألوفة أن تتحـطم الأطواف على هـذه الصخـور ، ويمضي القـرويـون الـذين يقومون بالقفز وقتهم في الصيد والزراعة . وعنـدما يقبـل الزوار إلى المنطقة فإن القرويين يحصلون على النقود ويقدمون عرضهم العجيب ذاك ، فيحصلون على مائة قـطعة نحـاسية مقـابل الـوثب من الضفة المقابلة حيث الصخور أقل ارتفاعاً هوناً ما وعلى مائتي قطعة مقابـل الوثب من صخرة عالية على هذه الضفة . ولهـذا السبب أطلق اسم صخـرة المائـة قطعـة على صخرة بعينهـا وعلى أخرى اسم صخـرة المائتي قطعة . ولا يزال هذا الاسم موجوداً حتى الآن ، ولكن مؤخراً لم يأت إلى هنا إلا القليل من الزوار ، فيما قـاله السيـد ، أوتاني ، واحتضرت ممارسة رياضة القفز في الماء ، وإن كان قد شاهدها في صدر شبابه . كان معظم الناس الذين يحضرون لرؤية البراعم في الأيام الخوالي قبل إقامة السكك الحديدية يسلكون طريق مقاطعة أودا في طـريقهم إلى هنا . وبتعبيـر آخر فـإن الطريق الـذي سلكـه يوشيتسونـي لدى هربه من العاصمة لا بد أنه كان المسار المعتاد .

ومن المؤكد أن تاكيد إيزومو قد جاء إلى هنا كذلك ، وشاهد الطبل هاتسوني .

لسبب ما كان تسومورا لا يزال يفكر في هاتسوني ، فيما هو جالس على الصخور . قال إنه ليس بالثعلب تادانوبو ، ولكنه منجذب إلى الطبل أكثر من انجذاب الثعلب إليه . وعندما رآه أحس بأنه يرى أبويه .

عند هذا الموضع ، لا بد لي أن أحدثكم بالمزيد عن تسومورا . ولم أكن أدري بالتفاصيل ، إلى أن أفضي لى بدخيلة نفسه على تلك الصخور . فكما سبق لي القول ، كنا رفيقي دراسة في الكلية التأهيلية وعلى صلة حميمة أحدنا بالآخر ، ولكن عندما حان الأوان للالتحاق بالجامعة عاد إلى مسقط رأسه في أوساكا لأسباب عائلية ، وانقطع عن الدراسة . وقد أبلغني في ذلك الوقت بأن عائلته كانت تعمل في إقراض المال منذ أجيال في منطقة شيمانوتشي في أوساكا . وقد توفي والداه في وقت مبكر ، فقامت جدته لأبيه على تربيته وأختيه . وقد تزوجت الأخت الكبرى منذ بعض الوقت، وبدورها خطبت أخته الصغرى وأوشكت على الزواج . وساور شعور بالوحدة جدته ، ولم يكن هناك من يقوم على شؤون أعمال العائلة ؛ ولذا قرر بين عشية وضحاها ترك المدرسة ، وقد حثته على الالتحاق بجامعة كيوتو ، ولكنه قال إنه أكثر اهتماماً بالكتابة منه بالدراسة ، وإنه يمكن أن يعهد بالعمل إلى أحد الكتبة ، وإن سعادته الكبرى ستكون في العكوف على كتابة الروايات في وقت فراغه .

بعد ذلك ، كنا نتراسل بين الحين والآخر ، ولكنه لم يشر إلى أنه يكتب أي شيء بخلاف الرسائل ؛ فمن شأن الطموح أن يتراجع عندما يستقر شاب في رحاب حياة هنيئة في موطنه ، وتسومورا بدوره

ربما حينما ألف هذا الوضع قنع بحياة التاجر الوادعة . وبعد عامين ، عندما قرأت في حاشية إحدى رسائله أن جدته قد توفيت افترضت أنه سرعان ما يعثر على عروس شابة جميلة في إطار تقاليد أوساكا ، وسرعان ما يصبح سيداً من سادة شيمانوتشي المهذبين .

وفي وقت لاحق ، زار تسومورا طوكيو مرتين أو ثلاثاً ، ولكن هذه الرحلة كانت أول فرصة لنا لنتبادل الحديث مطولاً منذ تركه للدراسة . ولدى مقابلتي له بعد فراق طويل وجدته على نحو ما توقعت ، فالرجال والنساء يتغيرون من الناحية البدنية لدى تركهم الدراسة واستقرارهم في بيوتهم ، حيث تبيض وجوههم ، وتمتلىء أجسامهم ، كأنما تحسّن طعامهم فجأة . وفي حالة تسومورا طرأ على شخصيته بدورها ذلك التطور المتمثل في لطف المعشر الذي يميز شاباً من لوساكا يحيا عيشة راضية . وامتزجت لكنته (التي غدت الآن أقوى من ذي قبل) بآثار باقية من طريقته في الحديث حينما كان طالباً . ويتعين ، إذن ، أن يكون هذا الوصف كافياً للإيحاء بما كان عليه مظهره الخارجي .

أما فيما يتصل بتعلق تسومورا بالطبل هاتسوني ، ذلك التعلق الذي شرع فجأة في إيضاحه لي هنالك على الصخور ، فهو يشكل قصة طويلة مع دوافعه للإعداد لهذه الرحلة وهدفه المكنون منها ، لكن سأوجز ما قاله لي بقدر الإمكان .

(أنشأ يقول) ربما لن يفهم مشاعري إلا رفيق من أبناء أوساكا ، رحل أبواه مبكرين ، كما حدث في حالتي وما عاد بمقدوره أن يتذكر محياهما . وكما تعلم فإن هناك ثلاثة أنواع من الموسيقى نشأت في رحاب أوساكا : قصائد الجوروري البطولية ، ومؤلفات الكوتو المنتمية إلى مدرسة إيكوتا ، وأغنيات جيوتا . ولست من عشاق

الموسيقى ، ولكن هذه الأشكال الموسيقية كانت جزءاً مما يحيط بي ، كنت أسمعها غالباً ، وتأثرت بها دون أن أدري . وأذكر بصفة خاصة مشهداً في غرفة داخلية في دار شيمانوتشي ، حينما كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري . كانت امرأة رقيقة مدينية الطباع ذات بشرة شاحبة وعينين براقتين صافيتين تعزف على الكوتو ، يصحبها عازف شاميسين متمكن مكفوف البصر . وأحسب أن صورة المرأة التي تعزف على الكوتو هي الأثر الوحيد لأمي الذي ظل عالقاً بذاكرتي . ولكن ليس من المؤكد أن المرأة كانت في حقيقة الأمر أمي . وبعد سنوات ، أخبرتني جدتي بأنها هي نفسها ربما كانت المرأة التي علقت صورتها بذاكرتي ، وأن أمي ماتت قبيل ذلك الوقت . ورغم ذلك ، فمن الغريب أنني أتذكر أن عازف الموسيقى وتلك السيدة كانا يعزفان قطعة تنتمي إلى مدرسة إيكوتا عنوانها « كونكاي » أو « صيحة الثعلب » . ولأن جدتي وأختيّ كنّ من الدارسات على يد عازف وأستاذ الموسيقى نفسه فقد استمعت إلى مقطوعة « صيحة الثعلب » مرات عديدة عقب ذلك ، فكانت الصورة تزداد تجدداً على الدوام ، وتلك هي الأبيات التي كانت المعزوفة تصاحبها :

آه ، كم هو محزن ، كم هو محزن
أن الأم بخلاف الزهرة
في مرقد من قطرة ندى تنداح ،
أن مرآة الحكمة
يعلوها الضباب .
إذ تلتقي كاهناً ،
تلتفت الأم ،

عندما أنادي ،
كأنما تقول وداعاً .
ليس ثمة إلا الصراخ .
عبر الحقول ، عبر التلال ،
مجتازاً القرى
لمن جئت ؟ من أجلك .
من أجلك جئت .
أراحل أنت ؟ آه يا للألم !
إلى الغابة حيث مقامي
ســـــأعود ،
بقلبي المترع بالحنين ،
دون أن يدري قلبي المترع بالحنين .
عبر زهور الأقحوان البيض ،
من خلل الصخور ، من بين ثنايا اللبلاب ،
متناهية عبر
الممر الخيزراني الضيق
جميلة هي
أصوات الحشرات .
السماء تشرع في النحيب ، آه !
إنها تشرع في النحيب ،
حتى هذا الصباح ،
حتى هذا الصباح ،
ما من أثر يبقى ،
في حقول الغرب ،
الحواجز متقلقلة

فلتعبر بخطى متعثرة ،
الأودية والذرى ،
فلتعبر ذاك التل ،
فلتعبر هذا التل ،
يشقّك الحنين ، يشقّك الحين ، ويضنيك الشوق !

منذ ذلك الحين تعلمت ذلك اللحن ، والفواصل النغمية كذلك ، لكن من المحقق أن شيئاً ما في هذه الأبيات قد غاص في فؤادي الغض سهل التأثر ، بحيث دفعني إلى تذكر عزف معلم الموسيقى والمرأة لهذه المقطوعة .

تحفل أشعار جيوتا بمقاطع غير متماسكة وملتبسة من حيث القواعد التي تحكمها ، وغالباً ما يبدو هذا الغموض مقصوداً . فالأغنيات التي تضرب جذورها في تقاليد مستمدة من مسرح النو أو من الجورروري يصعب فهمها بشكل خاص دون معرفة بالمصادر . وربما كانت « صرخة الثعلب » مما ينتمي إلى هذا النوع . غير أن الأبيات القائلة : « آه ، كم هو محزن ، كم هو محزن ، أن الأم بخلاف الزهرة» و « تلتفت الأم / حينما أنادي / كأنما لتقول وداعاً » تمتلىء بحزن صبي يتوق إلى أمه الراحلة ، وبشكل ما أثرت في نفسي كطفل بريء . وتبدو الأبيات القائلة : « عبر الحقول ، عبر التلال / مجتازاً القرى » و « فلتعبر ذاك التل ، فلتعبر هذا التل » وكأنها تشبه هدهدة أم لطفله قبيل نومه . وليس لدي من سبيل لمعرفة ما تعنيه الأشكال الخاصة بلفظ « كونكاي » ، ولكني تدريجياً وفيما رحت أستمع إلى الأنشودة مراراً وتكراراً ، أدركت على نحو غامض أن لها علاقة بثعلب .

ربما يرجع هذا إلى أن جدتي كثيراً ما صحبتني لمشاهدة

مسرحيات العرائس في مسارح البونراكو والهوري ، وترك ذلك المشهد الذي يرد في مسرحية « أوراق المرنطة » والذي تفارق الأم فيه ولدها أثراً عميقاً في نفسي . الصوت المنتظم لأعواد القصب ، فيما الثعلبة الأم تمضي مضطربة في مساء خريفي ، القصيدة التي تكتبها على الشوجي ، وهي مثقلة القلب لاضطرارها إلى ترك وليدها النائم :

إذا افتقدتني
فأقبل ، وابحث
في غابة شينودا
في إيزومي

سيصعب على امرىء في ظروف أخرى أن يتخيل مدى الجبروت الذي حركت به هذه المشاهد صبياً لم يعرف أمه حق المعرفة نظراً لرحيلها عن الدنيا . في الأبيات القائلة : « بقلبي المترع بالحنين / دون أن يدري قلبي المترع بالحنين / عبر زهور الأقحوان البيض / من خلال الصخور ، بين ثنايا اللبلاب / متناهية عبر / الممر الخيزراني الضيق » . يسعى وليد الأنشودة في يأس وراء شبح الثعلبة البيضاء المتراجع ، فيما هي تنطلق عدواً عبر الممر الخريفي الملون ، نحو وكرها في الغابة ، وإذ أحللت نفسي محل ذاك الوليد ازداد شعوري بغياب أمي حدة .

وربما لأن غابة شينودا قريبة من أوساكا ، فإن الأناشيد التي تدور حول الثعلبة الأم غالباً ما تكون جزءاً لا يتجزأ من الألعاب التي يلهو بها الأطفال في الدار . وأذكر أنشودتين تقول إحداهما :

دعونا نمسك بها ، دعونا نمسك بها ،
ثعلبة غابة شينودا ،

دعونا نمسك بها !

وفيما الأطفال ينشدون ، يقوم أحدهم بدور الثعلبة ، ويقوم آخران بدور صيادين يمسكان بأنشوطة حبل كبيرة يعتزمان بها الإمساك بالثعلبة . وقد سمعت أن هناك لعبة مماثلة في طوكيو ، فطلبت ذات مرة من إحدى فتيات الجيشا في مشرب للشاي أن تؤديها لي ، لكن الكلمات والألحان كانت مختلفة نوعاً ما عن اللعبة على نحو ما تؤدى في أوساكا . وفي طوكيو يظل المؤدّون جالسين ، أما في أوساكا فهم يؤدون وهم وقوف ، وتدنو « الثعلبة » تدريجياً من الأنشوطة ، متوثبة بحركات الثعالب على إيقاع الموسيقى . وهذا المشهد يبدو جذاباً بصفة خاصة عندما تكون « الثعلبة » فتاة جميلة أو عروساً في شرخ الشباب . . وما زلت أذكر أنني ذات أمسية من أمسيات شهر يناير دعيت للتمثيل في دار أحد الأقارب وهناك رأيت امرأة شابة ، صريحة ، بديعة الجمال ، كان تقليدها للثعلبة بارعاً على نحو مذهل . وفي اللعبة الأخرى يجلس عدد من الأطفال في شكل حلقة وكل منهم يمسك بيد الآخر ، وتجلس « الثعلبة » في وسط الدائرة . وفيما الأطفال يغنون ، فإنهم يعمدون إلى تمرير شيء صغير فيما بينهم ، كحبة بقول ، من يد إلى يد بحيث أن الثعلبة لا تستطيع رؤية هذا الشيء ، وعندما تنتهي الأنشودة ، يتجمد الجميع في مواضعهم وتحاول الثعلبة تخمين الشخص الذي يمسك في يده حبة البقول . وتلك هي كلمات هذه الأنشودة :

نلملم الشعير ،
نلملم نبات الأفسنتين ،
في أيدينا تسع بقلات ،
تسع بقلات ، ولكن أكثر من ذلك

نفتقد دار آبائنا .
إذا افتقدتني
أقبل وابحث
في وريقات المرنطة الأسيانة بغابة شينودا !

أستشعر في هذه الأنشودة ، ولو على نحو عاجل ، حنين الطفل إلى موطنه . فالعديد من الصغار يأتون من ريف كاواتشي وإيزومي للعمل في متاجر أوساكا كمتدربين متعاقدين وكخادمات . وبمقدورك في ليالي الشتاء أن ترى في دور الحرفيين في سيمبا وشيمانوتشي هؤلاء الخدم وهم يغلقون الأبواب الخارجية ، وينضمون إلى العائلة حول المدفأة لترديد هذه الأنشودة . ويبدو لي الآن أنه حينما ينشد هؤلاء الأطفال الذين تركوا قراهم الريفية ليتعلموا التجارة وأصول السلوك الراقي : « نفتقد دار آبائنا » فلا بد أنهم يفكرون في آبائهم وأمهاتهم وهم يرقدون في الغرف المعتمة في الدور ذات الأسقف المكسوة بالقش . وفيما بعد ، سمعت هذه الأنشودة وهي تستخدم مصحوبة بعزف الموسيقى في الفصل السادس من مسرحية « الأتباع المخلصون » عندما يدخل الفارسان المنتميان إلى طبقة الساموراي وهما يناديان وقد غطيا وجهيهما بقبعتين من القش ، وقد تأثرت بمدى مطابقة الأنشودة لمحنة يوتيتشن أوكايا وأوكارو .

كان هناك العديد من الخدم الصغار في دار شيمانوتشي ، وعندما كنت أراهم يلهون ويغنون هذه الأغنية كنت أحس نحوهم بالتعاطف والحسد في الوقت نفسه . لقد تركوا آباءهم وأمهاتهم ليقطنوا مع أغراب ، وذلك أمر محزن ، ولكن لهم آباء يمكنهم رؤيتهم في أي وقت بالعودة إلى موطنهم . أما أنا فلم يكن لي أب ولا أم . وقد أوحى لي ذلك بفكرة قوامها أن بمقدوري لقاء أمي إذا

مضيت إلى غابة شينودا ، وفي الصف الثاني أو الثالث الابتدائي تسللت من الدار وذهبت مع رفاقي من الصف إلى هناك . وحتى الآن لا تزال الغابة مكاناً يتعذر الوصول إليه ، فهي على مسيرة ميل ونصف الميل من محطة على خط نانكاي الكهربائي ، وفي ذلك العهد ربما لم يكن هناك قطار ، لأني أذكر فيما يبدو أنني ركبت عربة تجرها الجياد متهالكة المنظر والسير مسافة لا بأس بها على الأقدام . في غابة من أشجار الكافور العملاقة ، وجدت مزار ورقة المرنطة المقام لإيناري ، إله الحصاد ، وبئراً يطلق عليها اسم « مرآة تجلي أميرة ورقة المرنطة » . بعثت الراحة في نفسي قليلاً اللوحات في قاعة النذور ، والألواح التذكارية التي تصور ذلك المشهد الذي تغادر فيه الثعلبة الأم ابنها ، ولوحة شخصية للممثل جاكيودون ، ثم على امتداد الطريق الذي أفضى بي بعيداً عن الغابة ، رحت أصغي في شغف لأصوات الأندال ، المتناهية من وراء الشوجو في الدور الريفية . كان الطريق يجتاز منطقة ينتج فيها قطن كاواتشي ، ولا بد أنه كان هناك العديد من العاكفين على النسج . أوغل الصوت في التخفيف من شعوري بالتعاسة .

غير أنه من الغريب أنني كنت أفتقد أمي كل هذا الافتقاد ، دون افتقاد أبي على النحو ذاته ، ذلك أن أبي هو الذي مات أولاً ، ومن المحتمل أن صورة أمي كانت ماثلة في موضع ما من ذاكرتي ، بينما لم تستطع صورة أبي البقاء . ويوحي لي هذا بأن حبي لأمي كان ببساطة حنيناً غامضاً إلى « المرأة المجهولة » ، وبتعبير آخر أنه كان مرتبطاً بالبراعم الأولى لحب المراهقة . وفي حالتي ، كانت « امرأة الماضي » ، التي هي أمي ، والمرأة التي ستصبح زوجتي في المستقبل هما معاً « امرأتان مجهولتان » وكل منهما يربطها بي خيط

من خيوط القدر لا يبين . وربما كانت هذه الحالة الذهنية قابعة في أغوار الجميع إلى درجة معينة ، حتى في أغوار أولئك الذين تختلف ظروفي عن ظروفهم . وهناك دليل على هذا في « صرخة الثعلب » ، فأبيات مثل « لمن جئت ؟ من أجلك » . و « أراحل أنت ؟ آه ، يا للألم » توحي بحنين طفل إلى أمه ، لكنها تبدو كما لو كانت تعبيراً عن عذاب عاشقين ساعة الوداع . ولا شك في أن مؤلف الأنشودة قد تعمد جعلها غامضة بما يكفي للسماح بطرح هذين التفسيرين . وعلى أي حال ، فإنني مقتنع بأنني منذ المرة الأولى التي سمعت فيها هذه الأنشودة رأى خيالي ما يفوق أمي وحدها . وأعتقد أنني حسبت أنني أرى أمي ، وفي الوقت نفسه ، زوجتي . وهكذا ، فإن صورة أمي التي حملتها في صدري الصغير لم تكن صورة امرأة متقدمة في العمر ، وإنما صورة امرأة شابة وجميلة على نحو خالد . كانت أمي أحلامي مثل سائق حصان الجر سانكيتشي على خشبة المسرح : النبيلة الرائعة شيجينوي التي ترتدي ثوباً قشيباً ، وتعمل مربية لابنة ديميو ، وكنت في أحلامي سانكيتشي .

ربما كان الأمر راجعاً إلى أن كتّاب المسرح في عهد توكوجاوا كانوا بارعين على نحو مذهل في التلاعب بالعقل الباطني لجمهورهم . وفي المسرحية التي تدور حول سانكيتشي ، توضع أميرة على جانب ، وسائق حصان جر صبي على الجانب المقابل ، وبينهما الوصيفة ، التي هي ممرضة وأم في الوقت ذاته . على المستوى السطحي تتناول المسرحية الحب المتبادل بين الآباء وأبنائهم ، ولكن في الظلال يشار إلى المشاعر الرومانسية غير المحددة بعد التي يستشعرها الصبي . ومن منظور سانكيتشي ، على الأقل ، فإن أمه والأميرة ، وهما معاً تقيمان في قصر الديميو الداخلي

المنيف يمكن لهما معاً أن تكونا محلاً لتوقه ومناطاً لحنينه . وفي مسرحية « أوراق شجرة المرنطة » ، فإن الأب والابن يشتركان في حبهما للأم ، ولكن في هذه الحالة تزداد خيالات الجمهور عذوبة عن طريق الحيلة الفنية التي تجعل من الأم ثعلبة . ولقد وددت دائماً أن تكون أمي ثعلبة ، على نحو ما هو الأمر في المسرحية ، وحسدت الصبي الصغير على نحو فظيع ؛ ذلك أنني ما كنت لآمل أن ألتقي بأمي في هذه الحياة قط ؛ لأنها مخلوقة بشرية ، ولكن لو أنها كانت ثعلبة في صورة بشر ، فمنذا الذي يستطيع القول بأنها قد لا تظهر من جديد في هيئة أمي ذات يوم ؟ ومن المؤكد أن مشاعر أي طفل فقد أمه ستنحو النحو ذاته ، لدى مشاهدته للمسرحية . وفي رقصة الرحيل في مسرحية « أشجار الكرز الألف » يبدو الارتباط الخيالي بين الأم والثعلبة ، بين المرأة الجميلة والعاشق أكثر حميمية ، فالأم والطفل هما ثعلبان وبينما يصور شيزوكا والثعلب تادانوبا على أنهما سيدة وتابع فإن المشهد يتم التلاعب به بحيث يبدو كأنه رحلة عاشقين ؛ ولربما كان هذا هو السبب في أن هذه المسرحية الراقصة كانت مسرحيتي الأثيرة ، فقد شبهت نفسي بالثعلب تادانوبا . وفي غمار أخيلتي ، اجتذبني قرع الطبل الذي شُد عليه جلد أبويّ ، وتبعت الأميرة شيزوكا عبر سحب براعم الكرز في جبل يوشينو ، بل إنني فكرت في دراسة الرقص ، بحيث أتحول إلى تادانوبو على خشبة التدريب .

أضاف وهو يحدق ، عبر النهر ، في الظلال الغابية لقرية ناتسومي :

ـ لكن هذا ليس كل ما في الأمر ؛ ففي هذه المرة أشعر بالفعل أن الطبل هاتسوني هو الذي اجتذبني إلى يوشينو .

وتألقت في عينيه الودودتين ابتسامة لم يقدر لي فهم معناها .

من الآن فصاعداً ، سأقدم الصورة ، التي رسمها تسومورا ، على نحو غير مباشر .

كان الشغف الخاص الذي استشعره تسومورا حيال إقليم يوشينو يرجع في أحد جوانبه ، إذن ، إلى تأثير مسرحية « أشجار الكرز الألف » . أما السبب الآخر لهذا الشغف فهو العلم بأن أمه قد جاءت من مقاطعة ياماتو. وعلى امتداد وقت طويل، ظل المكان الذي أقبلت منه على وجه الدقة في ياماتو وما إذا كانت عائلتها قدر لها البقاء من الأمور التي يلفها الغموض. وقد سأل جدته، حينما كانت لا تزال على قيد الحياة، راغباً في معرفة المزيد بقدر الإمكان، ولكنه عجز عن الحصول على ردود واضحة ؛ إذ لم تقل إلا أنها ليس بوسعها التذكر . ومن الغريب أن أياً من أعمامه أو عماته لم يكن يعرف من أين جاءت أمه كذلك . ولأن عائلة تسومورا كانت من العائلات العريقة ، فإن وجود علاقة تمتد إلى جيلين أو ثلاثة كان من شأنها أن تكون في ظل الظروف العادية أمراً طبيعياً كشرط للارتباط بصلة المصاهرة . ولكن حقيقة الأمر هي أن أمه لم تجيء مباشرة من ياماتو للزواج من أبيه ، وإنما بيعت وهي طفلة إلى إحدى دور الترفيه الراقي في أوساكا ، ثم تبنتها عائلة محترمة قبل زواجها . إذن ، فوفقاً للمواد الواردة في سجل العائلة ، ولدت الأم في ١٨٦٣ ، ووافق على زواجها أوراكادو ، المقيم في رقم ٣ إيمباشي في ١٨٧٧ ، وهي في الرابعة عشرة من عمرها ، وماتت في ١٨٩١ في الثامنة والعشرين من عمرها . كان هذا هو كل ما تمكن تسومورا من معرفته عن أمه في الوقت الذي حصل فيه على شهادة المدرسة الإعدادية . وفي وقت لاحق أدرك أن جدته وكبار العائلة الآخرين لم يدلوا بالكثير من

التفاصيل لأنهم لا يحبون الحديث عن ماضي أمه . ولكن بالنسبة لتسومورا لم تؤد الحقيقة القائلة بأن أمه قد نمت في عالم الفن التجاري إلا إلى زيادة حنينه لها، ولم يجد في مثل هذه النشأة ما يشينها أو يبعث على الشعور بالعار على نحو خاص . وربما قويت هذه النزعة عنده لأن أمه تزوجت وهي في الرابعة عشرة من عمرها ، وحتى في عهد الزواج المبكر ذاك ربما كانت لا تزال شابة طاهرة ، لم يكدرها ما في الوسط الذي عايشته من نزعات . ولا شك أنها بفضل هذا تمكنت من إنجاب ثلاثة أطفال ، وإذ جاءت إلى دار زوجها فتاة بسيطة ، فلا بد أنها قد دربت على المهارات المختلفة التي تليق بزوجة تنتمي إلى أسرة رفيعة الشأن . وقد رأى تسومورا ذات مرة كتاب تعليم للعزف على الكوتو استنسخته أمه وهي في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها . وعلى رقعة كبيرة من الورق طويت مرتين كتبت أبيات الشعر أفقياً وأضافت في حرص بين الأبيات علامات العزف على الكوتو بالحبر الأحمر . كان الخط جميلاً كتب بأسلوب أواي في النسخ .

بعد ذلك مضى تسومورا إلى طوكيو للدراسة ، ومن الطبيعي أنه نشأ بعيداً عن العائلة ، ولكن رغبته في العثور على دار أمه لم تزدد إلا قوة . وفي حقيقة الأمر أنه لن يكون من قبيل المبالغة القول بأنه أمضى صدر شبابه في الحنين إلى أمه . لم يستشعر فضولاً بالغاً حيال المارة في الشارع والفتيات وفتيات الجيشا والممثلات اللاتي كان يمر بهن في الطريق ، ولكن النسوة اللاتي اجتذبن انتباهه كن على الدوام ممن لهن وجوه تشبه صورة أمه التي عرفها من الصور الفوتوغرافية . وعندما قرر التوقف عن الدراسة والعودة إلى أوساكا لم يكن ذلك استجابة لرغبة جدته في القيام بذلك فحسب ، وإنما لأنه كان مجتذباً

إلى الإقليم ، إلى بقعة أقرب إلى موطن أمه قليلاً ، وإلى تلك الدار في شي نوتشي ، حيث أمضت نصف عمرها القصير . وكانت هناك كذلك الحقيقة القائلة بأن أمه امرأة تنتمي إلى غربي اليابان . وفي طوكيو نادراً ما التقى بامرأة تشبهها ، ولكنه في أوساكا سيلتقي بمن تشبهها بين الفينة والأخرى . لم يسمع إلا بأنها نشأت في دار للترفيه ، وللأسف لم يدر في أي دار على وجه الدقة ، ولكن لكي يلقى من تماثل أمه راح يخالط النسوة اللاتي يرفهن عن الأثرياء ويتناول الشاي في الدور المتخصصة في تقديمه . وكنتيجة لهذا وقع خلسة في إسار الهوى مرة أو مرتين ، واكتسب سمعة مقيتة تدور حول أنه فتى متسيب الأخلاق . ولكن لأن أنشطته تلك نبعت من توقه إلى أمه ، فإنه لم ينسق إلى أبعد مما ينبغي قط ، وأبقى على عفته .
ثم ، بعد ثلاث سنوات ، ماتت جدته .

بعد موتها بوقت قصير ، مضى لترتيب حاجياتها ، وبدأ بتفقد خزانة مليئة بالأدراج مودعة في المخزن . اختلطت مع أوراق مكتوبة بخط جدته بعض الوثائق والرسائل العتيقة التي لم يسبق له أن رآها قط ، ومن بينها رسائل حب متبادلة بين والديه ، خلال الفترة التي كانت أمه فيها ملزمة بحكم عقد مع أهلها بالمكوث في الدار التي كانت بها ، ورسالة موجهة إلى أمه يبدو أنها من أمها في مقاطعة ياماتو ، وشهادات من أساتذتها الذين علموها العزف على الكوتو والشاميسين وترتيب الزهور وإعداد حفلات الشاي . ولم تكن رسائل الحب ـ وهي ثلاث رسائل من أبيه ورسالتان من أمه ـ شيئاً يتجاوز الملاطفات الحميمة الصبيانية التي تدور بين شاب وشابة غمرتهما نشوة الحب الأول ، لكنها توضح النضج المبكر للشباب في ذلك العهد ، وكانا فيما يبدو يلتقيان سراً ، وعلى الرغم من أن الخط لم

يكن متسماً بالنضج ، إلا أن اللغة الكلاسيكية الرفيعة التي صيغت بها رسائل أمه كانت شيئاً متألقاً إذا ما تذكر المرء أن عمر كاتبتها لم يتجاوز الرابعة عشرة . ولم تكن هناك إلا رسالة واحدة من عائلتها في الريف ، وكانت موجهة إلى « الآنسة سومي ، طرف السيد كوناكاوا ، رقم ٩ ، شيماتشي ، مدينة أوساكا » وكانت موجهة من « عائلة كومبو سوكيزايمون ، كوبوكايتو ، قرية كوزو ، منطقة يوشينو ، مقاطعة ياماتو » وتستهل الرسالة على هذا النحو : « أكتب لك تعبيراً عن امتناننا الشديد لكونك ابنة على هذا القدر البالغ من الإخلاص .
الجو يزداد برودة مع انقضاء كل يوم ، ولكننا شعرنا بالارتياح لأن كل شيء على ما يرام بالنسبة لك . أشكرك وكذلك أباك من أعماق قلبينا » . وأعقبت ذلك سلسلة طويلة من النصائح ، فعليها أن تنظر إلى القيّم على الدار باعتباره أباها ، وأن تخلص له ، وأن تنتبه إلى دروسها ، وألا تحسد الآخرين على مقتنياتهم ، وأن تؤمن بالآلهة وببوذا ، وما إلى ذلك . جلس تسومورا على الأرضية المتربة للمخزن وراح يقرأ الرسالة مراراً وتكراراً في الضوء المتهافت .
وعندما أدرك ، أخيراً ، أن الشمس قد غربت ، مضى إلى مكتبه ، ونشر الرسالة تحت مصباح كهربي . طفت فوق الورقة صورة العجوز ، وهي منكبة تحت ضوء مصباح زيتي في دار ريفية في كوزو تفرك عينيها وهي تسطر هذه الرسالة لابنتها ، كانت لفافة ورقية يزيد طولها على اثني عشر قدماً . وكانت هناك بعض النقاط الغامضة في الهجاء وتركيب الجمل ، كما يمكن للمرء أن يتوقع في رسالة من جدة ريفية ، ولكن الحروف كانت مختزلة على نحو سليم بأسلوب أواي . كان خطاً جيداً ، وليس خط ريفية ساذجة . ورغم ذلك ، فمن الواضح أن الأسرة حلت بها نائبة ما فاضطرت إلى توقيع عقد العمل لابنتها لقاء النقود . وقد أرخت الرسالة بالسابع من ديسمبر ،

ومن سوء الطالع أنها لم تشر إلى العام الذي سطرته فيه ، ولكن كان هناك ما يدعو إلى التكهن بأنها أول رسالة سطرتها إلى ابنتها بعد إرسالها إلى أوساكا . ومع ذلك فقد ألمحت بعض الفقرات إلى الوحدة التي يستشعرها شخص لم تعد في عمره بقية : « هذه هي وصية أمك الأخيرة » و « وحتى حينما لا تعود الحياة تدب في عروقي ، فإني سأكون معك على الدوام ، أساعدك في إحراز النجاح » . ومن المثير للاهتمام بصفة خاصة بين التحذيرات الحريصة بضرورة القيام بكذا والامتناع عن فعل كيت وجود تحذير مطول يقضي بعدم إهدار الورقة أو إتلافها: «هذه الورقة صنعتها أمك وأوريتو ، فاحفظيها على الدوام قرب قلبك ودعيها تكن عزيزة عليك ، لربما تعيشين في وفرة ولا ينقصك شيء ، ولكن عليك ألا تهدري الورقة، فقد كدحت أمك وأوريتو لصنعها . تشققت أيدينا ، واهترأت ، وتمزقت أطراف أصابعنا » . وفي مجمله ملأ هذا النهي عشرين سطراً . وعلم منه تسومورا أن أقارب أمه كانوا من صنّاع الورق ، وأن هناك امرأة ، هي خالته فيما يبدو ، تدعى أوريتو . وظهرت كذلك امرأة تدعى أواي . « تمضي أواي كل يوم إلى الجبال ، حيث يزداد عمق الجليد ، لاستخراج المرنطة ، فنحن جميعاً نعمل لادخار النقود ، وعندما ندخر ما يكفي لدفع أجرة السفر فسوف نزورك ، وبمقدورك انتظار حدوث ذلك » . وانتهت الرسالة بقصيدة تقول :

فؤاد الأم
التي تتنهد توقاً لطفلتها يدركه الليل ؛
ولذلك فإنني أحن
إلى ممر الظلام

قبل عهد السفر بالسكك الحديدية كان « ممر الظلام » يعبره جميع سالكي الطريق الرئيسي القديم من أوساكا إلى ياماتو . وكان المعبد الواقع عند قمة الممر شهيراً باعتباره مكاناً يصغى فيه لأصوات طيور الوقواق ، وقد مضى تسومورا إلى هناك عندما كان طالباً في المدرسة الإعدادية ، وخلال صعود الجبل ذات ليلة توقف لنيل قسط من الراحة في المعبد . وحوالي الساعة الرابعة أو الخامسة فجراً ، وفيما الشوجي الخارجي يطل عليه الضياء رهيفاً صاح وقواق فجأة مرة من قلب التلال الواقعة خلف غرفته ، ثم ندت صيحة أخرى ، سواء أكانت من الطائر نفسه أو من غيره ، ثم ثالثة . وفي التوّ توالى صياح طيور الوقواق حتى لم يعد فيه جديد . وفي ذلك الوقت حمل تسومورا الأمر على علاته ، ولكنه عندما قرأ الرسالة ، استعاد ذكرى صيامها بحنين بالغ . حدث نفسه بأنه قد فهم السر في أن الأسلاف قد قارنوا بين صوت هذا الطائر وأرواح الموتى .

ولكن تسومورا استشعر في موضع آخر من رسالة العجوز أغرب أشكال الإلفة ، فقد فصلت جدته لأمه القول مراراً وتكراراً فيما يتعلق بالثعالب : « ينبغي عليك صبيحة كل يوم ، من الآن فصاعداً ، أن تبتهلي إلى فرار ايناري وإلى الثعلب الأبيض مايوبو - نو - شين ، فكما تعلمين يأتي الثعلب على الدوام حينما يدعوه أبوك ، ويرجع هذا إلى أننا جميعاً على قلب رجل واحد » . « أعلم أننا ما استطعنا التغلب على مصاعبنا الأخيرة إلا بمساعدة الثعلب الأبيض . وفي كل يوم أصلي من أجل صحة وحسن طالع الناس الذين يظلونك تحت سقفهم . علينا التمسك بعروة الإيمان ! » . بدا جلياً من فقرات كهذه أن جدي تسومورا كانا من المتبتلين المخلصين لإيناري . وربما كان مزار إيناري مزاراً صغيراً شيد داخل الدار ، وربما كان

لمبعوث إيناري ، أي الثعلب الأبيض ، وكر قريب . أما فيما يتعلق بالفقرة القائلة « يأتي الثعلب على الدوام حينما يدعوه أبوك » فلم يكن من الواضح ما إذا كان الثعلب الأبيض يخرج بالفعل من وكره استجابة لصوت الرجل العجوز ، أم أنه يلج هذا الرجل أو المرأة متلبساً في صورة روح ، ولكن جد تسومورا كان بمقدوره استدعاء الثعلب حسبما يريد ، وكان الثعلب القائم على رعاية العجوزين ، يهيمن على مصير العائلة بكاملها .

جاء في الرسالة : « هذه الورقة صنعتها أمك وأوريتو ، فاحفظيها على الدوام قرب قلبك ، ودعيها تكون عزيزة عليك ! » . ضم تسومورا لفافة الورق إلى قلبه في إجلال . إذا كانت هذه الرسالة قد بعثت إلى أم تسومورا بعد وقت قصير من إيفادها إلى أوساكا ، أي قبل ١٨٧٧ ، فعمرها إذن ثلاثون أو أربعون عاماً ، ولكن الورق رغم أن الزمن حوله إلى لون بني جميل فقد كان يفوق في مادته كثيراً الورق الحديث وشديد المتانة . أمسك به تسومورا أمام المصباح وراح يتأمل الألياف القوية الرفيعة . واستعاد في ذهنه السطور القائلة : « كدحت أمك وأوريتو لصنعها ، تشققت أيدينا واهترأت ، وتمزقت أطراف أصابعنا » ، فأحس أن الورقة ، التي لم تكن بعيدة في الشبه عن جلد امرأة عجوز ، تتدفق بدم المرأة التي حملت أمه في أحشائها . لا شك في أن أمه بدورها قد ضمت الرسالة لدى وصولها إلى تلك الدار في شيما تشي إلى قلبها في إجلال على نحو ما فعل . وهكذا فإن الرسالة إذاً تحمل عبق ردني / ثوب المرأة الراحلة » كانت ذكرى عذبة وغالية على نحو مضاعف .

وبناء على ذلك ، استخدم تسومورا الإشارات الواردة في الرسالة للوصول إلى عائلة أمه . وما من حاجة تدعونا إلى وصف هذه العملية

بـالتفصيل . فـالفترة الممتـدة إلى ثلاثين أو أربعين عـاماً خلت قـد شهدت الاضطرابات المصاحبة لإصلاحات الميجي ، واندثرت دار كوناكاو الواقعة في رقم ٩ شيماتشي التي بيعت لها أمه وكذلك عائلة أوراكادو التي تبنتها قبـل وقت قصير من زواجهـا ، وتوفي الأسـاتذة الذين منحوها شهادات في عزف الكوتو والشاميسين وترتيب الزهـور وإعداد حفلات الشاي . وكان المفتاح الوحيـد في يده هـو الرسـالة نفسها ، والمنهاج الأكثر سهولة بل والوحيد هو القيام بزيارة قرية كوزو في منطقة يوشينو . وفي شتاء العام الذي توفيت فيـه جدتـه حرص على الالتزام بتقاليد الإجلال لها التي تستمر مائة يوم ، ثم كتم حقيقة هدفه عن الجميع ، وانطلق في حسم إلى كوزو .

من شأن التغيرات التي تطرأ على الريف أن تكون أقل حدة من تغيرات أوساكا . وكانت قرية كوزو بصفة خاصة قرية نائية ، توشك أن تكون زقاقاً جبلياً مسدوداً في جبال منطقة يوشينو ، وحتى عـائلة ريفية فقيرة لن يقدر لها أن تختفي تماماً ، في غضون جيلين أو ثلاثة أجيال . وإذ أثار هـذا الاحتمال انفعـال تسومـورا ، استأجـر عربـة ريكشا في كاميتشي ذات صبـاح زاهٍ في شهر ديسمبـر ، وأسرع إلى كوزو سالكاً الطريق الرئيسي ، الذي سلكه معي اليوم . عندما ألقى أول نظرة مترعة بالشوق على دور القرية اجتذبت عيناه تواً إلى الورق الـذي وضـع في الخـارج ليجف تحت طنف كـل دار على وجـه التقريب . رتبت رقعة الورق المربعة على ألواح في صفوف منتظمة ، تماماً كما توضع أعشاب البحر خارجاً لتجف في قرى الصيادين . وإذ تناثرت كأنها بطاقات هائلـة على جانبي الطريق الرئيسي وعلى سفوح التـل الممهدة عـالية وخفيضـة ، بدت رقـاع الورق صـافية البيـاض ومتـألقة في أشعـة الشمس الباردة . تحـدرت الـدمـوع على خـدي

تسومورا ، فقد كانت تلك أرض أسلافه . لقد حلم طويلاً بدار أمه ، والآن هو ذا يطأ أرضها. عندما ولدت أمه امتد أمام ناظرها المشهد المسالم ذاته الذي تقدمه هذه القرية الجبلية التي لا تعرف كر الزمان ولا فره، والذي يمتد أمامه الآن، أحس بأنه قاب قوسين أو أدنى من الماضي . ولو أنه أغمض عينيه للحظة لربما يرى أمه عندما يفتحهما ، وهي تلهو مع مجموعة من الصغيرات داخل السور الخيزراني الخشن غير بعيد عنه .

ولما كان اسم «كومبو» يبدو غريباً، فقد توقع أن يصل إلى العائلة سريعاً، ولكنه عندما وصل إلى الحي الذي يدعى كوبو كايتو علم أن هناك العديد من العائلات تحمل اسم كومبو . لم يكن هناك ما يمكن القيام به إلا المضي مع رجل عربة الريكشا من باب إلى باب سائلاً كل عائلة تحمل اسم كومبو . قيل له إنه ربما كان هناك شخص كهذا قديماً أما اليوم فما من أحد يدعى كومبو سوكيزايمون . وأخيراً نهض أحد معمري القرية من مؤخرة متجر للحلوى ، وقال : « تلك ربما كانت الدار التي تنشدها » . وقف في الشرفة ، وأشار إلى سقف يكسوه القش ، على جانب التل ، إلى اليسار من الطريق الرئيسي . طلب تسومورا من رجل عربة الريكشا انتظاره في حانوت الحلوى ، وتاركاً الطريق الرئيسي سلك ممراً صاعداً بالتدريج على ارتفاع ٦٠ متراً على منحدر يسير الانحدار ، للوصول إلى الدار ذات السقف المكسو بالقش . كان الصباح متشحاً بالبرودة ولكن ثلاث أو أربع دور تكأكأت في جيب متجانس من سنا الشمس ، واحتمت من الريح بتل هين الانحدار خلفها . كان تصنيع الورق يجري على قدم وساق في كل دار . وفيما تسومورا يرقى الممر ، أدرك أن بعض النسوة الشابات في الدور الواقعة أعلى التل قد كففن عن عملهن لينظرن في فضول

إلى الشاب المديني غير المألوف الذي أقبل نحوهن . بـدا أن صنع الورق هو من اختصـاص النسوة والفتيـات اللاتي يعملن في الأفنيـة الواقعة أمام الدور ، وغالبيتهن تلف مناشف على هيئة عصابـة حول الرأس . اقترب تسومورا عبـر الضوء الصـافي المبهج المنعكس من الورق والمناشف من الدار التي أشار العجوز إليها . إلى يمين الدار الرئيسية كـانت هناك سقيفـة ذات أرضية من ألـواح خشبيـة ثقيلة . كـانت لـوحـة الاسم تحمـل اسم « كـومبـو يـو شيمـاتسـو» ولپس سوكيزايمون . على أرضية السقيفة الخشبية أقعت فتاة فى السـابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها، قد غمست يديها في الماء، الذي بدا معتكراً كأنما غسـل الأرزفيه. راحت تحـرك إطاراً خشبيـاً جيئة وذهاباً في الماء ثم ترفعه برشاقة . وفيما الماء الأبيض المـوجود في الإطار ينساب من القـاع الذي جعـل على هيئة سلة للتبخيـر ، راح يرسب طبقة من الإرساب في شكل قـطعة من الـورق ، وناقلة هـذه الطبقة إلى موضعها في صف على الأرضية الخشبية ، غمست الإطار في الماء . ولما كان باب السقيفة مفتوحاً ، فقد وقف تسومورا وراء سور من زهور الأقحوان الذاوية ، وراح يرقب الفتاة وهي تعد ببراعة شريحتين ثم ثلاثاً من الورق . كانت رشيقة ، وتبدو ريفية إلى أبعد الحدود ، متينة البناء ذات بنية كبيـرة التكوين . كـان خداهـا قويين يكسوهما رواء الشباب المترع بالصحة ، لكن فؤاد تسومورا انجذب إلى أصـابعهـا المنغمسـة في المـاء المعتكـر . لا عجب إذن أن « تشققت أيدينا واهترأت ، وتمزقت أطراف أصابعنا » . ولكن حتى أصابعها الحمراء المتورمة والمهترئة في الهواء البارد كانت توحي بقوة الشبـاب التي لا يكبح جمـاحها . كـانت توحي بجمـال يـدعـو إلى الإشفاق .

حينما حول انتباهه بعيداً عنها ، لمح فراراً عتيقـاً لإيناري عنـد

الركن الأيسر للدار الرئيسية ، قادته قدماه عبر السور إلى الفناء ، دنا من امرأة في الرابعة أو الخامسة والعشرين من العمر ، يبدو أنها ربة الدار ، كانت تضع الورق خارجاً ليجف .

عندما سمعت منه بالغرض من زيارته ، ترددت ، فقد كان الأمر مفاجئاً تماماً . لكنه عندما أطلعها على الرسالة ، بدا الاقتناع عليها . قالت : « أخشى أنني لا علم لي بالأمر . ألا تحادث العجوز في هذا الشأن ؟ » وهتفت منادية امرأة داخل الدار . كانت هذه المرأة هي أوريتو التي ورد اسمها في الرسالة ، الأخت الكبرى لأم تسومورا .

على الرغم من ذهولها حيال الأسئلة التي أمطرها بها ، فإنها راحت تفكك خيوط ذكريات أوشك النسيان على محوها ، وراحت ترد شيئاً فشيئاً على أسئلته بفمها الأدرد . لم يكن بمقدورها الرد على بعض أسئلته بعد أن نسيت كل شيء عنها تماماً ، وفي بعض الأحيان كانت ذاكرتها تعابثها ، وترددت في الحديث عن بعض الأمور ، وكانت هناك مفارقات في حديثها ، وهي تغمغم وأنفاسها تصفر عبر شفتيها ، الأمر الذي يجعل من المتعذر فهم ما تقول ، وفي بعض الأحيان استحال عليه فهم المعنى الذي تقصده وإن كررت ما تقول مراراً . وكان أقل من نصف ما قالته واضحاً ، وتعين عليه إعمال خياله لاستكمال باقي التفاصيل ، لكنه علم بما يكفي لحسم الأسئلة التي كانت تراود ذهنه حول أمه طوال عقدين من الزمان . قالت العجوز إنها تعتقد أن أمه أرسلت إلى أوساكا في عهد كيو ، أي بين ١٨٦٥ و١٨٦٨ ، ولكنها قالت إنها وهي التي تبلغ الآن سبعة وستين عاماً ، كانت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها في ذلك الوقت ، وكانت أمه في الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وبالتالي فلا بد أن الأمر كان بعد إصلاحات الميجي في ١٨٦٨ . وبما أن الأمر

كـذلـك فـإن أمـه لم تمكث في شيمـاتشي إلا عامين أو ثـلاثة على أقصى تقدير ، قبل زواجها من سليل عائلة تسومورا بأربع سنوات . وخلص من جزئية ما قالـته أوريتا إلى أن عائلة كومبـو قد عـانت من ظروف قاهرة ، ولكن لما كـانت عائلة عـريقة تعتـز بسمعتها ، فقـد أخفت بقـدر الإمكان حقيقـة قيامهـا بـإرسـال ابنتهـا إلى مثـل هـذا المكان . وحتى بعد أن أصبحت عروساً في عائلة كريمة ـ وبالـطبع خلال فترة تعاقدها ـ نادراً ما اتصلوا بها ، معتقـدين أن في ذلك من الحرج ما فيـه لهم ولها على السـواء . والحقيقة أن الفتيـات اللاتي يدفع بهن إلى دور الترفيه سواء للعمل كفتيات جيشا أو كعاهرات أو فتيـات في مشارب الشـاي كن بحكم العـادة والعـرف يقـطعن كـل علاقاتهن مـع عائـلاتهن بمجرد ختم عقـود وضعهن في خدمـة تلك الدور . ومنذ تلك اللحظة فصاعداً ليس للعائلة الحق في التدخل في شؤون ابنتها أياً كان المصير الذي ستنتهي إليه . غير أن العجوز تتذكر على نحو غامض أن أمها قد زارت أوسـاكا مـرة أو مرتين بعـد زواج الفتاة من سليل عائلة تسومورا ، وقد عادت الأم لتتحدث في عجب عن ابنتها التي غدت الآن ربة عائلة لها شأنها وتحيا حياة الرفاه . كما تلقت رسالة كـذلك تـدعو أوريتـو إلى القدوم إلى أوسـاكا ، لكنهـا حسبت أنها ليس بمقدورها أن تظهر بشخصها المتواضع في مثل هذا المكان ، كما أن أختها لم تزر كوزو ثانية قط . وهكذا ، فإن أوريتو لم تعرف أختها في سن النضج أبداً . وعقب ذلك مات زوج أختها ، وأعقبه والـداها فانقطع كل اتصال مع عائـلة تسومورا نهـائياً . وقـد أشارت أوريتو إلى أختها ، أم تسومورا ، على الدوام بـطريقة ملتفـة كأن تقول « أمك العزيـزة » ، ربما كـان ذلك تـأدباً منهـا في حضرة تسومورا ، ولكن من المحتمـل كذلـك أنها قـد نسيت اسم أختها . وعندما سـألها عن أواي التي « تمضي كـل يوم إلى الجبـال ، حيث

يزداد عمق الجليد ، لاستخراج المرنطة » علم منها أنها الابنة الكبرى وأن أوريتو هي الثانية ، أما الثالثة فهي أم تسومورا ، أو سومي . وقد تزوجت أواي من سليل عائلة أخرى ، بينما تبنت العائلة زوج أوريتو وأصبح بالفعل رب عائلة كومبو . وقد ماتت أواي وكذلك زوج أوريتو . أما رب العائلة الجديد فهو يوشيماتسو نجل أوريتو ، وقد كانت زوجة يوشيماتسو هي التي رحبت بتسومورا في الفناء . وخلال حياة أم أوريتو ، لا بد أنها كانت تحتفظ ببعض الأوراق والرسائل المتعلقة بأوسومي ، أما الآن وبعد ثلاثة أجيال فلم يبق شيء . وبعد أن قالت أوريتو ذلك ، بدا أنها قد تذكرت شيئاً ، فقد انبعثت واقفة ، وفتحت باب مزار بوذا المنزلي ، واستخرجت صورة موضوعة بين اللوحات التذكارية ، وتذكر تسومورا أنه سبق له أن رآها من قبل ، فقد كانت صورة فوتوغرافية صغيرة لأمه التقطت لها قبيل موتها . وهو يحتفظ بنسخة منها في مجموعة صور العائلة .

بدا أن أوريتو تذكرت شيئاً آخر ، فقالت :

ـ نعم ، نعم ، إلى جانب هذه الصورة ، هناك كوتو . وكانت أمي تعتز به كثيراً ، وتقول إنه تذكار من ابنتها في أوساكا . لم أستخرجه منذ وقت طويل ،وأتساءل عن الحالة التي وصل إليها الآن.

كان الكوتو في موضع ما في المخزن أعلى الدار ، فيما قالته . وانتظر تسومورا عودة يوشيماتسو من الحقل لكي يطلعه عليه ، وفي غضون ذلك تناول طعام الغداء في الحي . ولدى عودته إلى الدار ، ساعد الزوجين الشابين في حمل الآلة الموسيقية الرقيقة ، التي كانت مغطاة بطبقة سميكة من الغبار ، إلى الشرفة حيث الضوء الوافر .

كانت الآلة إرثاً متناقضاً مع طبيعة هذه الدار . وعندما أزالوا الغطاء الباهت اللون ، وجدوا كوتو عتيقاً ورائعاً ومطلياً باللك ،

يصل طوله إلى ستة أقدام . كانت زخارف مرسومة باللك تنتشر على الآلة الموسيقية بكاملها تقريباً ، باستثناء « الغطاء الصوفي » الممتد تحت الأوتار . أما « الشطآن » الممتدة على جانبي الآلة فقد زخرفت بمشاهد من « سوميوشي » : فعلى أحد الجانبين رتبت بوابة مزار وجسر محدب في غابة صنوبر وعلى الجانب الآخر رسم مصباح حجري طويل وأشجار صنوبر تعابثها الريح وأمواج تداعب شاطىء البحر ، وحلقت أعداد لا تحصى من طيور الزقزاق حول « البحر » و« قرني التنين » ، بينما قرب « الرداء القصبي » وتحت « ورقة السنديان » كان من الممكن تبين شكل ملاك من خلال سحب خماسية الألوان . وقد اسود خشب البولفونية المبطن بفعل الزمن ، بحيث أن اللك والطلاء يفجآن العين بنور رهيف واه . أزال تسومورا الغبار عن القماش وفحص تصميم الكوتو . بدا القماش من نسيج شيوزي ، وهو حرير ثقيل له تقليمات أفقية بارزة . على الجزء العلوي من السطح الخارجي رسم شعار هو زهرتا مشمش مزدوجتان باللون الأبيض على أرضية حمراء ، وعلى الجزء الأسفل رسمت حسناء صينية تجلس في برج وتعزف علىْ الكوتو . وعلى أعمدة البرج تدلى لوحان رأسيان ضيقان نقش عليهما بيتان من الشعر الصيني :

إنها تعزف على الأوتار الخمسة والعشرين في ليلة مقمرة .
فيلتم سرب الأوز في الشمال ، وقد شفه الصوت النقي الحزين .

وظهر على الجانب الآخر للغطاء تكوين يضم أوزّات خلفها القمر ، وإلى جواره قصيدة نظمت باليابانية :

حسبتها

سرباً من الأوز
أمشاطاً على الكوتو
تحاكي الدروب الملتفة بالغيم .

غير أن زهرتي المشمش المزدوجتين ليستا رمز عائلة تسومورا ، وربما كانتا رمز عائلة أوراكادو التي تبنتها أو حتى رمز دار شيماتشي التي عملت بها . وربما عندما تزوجت من سليل عائلة تسومورا لم تعد بحاجة إلى هذا الأثر من آثار عملها في دار الترفيه ، فبعثت به إلى دارها في الريف . ومن المحتمل أيضاً أنه كانت هناك في العائلة فتاة في سن الزواج في ذلك الوقت قبلت العجوز الكوتو هدية لها . ومن ناحية أخرى فإن والدة تسومورا ربما قد احتفظت بالآلة الموسيقية كل السنوات الممتدة منذ عهد دار شيماتشي وتركته لعائلتها لدى وفاتها . ولكن أوريتو والزوجين الشابين لم يكن لهم علم . قالوا إنهم يحسبون أن الكوتو كانت معه رسالة ذات يوم ، ولكنها فقدت فيما يبدو ، وهم لا يذكرون إلا أن الكوتو جاء من « تلك التي أرسلناها إلى أوساكا » .

كان هناك صندوق صغير لقطع الكوتو ، يضم الأمشاط وريش العزف . وكانت الأمشاط مصنوعة من خشب صلب قاتم اللون مطلي باللك بزخارف تجمع بين الصنوبر والخيزران . وقد بليت الأمشاط من كثرة الاستخدام . تأثر تسومورا بفكرة أن أمه قد مررتها على أصابعها الرهيفة . لم يستطع مقاومة دافع يدعوه إلى تمرير أحد الأمشاط على أصبعه الأصغر . طفا أمام عينيه ذلك المشهد من مشاهد طفولته ، الذي تعزف فيه امرأة رهيفة في غرفة داخلية مقطوعة « صرخة الثعلب » مع أستاذها . ربما لم تكن المرأة أمه ولا الكوتو المستخدم وقتها هو الكوتو الماثل بين يديه ، ولكن ربما عزفت عليه

أمه مرات عديدة ، وهي تغني هذه الأنشودة . حدّث نفسه بأنه يود ، لو كان ذلك ممكناً ، إعادة هذه الآلة إلى أفضل حالاتها وأن يطلب من شخص مناسب أن يعزف عليها مقطوعة « صرخة الثعلب » في الذكرى السنوية لوفاة أمه .

كان مزار ايناري الكائن في الحديقة موضع توقير ، على امتداد أجيال ، باعتباره الحارس الروحي للعائلة ، وهكذا كان بمقدور الزوجين الشابين أن يؤكدا صحة ما ورد عنه في الرسالة ، ولكن لم يعد في العائلة الآن من يستدعي الثعالب . وكان يو شيماتسو قد سمع في طفولته شائعات تتردد عن أن جده يقوم بذلك في أحيان كثيرة ، ولكن في وقت من الأوقات كف « الثعلب الأبيض مايوبو ـ نو ـ شين » عن الظهور ، أما الآن فليس هناك إلا وجر ثعلب قديم في ظل شجرة سنديان وراء المزار . وعندما اصطحب تسومورا إلى الوجر ليراه ، ألفى حبلاً مقدساً يمتد وحيداً عبر الفتحة .

وقعت الأحداث التي سردها عليّ تسومورا في العام الذي توفيت جدته خلاله ، أي قبل عامين أو ثلاثة من اليوم الذي حدثني فيه بالقصة خلال جلوسنا على الصخور في مياتاكي . وكان « الأقارب في كوزو » ، الذين سبق له ذكرهم لي في رسالته إلي هم العجوز أوريتو وعائلتها . فقد كانت أوريتو ، في نهاية المطاف ، خالته ، وكانت عائلتها هي عائلته . ووفقاً لهذا ، جدد منذ ذلك الوقت الارتباط الأسري بينه وبين أقاربه . ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب ، فقد ساعدهم على الصعيد المالي ، وبنى داراً صغيرة منفصلة لخالته ووسع نطاق ورشة الورق . وكنتيجة لهذا كان بمقدور عائلة كومبو أن تواصل صناعتها اليدوية على نطاق كبير بشكل ملحوظ .

٦ ـ شيونوها

قلت متسائلاً :

ـ إذن ما الغرض من هذه الرحلة . هل جئت لترى خالتك ؟

كنا لا نزال جالسين على الصخور، ناسين أن الظلام يلتم حولنا وئيداً . وقد وصل تسومورا إلى موضع للوقوف في حكايته الطويلة . قال :

ـ طيب ، هناك شيء لم أحدثك به بعد .

في الغسق كنا بالكاد نتبين الزبد على المنحدرات وهو يرتطم بالصخور أسفلنا . لكن كان بمقدوري أن أحس بتسومورا وهو يتضرج خجلاً لدى قوله هذه الكلمات .

ـ عندما وقفت خارج السور في دار خالتي للمرة الأولى ، كانت هناك فتاة في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها عاكفة على صنع الورق . هل تتذكر أنني قلت لك ذلك ؟

ـ نعم .

ـ لقد اتضح أنها حفيدة خالتي الأخرى، أي خالتي أواي ، التي ماتت . وتصادف وجودها في دار كومبو في ذلك اليوم لتقديم يد المساعدة في صنع الورق .

وكما ظننت ، زحف رنين الإحساس بالحرج إلى صوت تسومورا .

ـ كما سبق لي القول قبلاً ، فهي بصراحة فتاة ريفية ، وليست بديعة الحسن بحال ، وإذ تعكف على العمل في البرد وفي الماء على هذا النحو ، فإن يديها تبدوان بعيدتين عن الرهافة بل ومشققتين على نحو فظيع . ولكن ذلك السطر الذي ورد في الرسالة

لا بـد أنه أوحى لي بشيء مـا « تشققت أيدينـا واهترأت ، وتمـزقت أطراف أصابعنا » ؛ لأنني ويا للغـرابة استشعـرت وداً وانجذابـاً نحو تلك الفتـاة ، في اللحظة التي رأيت خـلالها يـديها الحمـراوين في الماء . ثم إن شيئاً ما في ملامحها يشبه محيا أمي على نحو ما يتبدى في الصور . لا مجال لإنكار أنها تنتمي إلى طراز الفتيات العاملات في البيـوت ، بسبب الطريقـة التي نشئت بها ، ولكن مـع قليل من الصقل قد تغدو أقرب إلى أمي .

ـ فهمت . إنها ، إذن ، الطبل هاتسوني الخاص بك .

ـ نعم ، أصبت . . طيب . ما رأيك ؟ إنني أود الزواج منها .

كان اسمها أواسا . فقد تزوجت أوموتو بنت أواي من سليل عائلة من المزارعين تدعى إتشيدا ، تقطن قرب كاشيـواجي . وقد ولـدت أواسـا هناك . ولمـا كانت عـائلتها معـوزة ، فقد مضت إلى جـوجو للعمل كخادمة بعد إتمامها دراستها الابتدائية ، وعادت إلى بيتها في السابعة عشرة من عمرها لأن عائلتها بحاجة إليها في العمل ، وراحت تقدم يد العون في العمل بالمزرعة . ولكن في الشتاء ، ونظراً لعدم وجـود ما تقـوم به ، أرسلت إلى عـائلة كومبـو للمساعـدة في صنـع الورق . ولسوف تكون هناك هذا العام أيضاً ، ولكنها ربمـا لم تأت بعد . وقد أراد تسومورا أولاً أن يفاتح خالته أوريتو والزوجين الشابين بحقيقة نواياه ، ثم بحسب نتيجة هذه المشاورة ، سيـطلب منهم أن يرسلوا إليها طالبين الحضور تواً ، أو يتوجه لزيارتها بنفسه .

ـ إذن ، فلو أن كل شيء مضى على ما يـرام فسوف أتمكن من مقابلة أواسا أيضاً ؟

ـ نعم . لقد دعوتك لمصاحبتي في هـذه الرحلة ، لكي تتمكن

من مقابلتها وإبلاغي برأيك ؛ فظروفنا شديدة التباين بحيث أنني أحس بقليل من التوتر فيما يتعلق بما إذا كنا سنسعد في زواجنا . إنني واثق من أن الأمر سيكون على ما يرام . ولكن . . .

بناء على إلحاحي ، نهضنا من بين الصخور ، حيث كنا جالسين ، واستأجرنا عربة ريكشا إلى مياتاكي . ولدى وصولنا إلى دار كومبو في كوزو كان الليل قد أرخى سدوله . أما فيما يتعلق بانطباعاتي عن أوريتو وعائلتها ومظهر الدار وتسهيلات صناعة الورق ، فربما يكون مما لا يقتضيه المقام أن أكتب عن كل ذلك هنا ، وأشغل حيزاً أكبر مما ينبغي . وسأكتفي بإيراد أمور بقيت عالقة بذاكرتي . لم تكن الكهرباء قد دخلت المنطقة بعد ، ولذا رحنا نتجاذب أطراف الحديث مع العائلة ونحن جلوس إلى جوار مصطلى كبير تحت مصباح زيتي . كانت الدار نموذجاً للكوخ الجبلي الذي يبلغ حد الكمال . وكانوا يستخدمون خشب السنديان من النوعين دائم الخضرة والذي يطرح أوراقه موسمياً ، وخشب التوت في المصطلى . كان خشب التوت يحترق ببطء بالغ ، وتنبعث منه حرارة هادئة ، فيما ذكروه ، وقد راكموا كميات كبيرة منه على النار . وقد دهشت لروعته غير المتصورة في المدينة . بدت عروق الخشب والسقف فوق المصطلى متألقة بلون أسود فائق الروعة في ضوء النار المقرقعة، كأنما مسها الطلاء بقار الفحم لتوها . وأخيراً كانت أسماك الاسقمري من شواطىء كومانو المتربعة على أطباق عشائنا شهية . وعادة ما تسفد هذه الأسماك، التي تصطاد من شواطىء كومانو على أوراق الخيزران وتجلب عبر الجبال حيث تباع . وخلال الأيام الخمسة أو الستة ، التي تستغرقها هذه الرحلة ، تجفف على نحو طبيعي في الهواء ، وفي بعض الأحيان تنطلق الثعالب بعيداً بالسمك المجفف ، أو هكذا قيل لي .

في صباح اليوم التالي ، قررت وتسومورا أن يواصل كل منا أنشطة على نحو منفصل ، لبعض الوقت ، فهو سوف يمضي قدماً بذلك الموضوع الذي يهمه كثيراً ، ويقنع عائلة كومبو بمساعدته في ترتيب الزواج . وحتى لا أعرقل مسيرته سأمضي في رحلة تستغرق خمسة أو ستة أيام ، إلى نبع نهر يوشينو ، بحثاً عن مادة لروايتي . مغادراً كوزو في اليوم الأول ، سأزور قبر الأمير أوجورا ، نجل الأمبراطور جوكا مياما في قرية أونوجاوا ، ثم أعبر ممر جوشا إلى قرية كاواكامي ، وأمضي الليل في كاشيواجي . وفي اليوم الثاني ، سأعبر ممر أوباجامين ، وأبيت ليلتي في كاواي في قرية كيتاياما . وفي اليوم الثالث ، سأزور معبد رايو سين في كوتوتشي ، حيث مقام قصر الملك السماوي وقبر الأمير كيتاياما ، ثم أتسلق أودايجاهارا وأقضي ليلتي في الجبال . وفي اليوم الرابع ، سأمر بينابيع جوشيكي الحارة وأستكشف وادي سانوكو ، ثم إذا تمكنت من النفاد سأمضي لرؤية سهل هاتشيمان والسهل المحتجب ، وأبيت في كوخ أحد الحطابين ، أو أبلغ شيونوها لأقضي ليلتي هناك . وفي اليوم الخامس سأعود إلى كاشيواجي من شيونوها ، وفي اليوم نفسه أو الذي يليه أعود إلى كوزو . كان هذا هو الجدول الزمني الذي وضعته لنفسي بعد استشارة عائلة كومبو فيما يتعلق بالمسائل الجغرافية . رتبت للقائنا لاحقاً ، وتمنيت لتسومورا التوفيق ، وانطلقت في مسيرتي . وفيما كنت أغادر المكان قال تسومورا إنه قد يمضي إلى دار أواسا في كاشيواجي ، وأوضح لي كيفية العثور عليه ، وطلب مني التوقف هناك ، على سبيل الاحتياط لدى وصولي إلى كاشيواجي في طريق عودتي .

مضت رحلتي وفق برنامجها الزمني على وجه التقريب . وأسمع

اليوم أنه حتى ممر أوباجامين الوعر تعبره الحافلات ، وبمقدور المرء أن يمضي وصولاً حتى كينوموتو في منطقة كاي دون السير على الأقدام . لشد ما تغير العالم منذ قمت برحلتي تلك ! واكبني طقس طيب ، فتمكنت من جمع مواد تفوق ما كنت أتوقعه وانطلقت في رابع أيام رحلتي دونما تحسب للمخاطر أو الصعوبات ، ولكني حرت في أمري لدى مدخل وادي سانوكو ، وحتى قبل أن أصل إليه كان الناس يقولون لي غالباً : « ذلك هو الموضع الصعب » أو « ماذا ! هل ستمضي إلى سانوكو ؟» وقد حسبت أنني متأهب لملاقاته . وبناء على هذا ، فقد غيرت برنامجي قليلاً في اليوم الرابع وحجزت غرفة في ينابيع جوشيكي الحارة . وشرعت مستعيناً بمرشد لمساعدتي في السير صباح اليوم التالي . كان الطريق يمضي بمحاذاة نهر يوشينو نزولاً من منبعه على جبل أودايجاهارا . وعند موضع يقال له نينوماتا ، حيث يلتقي غدير آخر بالنهر، انقسم الطريق إلى فرعين ، فرع يمضي مباشرة إلى شيونوها ، والآخر ينحني يميناً ويتغلغل في وادي سانوكو . كان الطريق الرئيسي المفضي إلى شيونوها طريقاً لا موضع للخطأ في الاعتقاد بأنه كذلك ، ولكن الفرع الأيمن كان مدقاً ضيقاً يمتد عبر غابة كثيفة من أشجار الأرز . وزاد الطين بلة أن المطر الذي هطل البارحة جعل الماء يتدفق هداراً في نهر نينوماتا مكتسحاً الجسور الخشبية أو تاركاً إياها متدلية على نحو خطر ، وهكذا اضطررت إلى القفز من صخرة إلى أخرى عبر الماء المندفع ، وفي بعض الأحيان إلى الزحف على أربع . في المرتقيات العليا لنهر نينوماتا يمتد « نهر أوكوتاما » . ومن هناك عبرنا قاع نهر جيزو ، ووصلنا أخيراً إلى نهر سانوكو . كان الدرب بين الأنهار يضيق على امتداد وجه صخرة هائلة الانحدار . وفي بعض المواضع كان الدرب شديد الضيق بحيث لا يسمح للمرء بوضع قدميه إحداهما إلى جوار

الأخـرى ، وفي البعض الآخر كـان يختفي كلية . وامتـدت قطع أو ألواح من الخشب مع وصلاتها متأرجحة معاً في الهواء تتيـح المرور عبـر المهـاوي . وعلى هـذا النحـو شق الـدرب طـريقـه الـدائـري بمنعطفاته والتواءاته على امتداد الصخور . وكان بمقدور أحد سكان الجبال القيام بهذه المسيرة قبل تناول إفطاره ، ولكن الرياضة البدنية كانت هي نقطة ضعفي في المدرسة الإعـدادية : العقلة ، السلم ، المتوازيات ، تلك ألعاب كانت على الدوام تجعل الـدمع يـطفر من عيني . وقـد كنت شابـاً وقت قيامي بـالرحـلة إلى يوشينـو ، ولست بالبدانة التي أنا عليها الآن ، وبمقدوري في يسر أن أسير عشرين أو خمسة وعشرين ميلاً على أرض مسطحـة ، ولكن ها هنـا كان عليّ الزحف على أربع ، بحيث أن مناط الأمر لم يكن مدى قوة ساقيّ ، وإنما حالتي البدنية بكاملها . وإني على يقين من أن الشحوب غالباً ما نالني إلى حد الزرقة وأن الانفعال طاردني حتى التضرج ، والحق أقول إنه لو لم يكن هناك مـرشد بصحبتي لنكصت على عقبي عنـد جسر نينومـاتا الخشبي . فقـد أخذني الخجـل في وجوده من إتيـان ذلك ؛ ولذا تقدمت في عجز وساقاي تـرتجفان . وبنـاء على هذا ، فرغم أن الألوان التي نثرها الخريف في الوادي كانت رائعة الحسن ، إلا أنني كنت من الانشغال بمواضع أقدامي بحيث لم أرفع عيني عنها إلا حينما يفزعني طائر قرقف صغير عابر بالتحليق قاب قوسين أو أدنى من أنفي ؛ ولذا فإنني يحـرجني أن أقول إنني أفتقـر إلى المؤهلات التي تمكنني من وصف المناظر الطبيعية بالتفصيل . غير أن مرشدي كان لا يواجه عناء ولا توتراً البتة ، أطبق شفتيه على سيجارة معدة من الطباق المفتت وملفـوفة في ورقـة من أوراق شجر الكـاميليا ، وشق طـريقه في يسـر على امتداد الـدرب الزلق . وخـلال مسيـره ، راح يحدثني معرفاً بالشلالات والصخور في الوادي الذي يقع أسفلنا على مسافة بعيدة .

قال لي في أحد المواضع : « تلك هي الصخرة التي يطلق عليها اسم جوزينموسو » ثم في موضع أبعد قليلاً أضاف : « تلك هي الصخرة التي تدعى بيرو بيدو » . وبنظراتي المترعة خوفاً إلى بطن الوادي لم يكن بمقدوري التيقن أيهما هي بيرو بيدو وأيهما جوزينموسو . لكن دليلي قال لي إنه ينبغي أن تكون هناك صخرتان تحملان هذين الاسمين ، في واد شغله ملك في قديم الزمان ، فقبل أربع أو خمس سنوات أقبل شخص ذو حيثية من طوكيو ـ ربما كان باحثاً أو أستاذاً جامعياً أو موظفاً حكومياً ـ لرؤية الوادي . وتساءل هذا الشخص قائلاً : « أهناك صخرة يطلق عليها اسم جوزينموسو ؟» فرد مرشدي : « أجل ، يا سيدي ، هناك » وأشار إلى صخرة معينة . «إذن فهل هناك صخرة تدعى بيرو بيدو؟» فأجاب مرشدي مشيراً إلى صخرة أخرى « أجل ، يا سيدي ، هناك ». « طيب ، طيب ، في هذه الحالة فلا بد أن الملك السماوي قدم إلى هنا دونما شك ». وانقلب عائداً إلى طوكيو بكثير من التأثر . تلك هي القصة التي رواها لي مرشدي ، ولكنه لم يكن يدري أصل هذين الاسمين الغريبين .

وكان دليلي على معرفة طيبة بالعديد من الأساطير الأخرى كذلك . فالمطاردون الذين أقبلوا من العاصمة ، جاهلين بمقر الملك السماوي ، راحوا ينقبون عنه من جبل إلى آخر . وذات يوم لدى وصولهم بالمصادفة إلى هذا الوادي ، لمحوا الذهب يهل عليهم مقبلاً مع النهر ، فتبعوا مصدر الذهب صعداً مع النهر ، حتى عثروا على القصر . وتقول قصة أخرى إنه بعد انتقال الملك إلى قصر كيتاياما ، اعتاد الذهاب كل صباح ليغسل وجهه في نهر كيتاياما ، الذي كان يتدفق أمام القصر . وكان بصحبته على الدوام بديلان يشبهانه ، بحيث لا يستطيع أحد معرفة الملك الحقيقي . وسأل

المطاردون عجوزاً قروية تصادف مرورهم بها ، فقالت لهم : « هو ذاك، هذا الأشهب الأنفاس هو الملك ». وبفضلها تمكن المطاردون من مهاجمة الملك والحصول على رأسه ، ولكن بعد ذلك بأجيال كان نسل العجوز يولدون عرجاً .

في حوالي الساعة الواحدة من بعد الظهر ، وصلت إلى كوخ في سهل هاتشيمان ، حيث مضغت طعام غدائي، وسجلت هذه الأساطير في كراستي ، كانت المسافة هي سبعة أميال أخرى حتى السهل المحتجب والعودة ، ولكن المعبر كان أكثر سهولة في اجتيازه من المعبر الذي مضيت عبره في الصباح ولكنه رغم ذلك وفي ضوء رغبة رجال البلاط الجنوبي في تجنب ملاحظة الآخرين لهم ، كان فم الوادي مستعصياً على من يحاول الوصول إليه. ومن المؤكد أنه لم تنظم في هذا الموضع قصيدة الأمير كيتايان التي يقول فيها :

هارباً ، ها هنا ألقي عصا الترحال ،
في أغوار الجبال وأستكين
وراء باب من أغصان الأشجار ـ
فيتوحد فؤادي والقمر .

وخلاصة القول إن سانوكو قد يكون معقلاً للأساطير ، ولكنه ليس ملاذاً للتاريخ . في تلك الليلة مكثت مع مرشدي في دار أحد أبناء المنطقة في سهل هاتشيمان ، ودعينا إلى عشاء من لحم الأرانب . وفي اليوم التالي ، انطلقنا في الطريق ذاته ، عائدين إلى نينوماتا ، حيث افترقت عن مرشدي ، ومضيت وحيداً إلى شينوها . وكنت قد سمعت قبلاً بأن المسافة لا تعدو ميلين ونصف الميل من هنا إلى كاشيواجي . ولكن كانت هناك ينابيع حارة عند حافة النهر ، ولذا مضيت للاستحمام فيها . امتد جسر معلق عبر نهر يوشينو حيث

يتسع مجراه بالدفق الإضافي من مياه نهر نينوماتا . عبرت النهر ، فألفيت الينابيع على ضفة النهر تحت الجسر مباشرة . ولكني حينما تلمست الماء بكفي لم أجده أكثر حرارة من ماء ناله الدفء من أشعة الشمس . وكانت النسوة الفلاحات منهمكات في غسل الفجل فيه .

ـ لا يمكنك الاستحمام هنا إلا في الصيف وحده . أما في هذا الوقت من العام فإننا نضع الماء في ذلك الوعاء الكبير هناك ونسخنه .

أشارت النسوة إلى وعاء استحمام كبير ممدد على حافة النهر . وفيما التفتّ لألقي نظرة ، ناداني أحدهم من فوق الجسر المعلق في الأعالي قائلاً : مرحباً !

كان تسومورا ، وقد راح يعبر الجسر متجهاً نحوي مع فتاة ، لا شك أنها أواسا تسير وراءه . تأرجح الجسر قليلاً تحت ثقلهما ، وتردد صدى وقع خفيهما الخشبيين في الوادي .

لم يقدر لي قط أن أكتب الرواية التاريخية التي أعددت لها ؛ فقد كان هناك من المادة أكثر مما أستطيع تناوله . ولكن أواسا ، التي رأيتها على الجسر ذاك اليوم ، هي الآن زوجة تسومورا . كانت الرحلة مثمرة بالنسبة له أكثر مما كانته لي .

ملاحظة حول الثعالب

تتمتع الثعالب اليابانية بقوى سحرية معينة ؛ ذلك أن بمقدورها اتخاذ هيئة أي شخص أو شيء تشاء ، وغالباً ما تستخدم هذه المقدرة لإلحاق الأذى بالبشر . وفي مسرحية تانيزاكي الموسومة « ينابيع الثعلب الأبيض الحارة »، يسلب ثعلب لب فلاح شاب بالتجلي له في هيئة امرأة أجنبية جميلة ، فيلقى الفلاح حتفه . ولكن إحدى ضحايا

إيذاء الثعالب للبشر عند تانيزاكي تبدو أسعد حظاً ؛ ففي حكاية نشرت مع « المرنطة » في ١٩٣٢ تحت عنوان « ثعلب يفتن أحد ملتقطي اللك في مقاطعة كاي » يفلح الحطاب المشار إليه في العنوان في الإفلات بجلده، دون أن يلحقه ضرر ولا أذى .

وهناك كذلك ثعالب خيّرة . وأشهر الأمثلة على هذه الثعالب يتمثل في الثعلبة الأم في مسرحية الكابوكي الموسومة « أوراق المرنطة »، فهي زوجة وأم مخلصة ، وهي لا تفارق أسرتها البشرية إلا بعد أن ينكشف تنكرها . وهناك ثعلب آخر يخاطب مشاعرنا هو جنكورو الذي يتخذ هيئة تابع يوشيتسوني المخلص تادانوبو في « يوشيتسوني وشجرات الكرز الألف »، وذلك لكي يتمكن من البقاء قرب الطبل الذي شد عليه جلدي أبويه .

وبعض الناس يحيون تحت حماية خاصة من الثعالب، على نحو ما يبدو أن الحال عليه بالنسبة لجدي تسومورا . وبشكل أكثر عمومية ، يعتقد أن الثعالب هي رسل إيناري ، رب الحصاد وراعي الفلاحين وصانعي السيوف . وتوجد تماثيل الثعالب على الدوام عند مداخل مزارات إيناري .

والثعالب شديدة الولع بالتمبورا والتوفو المقلي بحيث أنها يمكن استدعاؤها بوضع هذين الطعامين الشهيين خارج الدور . وهي ، كما نعلم في « المرنطة»، لا تملك كذلك دفعاً لإغراء السمك المنجفف .

فهرس

. . . «ذات ليلة، حينما مثَّلت بحضرة مولاية ومولاتي، أمرني الأمير تيروكاتسو بالدنّو منه، قال: - مقابل الإبقاء على حياتك، أريدك أن تؤدي دور رجل ميت، وأن تقلّد رأساً. . . إنزل ها هنا وابرز رأسك من خلال هذه الفتحة. . . !.

. . . ثم التفت تيروكاتسو إلى السيدات:

- عليكن بمعاملته كأنه رأس رجل ميت، لا ينبغي أن تعتقدن أن «دُوامي» رجل حيّ!.

تخيّر ثلاث نساء، وعهد إلى كلٍ بوظيفتها: غسل الرأس، وضع أدوات التجميل عليها، وإلصاق لافتة التصنيف بها. . .

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف: مها نصرالله